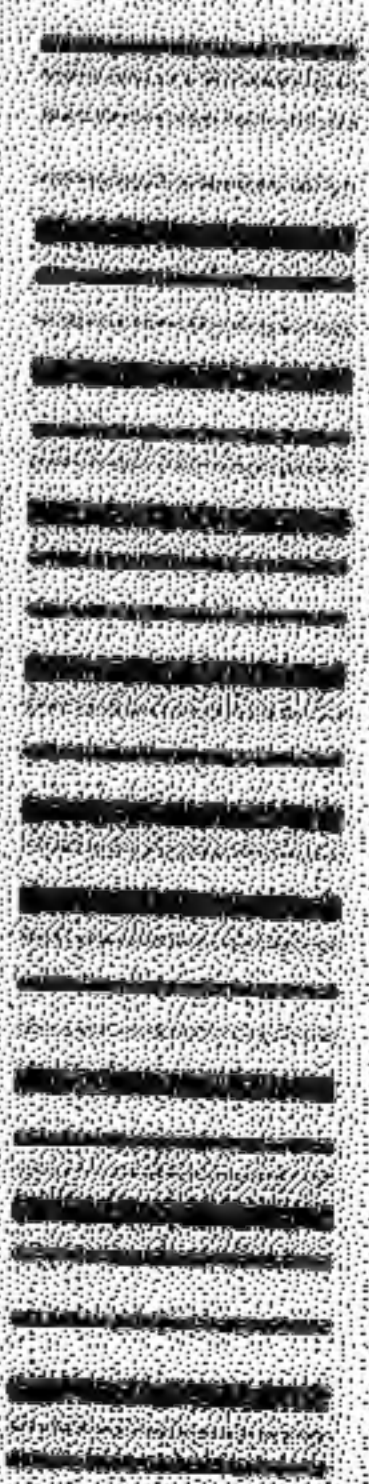




Bibliotheca Alexandrina



0105681



















دراسات في تاريخ أوروبا  
في العصور الوسطى

- ١ -

دَوْلَةُ الْقُوْطِ الْغَرْبِيَّةِ

تأليف

دكتور إبراهيم علي طرخان

مدرس تاريخ العصور الوسطى  
بكلية الآداب — جامعة القاهرة  
فرع الخرطوم

١٩٥٨

مترجم الطبع والنشر  
مكتبة النهضة المصرية  
٩ شارع عدلي بالقاهرة







بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

بينما انتهت حركات الجرمان بقيام ممالك جديدة غيرت من صفحة التاريخ الأوربي في العصور الوسطى ، لم تؤد حركات القبائل التتريية إلى استقرار خطير ذي أثر مباشر في المدنية، غير أن هجرتها وغزواتها هامة من ناحية أخرى، ألا وهي ضغطها المستمر على غيرها من العناصر البربرية مثل القوط الجرمان وغيرهم ، فاندفعت العناصر الأخيرة أمامها إلى حيث استقرت في قلب العالم الروماني ( Orbis Romanus ) .

ونظرة واحدة إلى خريطة أوربا في نهاية القرن الرابع الميلادي ، أي عند وفاة الإمبراطور ثيودوسيوس ( ٣٩٥ ) ، ترينا خطورة الوضع الذي آل إليه أمر الإمبراطورية الرومانية ؛ فعلى ضفاف الراين والدانوب ، نجد أما كن تلك القبائل التي اقتطعت الكثير من أراضي الرومان ، والتي غدت مسألة المسائل ، إن لم تسكن المسألة الوحيدة ، لأباطرة الرومان ، سواء في الشرق أم في الغرب . وكذلك يمكن القول إنه إذا كانت الحضارة الهلينية والإمبراطورية الرومانية والديانة المسيحية ، العوامل الثلاثة التي سيطرت على التاريخ الأوربي حتى القرن الرابع الميلادي، فإنه منذ ذلك القرن فصاعدا ، برز عامل رابع انفرد بالسيطرة على هذا التاريخ ، ويتمثل هذا العامل في ظهور الجرمان وتأسيس ممالكهم على انقاض الإمبراطورية الرومانية .

ومن ناحية أخرى ، إذا عدّ القرنجة أهم عناصر الجرمان الغربيين ، فإن القوط أبرز عناصر الفريق الشرقي منهم ، فضلا عن أنهم أقوى العناصر الجرمانية



إطلاقاً وأكثرها عدداً ؛ ويليه من حيث العدد الفرنجة ثم البرجنديون واللومبارد ؛ وكما أن الفرنجة لا حقون للقوط في مجال العدد ، فهم كذلك في الحل الثاني بالنسبة إليهم من ناحية المدنية والثقافة ؛ فالقوط ، من بين سائر العناصر الجرمانية أو التيوتونية ، لغة مكتوبة ، وأبجدية قوطية ؛ حقيقة كان للسكسون أبجدية ، لكنهم لم يكتبوا بها إلا في القرن السابع الميلادي ، يوم دوتوا قوانينهم باللغة السكسونية ؛ واستخدام الكتابة عند شعب من الشعوب ، في تاريخه الباكر ، دليل حضارته وتقدمه ، بالقياس إلى الشعوب المعاصرة التي لم تظهر بهذه اليزه . هذا والقوط عامة ، والغربيون منهم على وجه خاص ، أول الشعوب الجرمانية اعتناقاً للمسيحية ؛ لهم ترجمة قوطية للإنجيل كتبها المبشر أولفيلاس القوطي في القرن الرابع الميلادي ؛ وهم الذين كونوا إمبراطورية مترامية الأطراف شمالي البحر الأسود خلال ذلك القرن ، على حين كان غيرهم من شعوب الجرمان لم يزل مضطرباً في مناطق مختلفة محدودة لم تبلغ مبلغ الإمبراطورية القوطية من قوة وسلطان . ثم إن القوط أكثر أقرانهم تأثراً بحضارة الرومان وأشدّهم إلحاحاً في التشبه بهم ، بل إن أحد ملوك القوط الغربيين حاول مخلصاً أن يظفر بلقب « بحى العالم الرومانى » ، وينفرد هولاء الغربيون ، عن سائر العناصر الجرمانية ، بما خلفوه من تراث قانونى عُدَّ أعظم عمل قانونى صدر عن جماعة الجرمان ، ووجه الأهمية في هذا التراث نفسه وفي إدراكهم أهمية التقنين ، وهذا من أهم قواعد المدنية الحديثة ؛ وأخيراً لتاريخ القوط الغربيين أهمية خاصة من وجهة النظر العربية ، وهى اتصاله بالتاريخ العربى الإسلامى ، اتصالاً كان من نتائجه قيام حضارة عربية إسلامية رفيعة في أرض أوربية ؛ وربما ظل السكيان السياسى لدولة القوط الغربيين في أسبانيا ، كما ظل الفرنجة في غاله ، لو لم يظهر العرب ، فالأخطار التي تعرض لها القوط من جانب الفرنجة أو البسقاويين ( البشكنس ) أو حتى من جانب روما الشرقية أو من جانب الأقليات القوية



( هـ )

انطاعة لهم فى شبه جزيرة أيبيريا مثل السويث ( الجلالة ) واليهود ، هذه .  
لم تكن شيئاً مذكوراً إذا ما قورنت بموجة الفتوح الإسلامية وطبيعتها .

ولا يفوتنى فى هذه المقام أن أقدم أصدق الشكر لأستاذى الجليل الدكتور  
محمد مصطفى زيادة أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة القاهرة ورئيس قسم  
التاريخ بها ، فهو صاحب الفضل الأول فى توجيهى إلى هذه الدراسة وإعانتى عليها ،  
ولست هنا بصدد تعداد قدر الأستاذ ، فأثارة العلمية المتنوعة أبلغ منى بياناً .

إبراهيم على طرغاب

القاهرة { غرة المحرم ١٣٧٨ هـ  
١٨ يوليو ١٩٥٨ م }







## مدخل

من هم الجرمان ؟ — مساكنهم — صفاتهم البشرية —  
أصولهم وأقسامهم — مدينتهم الأولى : الحياة الاجتماعية — الحياة  
الاقتصادية — النظام الحربي والسياسي — حياتهم الدينية —  
الهجرات والغزوات الأولى .

غزت القبائل الجرمانية الإمبراطورية الرومانية منذ القرن الثاني قبل الميلاد ، ولم يكن الرومان يعرفون شيئاً عن هذه القبائل ، وغاية ما عرفوه من خصومهم القدماء ، عنصر الغاليين ( Galli ) الذي ساد يوماً في جرمانيا<sup>(١)</sup> ، ويوم احتك الرومان بالخصوم الجدد الذين يقيمون فيما وراء حدود أولئك القدماء ، أطلقوا عليهم اسم الجرمان ( Germani ) نسبة إلى المنطقة التي يسكنونها ، وتعني في ذلك الوقت الأراضي الموجودة فيما وراء الراين<sup>(٢)</sup> ، ويبدو أنه لم يكن هناك اسم واحد يضم شتات قبائلهم أو يميز قبيلة عن أخرى ، فكلمة الجرمان جديدة على الجرمان أنفسهم وأجدبية بالنسبة لهم ، وهي التسمية التي أطلقها الرومان على سكان جرمانيا<sup>(٣)</sup> لإثارة الرعب والفرع ، نظراً لأن أول عنصر عبر الراين ودام الغاليين جاء من جرمانيا ، ويدعي بالجرمان ، وهذا هو عنصر التونجربين ( Tungri ) الذي اشتهر فترة ما وعرف بالمقدرة الحربية ، ولم تزل حتى العصر الحاضر منطقة بألمانيا تحمل اسمه وهي دوقية تونجر ( Tongres )<sup>(٤)</sup> ولعل كلمة الجرمان مشتقة أصلاً من كلمة ورمان ( Wehr-Mann ) بمعنى رجل الحرب .

(١) Ripley, p. 213; Tacitus, pp 311 - 18

(٢) Ibid, p. 286

(٣) Ripley, p. 213; Lot, p. 13

(٤) Tacitus, p. 289



أو المحارب ، وهي صفة انتحلتها قبائل الكسرنانيين (Cisrhenane) لما اشتهرت به من سمعة حرية عالية ، ورغم أن هذه القبائل فرع من شعب الترانسرنانيين (Transrhenane) الكبير ، فإن هذا الشعب لم يأخذ بذلك الذمت الذي انتحله فريق منه إلا تدريجياً و ببطء حين رأى تعميمه عليه لأنه يقين به وكفاء لصفاته العسكرية وشدة صولته في الحرب<sup>(١)</sup> ، وبعد ذلك صار هذا اللفظ (الجرمان) علماً على جميع سكان تلك المنطقة .

— على أن هؤلاء الجرمان لم يشغلوا في القرن الثالث أو الثاني قبل الميلاد ، تلك المناطق التي شغلوها أو احتلوها فيما بعد ، كما أنهم لم يكونوا قد استقروا بعد على الضفة اليسرى للراين ، باستثناء قبائل الكسرنانيين سالفة الذكر ، أما المناطق التي تسكون ألمانيا الجنوبية وتضم اليوم بادن وورتمبرج وهس وفرانكونيا وبافاريا ، وكذلك النمسا وبوهيميا الحالية ، فهذه كانت مشغولة خلال تلك الفترة البعيدة بالعناصر السكتية (Keltol) ، ويحتمل أن يكون الجرمان قد خضعوا فترة ما لسيادة السكت<sup>(٢)</sup> . فوجود عنصر معين بين الشعوب التي سكنت أواسط أوروبا وشمالها ، لم يعرف لدى شعوب البحر الأبيض إلا في تاريخ متأخر نسبياً ، وقد تكلم كتاب الأغريق عن مجموعات مختلفة من العناصر السكتية مثل الجلاتيين (Galati)<sup>(٣)</sup> ، كما أن مؤلفي الرومان أمثال قيصر و بليني وتا كيتوس ، ميزوا بين الشعوب السكتية التي سرعان ما اضطبغت بالحضارة الرومانية ، والشعوب الجرمانية البربرية ، وكان تا كيتوس قد تسكهن بالخطر التي سوف تهدد أوروبا من قبل هذا العنصر الأخير<sup>(٤)</sup> .

(١) Tacitus, p. 280

(٢) Taylor, pp. 85 - 6; Lot, pp. 14 - 19

(٣) وصلت قبائل الجلاتيين إلى شواطئ البحر الأسود حوالي نهاية القرن الثاني ومطلع القرن الأول قبل الميلاد ، وهي مختلطة بعناصر جرمانية مثل البستارن (Lot, p. 50) ،

(٤) Lot, p. 13 ; Tacitus, p. 287



أما مساكن الجرمان الأولى فهي شواطئ البحر البلطى وجزره حتى شبه جزيرة جوتلاند بما فيها شلويج وهولشتين ، وكذلك شبه جزيرة اسكندناوة ، التى كانت تعرف باسم سكاتزبا أوسكين ( *Scanzia* أو *Skane* )<sup>(١)</sup>؛ والراجح أن اسكندناوة هي الوطن الأصلي للعناصر الجرمانية أو أنها كانت ملجأ لهم ، فسيطرتهم على تلك البقاع ترد إلى وقت غير معروف<sup>(٢)</sup> . ويقال إنهم ظلوا يقيمون على شواطئ البلطى نحو ألف سنة<sup>(٣)</sup> .

ومن حيث الصفات البشرية ، يلاحظ أن الجرمانى إتصف بضخامة الجسم والبشرة الناصعة البياض والحدود الوردية والعيون الزرقاء الحادة والشعر الأشقر ، مما أذهل السيدات الرومانيات<sup>(٤)</sup> ، والجرمان بصفة عامة يتميزون بالخصب الجنسى وهذا ما ساعدهم على مغالبة الرومان والتفوق عليهم تفوقاً عديداً حاسماً<sup>(٥)</sup> . وقد استرعت ضخامة أجسامهم بصفة خاصة المؤرخ تاكيتوس وغيره من المؤرخين ، حتى بدا كأن طول أغلبهم لا يقل عن ستة أقدام . والواقع أن نسبة الطول لم تزل مرتفعة في سلالاتهم عن غيرهم من السلالات حتى العصر الحاضر ، ورغم أن الجرمانى شجاع إلى حد المغامرة ، فإنه لا يطيق الصبر على العمل اليدوى ، وقليل منهم من يستطيع تحمل مشاق العطش والحرارة ، بعكس الجوع والبرد اللذين تعودا عليهما ، تكيفاً بالمناخ الذى يعيشون فيه والتربة التى كثيراً ما تتحداهم ، وهو يتعشق الحرية المطلقة ، ويمتاز بالذكاء والقدرة على

---

(١) Taylor, p.102; Painter, p. 20; Hodgkin, 1, p. 33

(٢) Ripley, p. 213; Fleure, pp. 38 - 39; Lot, p. 15; Dennessy, p. 25

(٣) Bojassonnade, p. 8

(٤) Lav. et Ramb., 1 p. 51

(٥) فشر ( ترجمة الدكتور زيادة والدكتور الباز ) ص ١٩ ، Tacitus, p. 291



كيفية الكلام مع كرم ونجدة ، غير أن هذه الصفحة المشرقة يشوبها الحق. إذا استبد به الغضب<sup>(١)</sup>.

ويدعى أغلب الجرمان نسبتهم إلى جد إلهي ؛ شأن الشعوب القديمة ، وهذا ما يتضح من أغانيهم التي تعد سجلاتهم أو حولياتهم الوحيدة ، وهذا الجد هو الإله مانوس ( Mannus ) ابن الإله توستو ( Tiu ) الذي قدسه الجرمان<sup>(٢)</sup>. انحدر عن مانوس ثلاثة أبناء هم انجو ( Ingo ) وسلالة هم الانجويون. ( Ingaevones ) واستو ( Isto ) وإليه ينسب الاستويون ( Istaevones ) ، وثالث الأبناء هرمينو ( Hermino ) أبو الهرمينيين ( Hermiones ) ؛ وهناك من الكتاب من يضيف أبناء آخرين لهذا الإله انحدرت عنه مجموعات أخرى مثل المارسين ، ( Marsi ) والكبريتيين ( Cambrivii ) والسويين ( Suevi ) والوندال ( Vandali )<sup>(٣)</sup>.

تقطن فروع هذه الأصول السبعة أو هذه المجموعات السبع مواطن مختلفة. بالبلاد الجرمانية . فأما الانجويون فهم المقيمون على شواطئ البحر ، ويقع الاستويون في الجهات الغربية والهرمينيون في الأجزاء الوسطى ، ويرى علماء الألمان أن هذه التسميات الأصلية لهذه المجموعات الثلاث تدل على مواطن الاستقرار أكثر من دلالتها على أسماء شعوب أو جماعات ، كما يتضح من معاني هذه الألفاظ بالمانية ؛ فكلمة الانجويين تعني بالألمانية ( Die Inwohner ) بمعنى المقيمين في الداخل تجاه البحر أى على الشواطئ أما الاستويون فتعني

(١) Lav. et Ramb., 1, pp. 51 - 2; Tacitus, p. 291

(٢) اشتهر الإله تويستو بأسماء أخرى مثل توت أو توتاس ( Tent , Tentaies ) في جميع أنحاء غاليا وأسبانيا ، وهو صاحب الفضل في إخضاع وتمدين جزء كبير من آسيا وأوروبا . وحول هذا الإله وابنه مانوس انتشر كثير من الأساطير.

( Tacitus, p. 287, F. N 8 )

(٣) Lot, pp. 31 - 32; Tacitus, 288



(Die Westwohner) أى سكان الجهات الغربية ، على حين يدل اصطلاح الهرمينيين على معنى سكان الوسط (Die Herumwohner) <sup>(١)</sup> . ويسكن المارسيون أجزاء مختلفة بشمال غربى ألمانيا وكانوا بمنطقة الرور (Rura) حين اصطدموا بضربات الجيش الرومانى بقيادة دروسس الرومانى (Drusus) (عام ١٤م) فقد أبادهم تحريقاً وتقتيلاً <sup>(٢)</sup> ، وموطن الكبريتيين غير معروف بالضبط <sup>(٣)</sup> ، أما السويث فيشغلون أغلب أجزاء الوطن الألمانى وامتدت مساكنهم تقريباً بين نهري الألب والفستولا والبحر البلطى ونهر الدانوب بل وصلوا فى توسعهم حتى الراين ، وهم موزعون فى مناطق مختلفة بأسماء متباينة ، فمن فروعهم السمونيون (Semnones) الذين يعتبرون أقدم فروع السويث وأنبلهم ، ونظراً لأنهم أكثرهم عدداً وقوة إذ يشغلون نحو مائة فرع (Canton) فى حوض نهر الأودر (Viadrus) فهم يعدون أنفسهم رأس المنصر السويثى قاطبة <sup>(٤)</sup> . وأما الوندال أو المتجولون <sup>(٥)</sup> ، فأقاموا بعد تجوالهم فى أعالي نهري الأودر والفستولا بجوار البرجنيين <sup>(٦)</sup> .

هذه هى المجموعات السبع الأصلية التى أوردها تاكيتوس وإليها يرد عدد كبير من القبائل والجماعات الفرعية ؛ على أن المؤرخ الرومانى بلينى (Pliny) يرى أن أصول العناصر الجرمانية ترجع إلى خمس مجموعات أو قبائل رئيسية ، وهو يتفق مع تاكيتوس فى المجموعات الثلاث الأولى ويختلف فى المجموعات

(١) Tacitus, pp 288 - 89

(٢) أنظر : Lot, p. 32

(٣) Tacitus, p. 288

(٤) Tacitus, pp. 330 - 31

(٥) يقال إن كلمة الوندال مشتقة من الفعل الألمانى (Wendeln) بمعنى يتجول أو يرحل . وقد بدأ خطرهم منذ القرن الثانى الميلادى على عهد أورليوس (Tacitus, p 288) .

(٦) Lot, p. 32



الأخرى حين يعتبر السوييف مثلاً فرعاً من الهرميين<sup>(١)</sup> ومهما كانت الاختلافات في المجاميع الأصلية أو الفروع الثانوية فالثابت نسبة أغلب الجرمان إلى أصول مقدسة في نظرهم .

أما تقسيم العناصر الجرمانية إلى شماليين وغربيين وشرقيين ، فأساس هذا التقسيم هو الوضع الجغرافي لفروع هذه المجموعات . فأما الشماليون فهم الذين آثروا البقاء في شبه جزيرة اسكندناوة وما حولها من شواطئ البلطى حيث تفرعت عنهم الأمم السويدية والنرويجية والدانية الحالية<sup>(٢)</sup> . أما الحد انفصل بين الشرقيين والغربيين فهو نهر الألب (Aibls) إلى حد ما ~~بجورغم~~ تشابه هذه العناصر جميعها في كثير من النواحي ، إلا أنهم اختلفوا في بعض العادات والمصائر<sup>(٣)</sup> . وتمتد مساكن الشرقيين بين الألب والنفستولا والبلطى والبحر الأسود على حين انتشر الغربيون بين الألب والراين<sup>(٤)</sup> ، وليست هناك صلة بين هذا الوضع الجغرافي ( شرقى وغربى ) وبين التهديد الذى حاق بقسمى الإمبراطورية الرومانية الشرقى والغربى ، فإن الجرمان الشرقيين هم الذين حطموا الإمبراطورية الغربية في تجولاتهم وحركات التأسيس لممالكهم<sup>(٥)</sup> ، بينما كان الفرع الغربى منهم هو الذى اصطدم به ماريوس وقيصر قديماً<sup>(٦)</sup> .

ومن أشهر قبائل الجرمان الغربيين السوييف بفروعهم<sup>(٧)</sup> ، ويجاورهم الثورنجيون ( Thuringians ) وهم الذين عرفوا قديماً بإسم الهرمندور بين

---

(١) Tacitus, p. 288

(٢) فشر ( نفسه ) ص ١٦ .

(٣) C. med. H. ( sh. ), 1, pp. 38 -

(٤) أنظر تقسيم الأستاذ لوت Lot في كتابه ص ٣٠ — ٣٢ .

(٥) C. med. H., 1, p. 39

(٦) فشر ( نفسه ) ص ١٦ ، أنظر ما يلي ص

(٧) أنظر ما سبق ص ٥ .



(Hermunduri) وكانوا أصدقاء للرومان غير أنهم انقلبوا ضدهم منذ عهد أورليوس<sup>(١)</sup>؛ وأكثر من هؤلاء مغامرة قبائل الألمان (Alemanni) المساعدة وهي خليط من قبائل مختلفة كما يدل على ذلك اسمهم (All-mann)<sup>(٢)</sup>، فنشلا خضع فرع السمنيين السويبي لهم واندمج فيهم<sup>(٣)</sup>. والألمان من العناصر القديمة التي غزت الغال ورغم أنهم معاهدون إلا أنهم شديداً العداء للرومان فاحتلوا منطقة بادن وورتمبرج التابعة للرومان بعد أن دفعوا أمامهم البرجنديين وأخذوا يغيرون على حدود الإمبراطورية في أعالي الراين والدانوب، وعلى الشاطئ الشرقي للراين يقطن شمالي الألمان، عنصر معاهد آخر يتكون من قبائل مختلفة مثل الشاماڤيين (Chamavi) والشاتواريين (Chattuarii) والساليين (Salloni) والبركتيريين (Bructeri) وكذلك انضم إلى هذه المجموعة الكاتيون (Catti) أو الهسيون، وليس هناك اسم جامع أو اصطلاح شامل لهذه المجموعة، ولكن عبر عنها في القرن الثالث الميلادي باسم الفرنجة<sup>(٤)</sup>. وفي المناطق الساحلية لهولندية وهانوفر الحالية يقيم الفريزون (Frisii) أما السكسون المتوحشون فيقيمون شرقي الفريزيين، ويتسكونون من قبائل مختلفة واشتهروا منذ القدم بذيوي الأسلحة القصيرة نظراً لأنهم مهروا في الملاحة والقرصنة وأسلحة الملاحين عادة تكون قصيرة، وفد هؤلاء من هولشتين وشهرتهم القرصنة لأنهم دائماً السطو على السواحل القريبة منهم كسواحل الغال وبريطانيا، حتى أنه لما كثر تهديدهم لشواطئ بريطانيا عهد دقلديانوس وزميله مكسيميان لكاروسوس (Carausius) قسميهما الثالث في الوظيفة الإمبراطورية، عهدا إليه بمهمة الدفاع عن بريطانيا

---

Tacitus, p. 333 (١)

Lav. et Ramb., I. 88. 48-9 (٢)

Tacitus, p. 31 (٣)

Lav. et Ramb., I, p 48, Tacitus pp 321 - 23, Lot, p. 32 (٤)

Painter, p. 20



وشمالى الغال ضد القراصنة<sup>(١)</sup>. ويقرب من السكسون فى اللهجة والمعادن أشقاؤهم الأنجليز (Angli) الذين أقاموا كذلك فى هولشتين وشلزويج، ولم نزل بهذه المنطقة مقاطعة تحمل إسمهم هى مقاطعة أنجلن (Angeln)<sup>(٢)</sup>. وفى شبه جزيرة جوتلاند يوجد عنصر الجوت (Jutes)<sup>(٣)</sup>. وهناك عنصر الوندال (Vandals)<sup>(٤)</sup> الذى استأنف هجومه على الإمبراطورية فاشترك مع السارماتيين (Sarmatians) وهاجموا منطقة بانونيا<sup>(٥)</sup>.

وأما الجرمان الشرقيون فمن أشهر قبائلهم، الجبديون (Gepidae) الذين كانوا يقيمون فيها هو ترانسلفانيا الحديثة وهم أقل حركة وعنفاً من غيرهم، وعلى شواطئ بحر آزوف تقيم جماعة من الهروولين (Heruli) أعظم القبائل الجرمانية وحشية<sup>(٦)</sup>، ومن فروع الوندال فرع يسمى السيليين (Silingi) استقر فيما عرف بإسم سيليسيا نسبة إليهم، كذلك استقر الروجيون (Rugians) فى شمالى جهال السكربات<sup>(٧)</sup>. أما اللومباردون (Lombards) — ويسمىهم العرب لنكبرده — فقد نزلوا فى وادى الألب الأدنى منذ عهد أوغسطس ولم نزل مدينة باردنجاو (Bardengau) تحتفظ بإسمهم إلى اليوم، غيروا مساكنهم بعد ذلك خلال تحركاتهم<sup>(٨)</sup> ثم إن بعض البرجنديين شقوا طريقهم نحو الغرب واستقروا

(١) Lot, pp. 33 - 4

(٢) Tacitus, p. 332

(٣) C. med. H., 1, p. 41

(٤) أنظر ما سبق ص ٥

(٥) تشمل سارماتيا كل المنطقة الواقعة شرق القسطنطينية، ويلاحظ أن السارمات سكان

هذه المنطقة ليسو من الجرمان وإنما هم إيريانيون، وأما بانونيا (Pannonia) فتشمل

جزءاً من المجر والنمسا الحالىتين (Lot, p. 35, Tacitus, pp. 286 - 340)

(٦) Lot, p. 52

(٧) ترك الروجيون إسمهم على جزيرة روجن (Rügen) فى البحر البلطى

( Tacitus, p. 333; Lot, p. 32 )

(٨) Lot, p. 32, Tacitus, p. 331



بين الأودر والفسستولا منذ القرن الأول الميلادي ولا يزال إسم البرجنديين يطلق في مساكنهم الأولى على جزيرة بالبحر البلطى وهى جزيرة ( Bornholm ) وكانت تسمى ( Burgundarholm )<sup>(١)</sup>.

على أن أعظم قبائل الجرمان الشرقيين عند الإطلاق ، عنصر القسوط ( Goths ) وهذا ما سنفرده الحديث فيها بعد بصفة عامة وللقوط الغربيين منه بصفة خاصة .

هذه هى خلاصة عامة عن أصول الجرمان وأقسامهم ومساكنهم حتى نهاية القرن الثالث الميلادي تقريباً . أما عن أحوال هذه الشعوب ومدنيتهم فأول ما يسترعى النظر هو حياتهم الاجتماعية . وأبرز ظاهرة فيها هى عادة شرب الخمر المنتشرة بينهم ولعل للمناخ دخلاً فى هذا ، فهم يشربونها حتى الثمالة ويهييمون فى عالم الشراب والأحلام ، والشاذ فيهم هو الذى لا يشرب<sup>(٢)</sup> . يصنعون خمرًا نفية من الشعير والقمح ، ربما أشبهت ذلك النوع الذى اشتهر فى عصر الممالك بصفة خاصة ويسمى « المزز »<sup>(٣)</sup> . على أن هذا الشراب الوطنى لم يكف الجرمان فكان المقيمون منهم بجوار نهر الراين يشترون النبيذ من التجار الرومان ، ولكثرة إقبال الجرمان على الشرب ، زرع أصحاب الضياع ورؤوس الأموال من التجار الرومان حدائق الكروم فى حوض الراين لمدهم بالنبيذ وليس لتصديره إلى إيطاليا<sup>(٤)</sup> ومع ميل الجرمانى إلى الشراب ، والمغامرات ، فإنه كان يقنع بزوجة واحدة ، ويندر من يشذ على هذه القاعدة ، وجرت العادة فى مراسيم

---

(١) Bury 1, pp.96-106; Davis, p. 21; Lot, p. 33; C. med, H. 1, p.40

(٢) Tacitus, p. 313; فستر ( نفسه ) ص ١٥ .

(٣) المزز شراب قديم عرف منذ العصر الجاهلى ، ويصنع من الشعير والذرة ، وقد عرفته اليمن بصفة خاصة ، وظل معروفًا ، وتعرض فى عصر الممالك كغيره من المسكرات للإبادة أو التحريم خلال العهود المختلفة .

(٤) Lav. et Rimb, 1, p. 52



الزواج أن يقدم الزوج لأهل الزوجة هدية تضم جواداً مطهاً ودرعاً وحربة وسيفاً  
وعبدًا من الثيران ، ويعتقضي هذه الهدية أو هذا الصداق يتم عقد الزواج ، وبالإلى  
تقدم العروس إلى زوجها كية من الأسلحة كهدية منها ، وهدية الأسلحة في نثار  
الجرماني أوثق رباط وآ كده للحياة الزوجية<sup>(١)</sup> . والفجور في المجتمع الجرمانى  
نادر ، ولا يعرف الزوجان شيئاً عن علاقات خائنة أو مريبة ، وإذا صادف ووقت  
خيانة وثبتت ، عوقبت الزوجة بقلع الشعر والتجريس في القرية ، وعند السكسون  
القدماء كانت العقوبة صارمة ، منها أن تجبر الزانية على قتل نفسها شتقاً ثم تحرق  
جثتها ، وفوق الرماد المحترق يصلب الزانى ، وأحياناً يشهر بها وتمذب في القرى  
الجاورة ويصيحها جماعة من النساء لطمنها بالمدى والأسياخ ، وكما مررت بقوسه ،  
قابلوها بلون جديد من العذاب نثاراً لغيرتهم الشديدة للعفة ، فلا يتركونها إلا  
جثة هامدة . وقد أورد بولس أروز ( P. Oros ) أسقف غاليسيا<sup>(٢)</sup> ، وصفاً شاملاً  
مفرقاً بين بعض العناصر البربرية من الناحية الخلقية ، وقد خبرهم عن قرب وإن  
كانت هذه الخبرة قد جاءت في تاريخ متأخر نسبياً قال : « إن القوط غدارون  
مخادعون ، غير أنهم أعفة أطهار ، والألان ( الألان قوقازيون ) أكثرهم إفراطاً  
في الأكل والشراب لكنهم أقل غسداً وخيانة ، أما الفرنجة فهم كذابون  
ولكنهم كرماء مضيافون ، وينفرد السكسون بالغلظة والقسوة المفرغة ، ومع ذلك  
فلا يعدمون شيئاً من صفاء الخلق »<sup>(٣)</sup> .

وفي أوقات الفراغ ، وعادة ما تنجى هذه الأوقات بين الحروب ، يشغل  
الجرماني نفسه في قليل من الصيد وكثير من الدعة والراحة ، موزعاً هذه الدعة

---

(١) Tacitus. p. 308

(٢) لهذا الأسقف مؤلف في التاريخ صنفه حوالي عام ٤١٧ م ، ومن آرائه في تلك الحرب  
عامة أنهم عندما يستقرون لا يلتزمون أن يصبحوا أسدلاء لأوطانهم .

( Lecl., p. 204 & Dozy, II, pp. 16 - 17 )

Pirenne ( J. ), p. 430 (٣)



بين القراش والمائدة ، ومن المتناقضات في حياة الجرمانى أنه رغم ما جبل عليه من حب المغامرات وركوب الأخطار وإيثار هذا النهج عما سواه ، يترك الأشراف على شئون المنزل وأراضيه الزراعية إلى زوجته وكبار السن في أسرته ، تاركاً لنفسه العنان لأخذ أكبر قسط من الراحة في وقت فراغه ، فهو لا يؤمن بشيء سوى أمرين : إما حرب فيحارب وإما فراغ فراحة وسكون ، وفيما عدا ذلك من شئون الحياة ، يجب أن يتولاه غيره<sup>(١)</sup> ومع ذلك فقد كان الجرمان عامة ، ولا سيما في فجر احتسكا كهم بالرومان ، يصحبون نساءهم وأطفالهم في الحرب إذ كانت غزواتهم أقرب إلى المهجرات منها إلى الأعمال الحربية البهتة ، واشتركت النساء فعلاً في الحرب ، رأهن ماريوس في حربه ضد الكبرى ، كما شاهد ذلك ماركوس أورليوس يوم حارب الماركومان ، والسكوادى وأحلافهم<sup>(٢)</sup> .

ثم إن الجرمانى قد جبل على الأخذ دون العطاء ، يسره جداً أن يحصل على هدايا من الشعوب المجاورة ، ليس فقط من الأفراد ، ولسكن من الشعب ككل ، وأفضل أنواع الهدايا في نظره الجياد الكريمة والأسلحة والمساكن أو السلاسل الذهبية ، وعلى عهد تا كيتوس ، أى في مطلع القرن الثانى الميلادى تعلموا كيف يقبلون النقود<sup>(٣)</sup> .

ومساكنهم في منازل مفرقة في القرى وليست في المدن ، وعلى الأقل في فجر تاريخهم ، ويحيط بكل منزل فناء كبير متسع ، أما خشية أخطار الحرائق أو جهلاً بفنون العبارة<sup>(٤)</sup> ، ويملاً الأثرياء منهم منازلهم بالخدم من أسرى.

---

Tacitus, p. 305 (١)

Ibid, p. 296 (٢)

Ibid, pp. 305 - 6 (٣)

Ibid, p. 306 (٤)



الحروب<sup>(١)</sup> . أما الملابس العادية فهي عبارة عن وشاح أو عباءة ( Rheno ) تغطي الكتف والصدر حتى أول البطن ويشد هذا الدثار إلى العنق بشبك ، وهذا الزي خشن غليظ لا ينفذ منه المطر ، ويتميز الأثرياء فيهم بصدرية مقفلة بشكل يظهر كل أعضاء الجسم ، وليست مفتوحة كما هو الشأن عند السارمات والبارثيين ، ثم هم يلبسون جلود الحيوانات ، غير أن الجرمان يختلف بعضهم عن البعض الآخر في مدى الاهتمام بنوع الجلد أو العناية بأعداده وصبغه بالألوان الزاهية ، فالقريبون منهم من الحدود والأمبراطورية ، وإن لبسوا الجلود ، أقل اهتماماً بها من أولئك القاطنين في الأطراف القاصية حيث يصعب الحصول على غيرها من أنواع الملابس التي يحصل عليها القريبون منهم ، فأولئك يعنون أشد العناية باختيار أنواع معينة من الجلود وتزيينها بالألوان ، وبالقطع الفاخرة من أنواع القراء المختلفة الألوان . ولا تختلف أزياء النساء عن أزياء الرجال ، فيما عدا أن النساء كثيراً ما يلبسن الكتان المصبوغ باللون الأحمر ، وبجرت العادة أن يترك النساء أذرعتهم وجزءاً من صدورهن عارياً<sup>(٢)</sup> .

هذه صورة عامة لحياة الجرمان الاجتماعية الخاصة ، أما الطبقات في المجتمع الجرمانى القبلى ، فهي ثلاث : الطبقة الدنيا وأعضاؤها من بعض السكان المخلاطين الذين يتولون الأعمال الزراعية ، ومن الأرقاء المرتبطين بالأرض ، ومن الأرقاء من اشترى بالمال بسعر العبد حصان أو عدد من الثيران ، ومنهم من أسرف في الحروب ؛ والطبقة الثانية من طبقة الأحرار وتمتلك بعض الأراضي ، وهذه تكون أغلب السكان ، ومن بين هذه الطبقة يختار المحاربون . والطبقة العليا هي الطبقة النبيلة التي تمتلك الضياع الواسعة ومن هذه الطبقة أسر الملوك والحكام والقادة ورؤساء الوحدات ( Gauen ) ومن أعرق الأسرات

(١) C. med. H., I, p.31, Lot, p. 15 , Deanealy, p 25 , Moss, p. 41

(٢) Tacitus, pp. 301 - 308



النبيلة في هذه الطبقة يختار الملك ، والمادة أن هذه الطبقة النبيلة تدعى نسبتها إلى أصول مقدسة<sup>(١)</sup> والجد الإلهي الذي يعتبر أبا للجميع هو أودين (Odin) ، إله الحرب ، ومن حق كل عضو من أعضاء الطبقة النبيلة أن يكون له أتباعا خصوصيين من الأحرار تكون خاصته ، وخاصة الملك عادة من الطبقة الأرستقراطية ، وتحضر مائدته كما تكون حرسه الخاص في المعركة<sup>(٢)</sup> ، ومن المظاهر البارزة في المجتمع الجرمني إخلاص أولئك الأتباع الذين يلزمون سيدهم في المغامرات الحربية ، بحيث أنهم كانوا يقاومون بجانبه حتى الموت ، فإذا حدث وغلب هذا السيد في مغامرته أو قتل في المعركة آثر هؤلاء الموت بجانبه على الهرب أو التسليم<sup>(٣)</sup> .

ويختلف الأساس الاقتصادي للمجتمع الجرمني عن غيره من المجتمعات القبلية البدائية الأولى ذلك أن الجرمان لم يعتمدوا على مجرد الصيد أو القنص أو الرعي ، وما تتطلبه مثل هذه الحياة من دوام النقلة وعدم الاستقرار ، وإنما صاروا إلى شيء من الحياة الزراعية المستقرة وذلك منذ زمن تاكيتوس<sup>(٤)</sup> ، والزراعة تتطلب الاستقرار ، والاستقرار لا شك أولى المراحل في نشوء المدينة ، حقيقة إنهم شعوب جائلة في جملتها ، لكن إذا كان هذا ينطبق على حياتهم الأولى ، فإنهم لم يعودوا كذلك فيما بعد ، أي منذ القرن الثالث الميلادي فصاعداً ، فقد كانوا يبحثون عن أوطان جديدة يستقرون فيها أو أرض زراعية يستثمرونها .

فالزراعة في الواقع هي أساس حياتهم الاقتصادية ، ولا يهمننا أنهم مارسوها بالطرق البدائية ، عرفوا المحراث والثور والغنم وزرعوا القمح والشعير ، وتوجهمت

---

(١) Thompson, p 41; Lav. et Ramb., I, p.53

(٢) Moss, pp 41 - 42 ؛ Eyre, p. 13 ؛ Boiss., p. 10

(٣) Boiss.; p. 9 ؛ C. med. H. I, p 8. 31 - 8

(٤) نفس ( نفسه ) من ١٩



تحرركاتهم لمهدف الحصول على أرض زراعية فتيحة صالحة للزراعة ، وكان من السهل لديهم الحصول على هذه الأرض بالفتح والاستيلاء ، لا بطريق الإصلاح وقطع الغابات ، فالفتح أفضل في نظرهم وآثر من مشقة الإصلاح أو التمهيد ، ومن هنا جاء استعدادهم للرحلة والنقلة وتغيير مساكنهم وأوطانهم في سبيل وضع اليد على أراضى أكثر خصوبة ، كلما تحدثهم البيئة التي يعيشون فيها ، وحررت العادة أن توزع المغنم من هذه الأراضى حصصاً بين الأسر الجرمانية الفاتحة<sup>(١)</sup> .

من هذه الناحية يتميز الجرمان عن جيرانهم من البدو الرحل الذين يضربون في المنطقة الرعوية في قلب آسيا ، حيث الرعى أساس حياتهم ، ولمسالم تسكن هناك حدود جغرافية أو سياسية واضحة المعالم ، بينهم وبين جيرانهم ، فإن حوادث المجاعات التي كثيراً ما تقع في منطقة أوراسيا ، كانت من أسباب الضغط الذى أدى إلى دفع الجرمان أمام هؤلاء البدو<sup>(٢)</sup> .

لكن ليس معنى هذا أن الجرمان لم يعملوا في الرعى أو الصيد ، بل أن الرعى والصيد ظلا يحتلان ركناً هاماً من حياتهم الاقتصادية فقد كانوا وهم على حدود الامبراطورية الرومانية يتاجرون مع جيرانهم من التجار الرومان ، عند حدود الراين والدانوب ، يشترون من الرومان النبيذ والأقمشة والأسلحة في نظير المبادلة معهم بمنتجات رعيهم وصيدهم وذلك قبل أن يعرفوا النقود . على أن التاجر الأجنبي كان يعد في نظر الجرمان عدواً تحمل استباحة ماله ، فلم تسكن هناك ضمانات كافية تحميه وماله من أخطار السرقة والسلب وسط الجموع الجرمانية<sup>(٣)</sup> ويلاحظ أن الهرمندورنين (Hermendur) على ضفاف الدانوب ، هم الوحيدون

(١) فشر ( نفسه ) من ٢ : 11 - 12 Boiss. ;

(٢) 11 p. Perróy, III : Eyre, p. 13 : 21, 25 Deanesly ;

(٣) 333 p. Tacitus ; 13 p. Eyre ; 13 p. Boiss. ;



الذى سمح لهم بالتجارة داخل الأراضي الرومانية ، وكانوا مخلصين للرومان  
لكنهم لم يظلوا على إخلاصهم<sup>(١)</sup> .

ومن حيث النظام الحربى والسياسى ، لا شك أن الجرمانى حربى بطبيعته  
وتكوينه الجثمانى فحياته القاسية تطلبت منه مثل هذه العفة ، حتى أنه فى حياته  
العادية كان لا يودى عملاً خاصاً أو عاماً إلا وهو فى سلاحه الكامل ، حتى  
القاضى فى محكمته . لكن لا يسمح لأحد بحمل السلاح ما لم يكن أدرا على  
استعماله<sup>(٢)</sup> . والدعوة إلى الحرب أقدم نداء تتمتع الاستجابة له ، فإذا ما رفض  
أو أهمل ، عوقب بالشنق<sup>(٣)</sup> . ومن العار على القائد فى المعركة أن يفوقه أحد  
فى الشجاعة والإقدام كما أن من العار على الجنود ألا يحاولوا التشبه بقادتهم .  
والقرار من المعركة أسوأ ما يطلخ به شرف الجرمانى طوال حياته ، فهمة  
القائد وهدفه الفوز بالنصر ، ومهمة الجنود مساندته وحمايته لبلوغ هذا الهدف ،  
وبلغ من استماتة الجرمانى فى الحرب وإخلاصه لقائده ، أن آثر مائتان من الجنود  
وثلاثة من الأصدقاء الأسرى بجانب ملسكهم كوندوماروس ( Chondomurus )  
ملك الألمان الذى وقع أسيراً فى يد الرومان ، آثر هؤلاء الجنود أن يصفقوا  
بالسلاسل معه ، فليس من الشرف لديهم أن يضحوا برئيسهم أو ألا يموتوا  
من أجله<sup>(٤)</sup> .

وتوجد جمعية من المحاربين الأحرار تعرف بإسم ( Thing ) هى صاحبة  
الحق فى انتخاب الحكام وإعلان الحرب وإبرام المعاهدات ، كذلك من حقها

---

Tactica, p. 333 (١)

Tactica, p. 303 (٢)

(٣) هناك عقوبات أخرى ، والملاحظ أن هذه العقوبات ظلت قائمة حتى بعد تأسيس  
الممالك الجرمانية ، وقد نص عليها فى التشريعات القانونية ، كما فى القانون السالى لأفرنجية والقانون  
الأومباردى ( Tactica, pp. 301 - 302 )

Tactica, d. 304 (٤)



إضافة أعضاء جدد إليها ، كلما دعت الحاجة ، وتدعى إلى الانعقاد كما يفيض  
انعقادها بواسطة الملك ، أو رئيس الوحدة ( *gaus* ) في القبائل التي لم تأخذ  
بالنظام الملكي<sup>(١)</sup> .

ومن القبائل التي أخذت بالنظام الملكي المدع الماركومان والكوادى  
والروجيون والليموفيون ( *Lemovii* ) والقوط<sup>(٢)</sup> .

وتراعى هذه الجمعية في انتخاب الملك أرسقراطية المولد والمقدرة الحربية  
أو القدرة الخطائية ، بجانب التأثير وقوة الشخصية أكثر من مجرد القدرة على  
الحكم ، ولهذا ليس للملك الجرمان سلطة مطلقة أو غير محددة ، فسلطتهم مقيدة  
بقرارات الجمعية ، وقد وصف أحد ملوك الجرمان مدى ما يتمتع به من سلطة  
ونفوذ على رعاياه بقوله بأنه ليس له من السلطة على الرعايا أكثر مما لهم عليه<sup>(٣)</sup> ،  
ويدل هذا على بعض الميول الديموقراطية ، وهو ما كان سائداً عند أغلب العناصر  
الجرمانية<sup>(٤)</sup> وكان له أثره في تشريعاتهم الدستور فيما بعد . وجرت العادة أنه إذا  
عرض الملك اقتراحاً للجمعية ولم يظفر بالقبول عبرت الجمعية عن ذلك الرفض ،  
بالنذر الغامض ، وفي حالة الموافقة ضرب أعضاء الجمعية رماحهم بعضها ببعض ،  
فليس أروع وأشرف من صوت السلاح دليلاً أو تعبيراً على الموافقة والرضا  
في نظرهم<sup>(٥)</sup> . والملاحظ فيما يتعلق بالحاكم الأعلى ، أن بعض القبائل الجرمانية  
كان يقتصر على انتخاب قائد مؤقت لإدارة المعركة الحربية ، أو رئيس الوحدة  
ليرأس اجتماع الجمعية ، ووجد هذا التقليد عند الألمان والفرنجة ، وفي بعض  
القبائل كان الحكم لرجال الدين الذين تمتعوا بسلطة كبيرة . هذا والجمعية

---

(١) Thompson, p. 42 ; C. med. H., I, p, 40

(٢) Tacitus, pp. 334, 36 - 37

(٣) Tacitus, pp. 295, 301

(٤) C. med., H., I, p. 31 ; Lav , et Ramb., I, p 53 ; Moes, p, 40

(٥) Tacitus, p, 300



جلسات خاصة يعقدها رؤساء الوحدات فقط للأمر البسيطة ، أما الأمور الهامة فيشترط حضور جميع الأعضاء<sup>(١)</sup> .

أما الجيش الجرمانى ، فكان يجمع من الوحدات<sup>(٢)</sup> التى تنقسم إليها القبيلة<sup>(٣)</sup> ، وهى أقسام إدارية كبرى ، وهذه الأقسام الكبرى تنقسم بدورها إلى أقسام فرعية ( Hunderte ) ويقابلها فى اللاتينية ( Vici ) ، يصدر قرار حربى ( Heribannum ) بالدعوة إلى الحرب ، فترسل كل وحدة عادة مائة محارب من الأحرار وهذا هو الحد الأدنى الذى ينبغى أن ترسله الوحدة ، وفى بعض القبائل القوية مثل السوف ، الذين تسكون وطنهم من مائة وحدة ، كانت الوحدة ترسل ألف محارب<sup>(٤)</sup> .

وتنقسم فرق هذا الجيش ، كما هو الشأن عند قدماء الرومان والإغريق إلى كتائب يتراوح عدد أفرادها من ١٠٠٠ إلى ١٠٠ إلى ١٠ ، وهذا تقسيم عبرى قديم وجد فى الغرب كما وجد فى الشرق عند المغول ، وفى الجيوش الإسلامية ولا سيما فى عصر المماليك ، حيث تقابلنا اصطلاحات : أمير عشرة . أمير عشرين . أمير أربعين الخ ... ، وحتى فى الجيوش الحديثة . وتعد فرق الفرسان أقوى وأهم الفرق بعد أن كانت الأهمية لفرق الرجالة سابقاً ، وذلك قبل أن يمر نواصل ركوب الخيل ، وظلت فرق الفرسان كذلك عند دولة القوط الغربيين حتى زوال دولتهم ، والملاحظ أن الفرنجة من بين القبائل الجرمانية كانت الفرق الهامة لديهم هى فرقة الرجالة وليست الفرسان وكذلك كان الشأن عند الكاتيين ( Catti ) ؛

---

(١) Tacitus, p. 300; C. med. H., 1, p. 40; Moss, p. 41; Boiss, p. 9

(٢) يقابل هذه الكلمة : ( Cantons ) بالانجليزية وباللاتينية ( Pagi ) .

(٣) تعنى القبيلة ( Tribo ) كذلك فى المجتمع الجرمانى الشعب أو الوطن ( Nation ) .

(٤) ( Lav. et Ramb.; 1, p. 53; Tacitus, p. 295 ) ، أنظر تطور هذا النظام عند

القوط الغربيين فى أسبانيا فيما بعد .

ومن القبائل التي اشتهرت بفروسياتها المنظمة تبيالة التنكترين ( Tenoteri ) في حوض الراين وعلى ضفتيه <sup>(١)</sup>.

وأسلحة الجرمان للألوفة هي الدروع التي صنعت في أول الأمر من الخشب المغطى بالجلد ، وذلك لقلة المعادن لديهم ، كما أن الخوذة أو غطاء الرأس كان يصنع من الجلد السميك ثم صار يصنع من الحديد ، والحربة ( Franca ) أهم سلاح لديهم ، فهو السلاح الأساسي ، ثم استعملوا السيوف والقوس والنشاب والأطبار ، كما استخدموا المراوات الغليظة ( Clubs ) والملاحظ أنهم عنبوا بزينة أسلحتهم ولا سيما الدروع فكانت تلون بالألوان الزاهية ، وكانت هذه الألوان تدل على الشجاعة والمقدرة ثم أصبحت بعد ذلك شارة النبلاء ، وتعد هذه الألوان أصلاً للشارات التي اشتهرت في عصر الفروسية والإقطاع ، وهي التي تعرف بالرنوك - في المصطلح الإقطاعي للملوكي . ولهم نظام معين في التعبئة عند المصاف حيث ترتب صفوف الجيش على شكل رأس الخنزير ( Boar's Head ) في المصطلح العسكري ، وذلك أن تكون الفرقة ضيقة في المقدمة وتتسع تدريجياً نحو الساقة ، ويمكنهم هذا النظام من ضرب أصحاب الرتب في جيش العدو إذ أن أسلحتهم في هذا الوضع تتجه كلها إلى موضع واحد . ومن العار على الجندي في المعركة أن يترك درعه إذا سقط منه ، ومن تثبت عليه هذه التهمة ، عوقب بالجرمان من حضور حفلات الطقوس الدينية وعضوية الجمعية العمومية ، ولذا يجد الكثير من هؤلاء لا يطبقون الحياة بهذه الذلة ، فيؤثرون الموت منتحزين ، واشتاعة هذه التهمة في نظر الجرمان ، نص القانون السالي - عند الفرنجة فيما بعد - على ضرورة التأكد من ثبوت التهمة على المذنب بفرض غرامة كبيرة على من يتهم أحداً بهذه التهمة ويعجز عن إثباتها <sup>(٢)</sup> . وتحصيناتهم الوحيدة عبارة عن أسوار

(١) Tacitus, pp 320 - 22

(٢) Tacitus., pp. 292 - 295



دائرية أو إقامة موقوف من العربات المغلفة ، واستخدموا في أسفارهم ومغامراتهم البحرية الزوارق التي تبلغ حمولة الواحد منها ٣٠ شخصاً ، وهي من نوع سفين الفيكنج ، وهم القرصان الشماليون الذين يمتون إلى الجرمان بصفة وقراة ، وأشعة زوارق القراصنة السكسون تصنع من الجلد<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

وعقائد الجرمان الأولى ، كأي شعب بدائي ، عقائد وثنية ، تعددت فيها الآلة إلا أن سيد الآلة جميعها لديهم هو « عطارد » ( Mercury ) كما يسميه تاركيتوس ويقابل هرمس عند الإغريق ، وقد أطلق تاركيتوس عليه هذا الاسم لاتفاق صفاته عند الجرمان مع صفات هذا الإله عند الرومان ، ومن قصص البطولة أو أغاني البطولة اللومباردية ( De Gestis Langobardorum ) يسمى هذا الإله ( Wodun أو Gwodan أو أودين Odln ) وتنمته لثيولوجيا الأيسلندية بالإله القاسي المرعب ، والسفك ، وهو الذي يبعث على الشجاعة والنصر في المعارك ، ويقرر أسماء القتلى ويحوز ذلك . ولم تزل بقايا عبادة هذا الإله ظاهرة في الاسم الذي أطلقه معظم عباده في الشمال على أحد أيام الأسبوع وهو اليوم الرابع من الأسبوع يوم أودن ( Odln's day ) الذي حرف حتى صارت في الإنجليزية ( Wednesday ) وكان هذا اليوم مخصصاً لعبادة ، وجاء اتصال أودين بعطارد إله الإغريق والرومان كذلك من حيث أن اليوم الرابع من الأسبوع عند الرومان مخصص لعبادته ( Die Mercurii )<sup>(٢)</sup>.

---

Muse, p. 41 (١)

(٢) يسمى هذا اليوم في اللغة النرويجية Odlnsdagr وفي السويدية والدانية Onsdag ، وفي الهولندية Woensdag ، وفي الأنجلو سكسونية Wodenesdaeg أو Wodnesdaeg وفي الإنجليزية Wednesday ( Tacitus, pp. 207 - 8 )

والى هذا الإله يدعى ملوك الجرمان نسبتهم ، بل سائر الأسر النيلية منهم . فهو فى نظرم أبو الجميع ، وما السماء وما انتشر فيها من كواكب إلا عبادة هذا السيد أو طيلسانه ، ثم هو فى نظرم كذلك إله الموت وإله الأبطال وإله الحرب وإله الحفلات العامة بل هو صاحب التمام والتعاويد والسحر . وهناك إله آخر للحرب عند الجرمان عرف بإسم تيوا أو تير (Tiu, Tyr) . لكنه أقل شأنًا من أودين ويعتبرونه حامياً للأبطال والمحاربين . ويدل إسمه على أنه هو نفسه ( Jupiter, Zeus, Dyaus ) وهو إله السماء القديم عند الهنود والإغريق والرومان ؛ وعندهم كذلك ثونور أو ثور ( Thunor, Thor ) إله الرعد الذى يهيم بالمزارعين بصفة خاصة . هذه هى الألهة الرئيسية الثلاث عند الجرمان لكن ليس معنى هذا أنه لم توجد آلهة أخرى ، فهناك آلهة لا تخصب ، والحب ( Freya ) وآلهة الأرض ( Ertha ) وغيرها <sup>(١)</sup> .

وعن وثنية القوط فالمعلومات عنها قليلة لأن القوط عند ما اعتنقوا للمسيحية أزال رجال الدين فيهم كل ما يتعلق أو يشير إلى الوثنية القديمة <sup>(٢)</sup> ، ولا بد أنهم كاشفائهم الجرمان عبدوا الإله أودين . وكذلك تيوا وتير ، ولا يختلفون كثيراً فى وثنتهم عن بقية الجرمان لكن ليس من المعروف إله أكبر للقوط بصفة خاصة وإن عرف القوط بأنهم كانوا أكثر العناصر الجرمانية ورعاً وتمسكاً بعباداتهم الوثنية <sup>(٣)</sup> .

ظل الجرمان على وثنتهم حتى احتكوا بالإمبراطورية الرومانية ودخلوا أراضيها غازين أو مرتزقين أو معاهدين ، فاعتنقوا المسيحية تدريجياً ، ومنذ

---

Bradley, p. 13 (١)

Lav. of Ramb, 1, p. 54; Tacitus, p. 298; C. med. H, 1, p. 98 (٢)

Bradley, p. 15

Bradley, pp. 13, 15; Lav. et Ramb, 1, p. 54 (٣)



منتصف القرن الرابع الميلادي أخذت المسيحية تشق طريقها بين القوط الساكنين عند مصب الدانوب<sup>(١)</sup> ؛ وكانو أسبق من غيرهم من الجرمان في اعتناق المسيحية . غير أن الملاحظ على مسيحية الجرمان عامة ، أنها كانت على المذهب الأريوسى المخالف المذهب الإمبراطوريه الرومانية وشعوبها وذلك فيما عدا الفرنجة الذين اعتنقوها على الكاثوليكية منذ دخولهم فيها حين كانوا في غالة على عهد كاوغس ، والسويف الذين غيروا مذهبهم أكثر من مرة<sup>(٢)</sup> ، وكذلك الانجلوسكسون ، ثم إن القوط الغربيين تحولوا إلى الكاثوليكية في نهاية القرن السادس الميلادي لأسباب سياسية<sup>(٣)</sup> ، ولنوع المذهب الذى اعتنق الجرمان المسيحية بمقتضاء ، أثره البالغ فى مستقبلهم السياسى فيما بعد .

\* \* \*

### الهجرات والغزوات الجرمانية

ترجع تحركات الجرمان وغزواتهم إلى زيادة عدد السكان وعدم إتاحة البيئة الزراعية الفرصة لاضطراد النمو فى مجتمع يتميز بالخصب الجنسى ، ومن ثم تحركت القبائل الجرمانية بحثاً عن أراضى زراعية جديدة ، وأوطان جديدة تفى بحاجاتهم ، وهذا فضلاً عما جبالوا عليه من حب المغامرات وعدم الاستقرار ؛ وليس من شك فى أن البلاد المشمسة الدفيئة قد استهووتهم منذ فجر التاريخ ، بل إن عامل المناخ لم يزل له أثره بين دوافع الاستعمار فى التاريخ الحديث ، كذلك كانت المدنية الرومانية وما بلغت من رقى من بين العوامل التى اجتذبتهم ؛ هذه الدوافع أساسية وأصلية فى الهجرات والغزوات الأولى على الأقل ؛ ولم تزل

---

(١) أنظر ١٠ إلى .

(٢) أنظر ما يلى

(٣) فسر ( نفسه ) ص ١٧ — ١٨ ، أنظر السياسة الدينية فيما يلى

كذلك في الهجرات والغزوات المتأخرة بالإضافة إلى عامل جديد حاسم ، هو حوادث الضغط التي وقعت على الجرمان من قبل الجماعات الرعوية البدوية الضاربة في وسط آسيا حيث تتعرض هذه الجماعات لكثير من أحداث الجماعات والقحط وهذا ما يؤدي إلى ضغطها على ما يجاورها من شعوب ، وأمام مثل هذه الهجرات السكاسحة ، تنساب القبائل التي لا قبل لها بمدافعتها أو الوقوف أمامها . ومن ثم جاء التغلغل التدريجي السلمي أولاً والمسلح أخيراً داخل أراضي الإمبراطورية الرومانية <sup>(١)</sup> .

ويمكن تقسيم الهجرات والغزوات الجرمانية إلى شطرين يتناول الشطر الأول منها ما وقع للإمبراطورية الرومانية في فجر تاريخها ، وهذه هي التي وصفها تاكيتوس وغيره من كتاب الرومان أمثال قيصر و بليني ، وهؤلاء الغزاة الأولون هم أسلاف ما عرف في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى باسم القوط والوندال والسكسون والفرنجة وغيرهم من الذين ملأوا تاريخ الشطر الثاني من هذه التحركات . ويبدأ تاريخ الشطر الثاني بالقرن الثالث الميلادي تقريباً ، وهذا الشطر هو الذي يعيننا بصفة أساسية لأن الشعب الذي نبحثه بدراسته تفصيلاً إنما ترد حوادث تاريخه البارزة إلى هذا الجيل الأخير . ومن الخطأ أن تصور أن هذا الجيل الأخير ظل على ما كان عليه أسلافه من بداءة وجفوة وبربرية ، فقد أدى قربه من حدود الإمبراطورية الرومانية واحتكاكه الدائب بها وتوغلها التدريجي البطيء والسلمي أحياناً ، أدى هذا كله إلى تذوقه شيئاً من حضارة الرومان ، بحيث غدت هذه الحضارة مألوقة له وغير غريبة عنه <sup>(٢)</sup> .

---

(١) فشر ( نفسه ) ص ٢١ : 2 - 21 Deanesly, p. 14 ; Bryce, p. 14.

Thompson, pp. 43 - 44, Lot, pp. 34 - 35 ; et Ramb; 1, p. 59

(٢) Pirenne (H.), p. 25; Deanesly, p. 19



أما عن الشطر الأول فالمعروف أن احتكاك الجرمان بالرومان قد بدأ منذ نهاية عهد الجمهورية الرومانية وجاءت أول غزوة على يد عنصرين هما : الكبريون (Cimbri)<sup>(١)</sup> والتيوتون (Tentons) ، جاءوا بنسائهم وأطفالهم في عربات مقفلة ، ومعهم دوابهم وخيامهم ، ظل هؤلاء يضربون في مناكب الغابات والفيافي ، يقيمون في الشتاء ويستأنفون تجولاتهم في الصيف ، حتى وصلوا حدود الامبراطورية حيث التمسوا من سادة الرومان وطناً يستقرون فيه ، ويقال أنهم طالبوا بهذا الملمس ثلاث مرات<sup>(٢)</sup>

وبينا قدم الكبريون من شمالي شبه جزيرة جوتلاند ورأس سكلجن (Skagen) الذي يسميه بليني تسمية منسوبة إليهم (Promontorium Cimbrorum) هبط التيوتون من المنطقة المعروفة باسم شلويج وهولشتين ، قرب مصب الألب . ومن فروع التيوتون : الأمريون (Ambroni) الذين تركوا مواطنهم الأولى في هذه المنطقة ، بل لا يزال يطاق اسمهم على جزيرة أمروم (Amrom) الحالية ، والتي كان يطاق عليها قديماً أمبرم (Ambrum) وقد ظلت شبه جزيرة جوتلاند مهجورة نحو قرنين من الزمان بعد نزوح هذه العناصر منها ، حتى سكنها من بعدها الأنجلوسكسون ، وكانوا يومئذ يقيمون شرقي الألب كما سكنها الفاريون (Varini) الذين هبطوا من غير شك من اسكندناوة<sup>(٣)</sup>.

والتفاصيل عن غزوة هذه العناصر الأولى ضئيلة ، وكل ما يعرف عنها أنها تحركت تحت ضغط قبيلتين كلتيهين هما : البويي (Boii) وهي فرع من الغالين<sup>(٤)</sup>

(١) أطلق هذا العنصر على نفسه هذا الاسم (Cimbri) ويحي به (الأبطال) غير أن خصومه ترجوا هذه الصفة إلى كلمة « اللصوص » بدلا من « الأبطال » ، وذلك بالنظر إلى سوء أعمالهم وكثرة إعتداءاتهم (Mommisen, III, p. 430)

(٢) Courcelle, pp. 5 - 6., Lav; et Romb 1, p. 55

(٣) Mommisen, III, pp. 430 - 11; lav., et R , 1, p 55; lot, p. 33

Tacitus, p. 318 (٤)

جاءت هذه القبيلة من بوهيميا التي عرفت باسمها ( Bohemia أو Boleum )  
وقبيلة السكوردسكيين ( Scordisci ) من ضفاف الدانوب . ويؤرخ لهذه  
الغزوة التي اتجهت غربا نحو بلاد الغال بحوالى عام ١١٤ ق . م ، ولم يأت  
عام ١٠٦ ق . م . حتى احتل هؤلاء البرابرة غاليا وإيطاليا غير أنهم لم يستطيعوا  
البقاء في بلاد خربوها ونهبوها ، فانتشروا فيها متفرقين ، مما سهل مهمة القائد  
الروماني ماريوس ( Marius ) ، إذ استطاع أن يكيل لهم الهزائم المتلاحقة  
داخرا التيتون في وقعة اكس ( Aix ) عام ١٠٢ ق . م . ومن بعدهم السكير  
في وقعة فرسي ( Verceil ) في ٣٠ يوليو عام ١٠١ ق . م . ومن ثم أنقذ العالم  
الروماني والمدينة الرومانية من عبث البرابرة <sup>(١)</sup> .

غير أن الخطر الداهم بالدولة الرومانية لم يزل نهائياً بهذا النصر الذي رفع  
ماريوس إلى مصاف الأبطال ، فقد جاءت موجة أخرى ، قوامها العنصر السوابي  
( Suebi ) من مساكنهم في براندنبرج الحالية خلال القرن الأول قبل  
الميلاد ، دفعت هذه الموجة الجديدة عنصريين كاتيتين آخرين يقيمان في ألمانيا  
الجنوبية هما : التيجوريون ( Tigurini ) والتويجنونيون ( Teygones ) .

عبر هذان الأخيران نهر الراين واستقرا في سويسرا الحالية ، وترجع تسمية  
مدينة زيورخ الحالية بهذا الاسم إلى العنصر الأول . ولما كانت الجماعات  
التوتونية <sup>(٢)</sup> دائبة النزاع فيما بينها لا تكاد تحمد الحرب بين فروعها ، شأن  
العناصر البدوية الجائلة ، فقد حدث أن استنصر بعض هذه الجماعات بمجنود

---

(١) Mommsen, III, p 425; Lav et Ra b., I, p. 55; Lot, pp. 29-33

(٢) من أسماء الجماعات التوتونية المتنازعة ، وهي جرمانية : السكونسيون ( Sequanes )  
ضد الأيدوني ( Aedui ) ؛ وهناك جماعات توتونية أخرى اتخذت مواطن جديدة لها خلال تلك  
الأحداث منها التريبوكي ( Triboci ) التي استقرت في الألزاس والنميتون ( Nemetes ) التي استقرت في  
منطقة سبير ( Spire ) والمانجيون ( Vangiones ) في منطقة ورمز ( Lot, p. 24; Tacitus, p 318 )



مرتزة من السوابيين ، فجاءت فرقة سوابية بقيادة اربوقست ( Arloviste ) وبعد أن أدى هذا القائد مهمته بالانتصار على أعداء حلفائه ، استقر وقومه حوالى عام ٦١ ق . م . على الشاطئ الأيسر للراين ، مما جعله خطراً يهدد بلاد الغال وفى وادى الراين الأدنى وعلى الضفة اليسرى كذلك ، استقرت قبيلتان جرمانيتان أخريان فيما عرف فيما بعد باسم منطقة كولونيا ( Cologne ) وهما الأسديون ( Usipi ) والتنكستريون ( Tencteri ) . كانت هاتان القبيلتان قد فرتا أمام الموجة السوابية . وأخيراً حين استشعر الهلتيون ( Helvetii ) — وهم من فروع الغال — الخطر والتهديد من لدن جيرانهم القساء ، صمموا على النقلة من مواطنهم بين جبال الجورا والألب ونهر الراين والتوجه إلى غربى غاله ، ولكن انتصار قيصر فى عام ٥٨ ق . م . على أريوفست فى الألزاس العليا أنقذ بلاد الغال من سطوة الجرمان ، وأجل هذه السطوة إلى ما بعد ذلك بنحو أربعة قرون ونصف تقريباً<sup>(١)</sup> . وعلى أثر هذه الهزيمة الساحقة وقفت الغزوات الجرمانية وتراجع السوابيون إلى الضفة اليمنى للراين ، وعبر قيصر هذا النهر عام ٥٥ ق . م . وفى عام ٣٨ ق . م . أقام القائد الرومانى الذائع الصيت أجريبيا ( Agrippa ) الحاميات الرومانية القوية على ضفة الراين اليسرى<sup>(٢)</sup> ، ومن ثم بدأت تلك العناصر الجرمانية المجاورة تأخذ ببعض أسباب الحضارة الرومانية<sup>(٣)</sup> .

---

Mommsen, pp. 423 - 435; Tacitus, pp. 318 - 322; Lot, p. 25 (١)

Lav. et Ramh., 1, p. 55

(٢) اشتهر أجريبيا بالقدرة العسكرية الفائقة ، وكان من حزب أوكتافيوس بعد مقتل قيصر وهو الذى تولى قيادة أسطول أوكتافيوس فى وقعة اكتيوم عام ٣١ ق . م . ، ومن أعماله العلمية أنه وضع خارطة للعالم حفرها أوغسطس على المرمر

( فسر : تاريخ أوروبا فى العصور القديمة ) ترجمة الدكتور مصطفى والدكتور عواد

ص ١٧٢ - ١٧٣ حاشية ١٧٤ .

Lot, p. 25 (٣)

وخلال الفترة الواقعة بين عامي ٣٥ ، ٣٨ ق . م . فتح أغسطس منطقة ريتيا ( Rhaetia ) وتشمل جزءاً من سوابيا وجزءاً من بافاريا وبعض الجهات المجاورة وبانونيا ( Pannonia ) التي تشمل بعض الجور وجزءاً من النمسا ؛ وتقيم في هاتين المنطقتين عناصر الليرية ، كما أن قائده المظفر دروسس ( Drusus ) وصل في فتوحه إلى إمز ( Amisia ) ونهر الفيزر حيث أخضع البتافين ( Batavi ) والفريزيين ( Frisii ) والشوكيين ( Chauoi ) وذلك في عام ١٢ ق . م . وفرض الجزية على الفريزيين ، ثم احتل في العام التالي المنطقة الواقعة بين الراين والفيزر ، حيث خضع له عنصر السكاتيين ( Catti ) وهم المعروفون كذلك باسم المسيين ( Hissiois ) وبعد أن حصن هذه المنطقة وصل في عام ٩ ق . م . إلى نهر الألب ومدينة ماينز ( Mayence ) فتقهقرت أمامه العناصر الماركومانية ( Marcomanni ) إلى بوهيميا حيث أزالوا سكانها الأصليين من البويجيء واستقروا مكانهم ، ومن أجل انتصاراته لقب بالجرماني ( Germanicus ) أي قاهر الجرمان<sup>(١)</sup> . وبعد وفاة هذا القائد المظفر ؛ وهو في سن الثلاثين ، خلال عودته من حروبه ، خلفه أخوه وصنوه تيبيريوس ( Tiberius ) ليكمل انتصاراته ، فوصل تيبيريوس في تلك الأصقاع إلى مصب الألب وشبه جزيرة جوتلاند ، وطرد خلال اكتساحه هذا بعض عناصر السكامبريين ( Sclambros ) إلى الشاطئ الشرقي للرين وقضى على البعض الآخر .

ومعنى هذا أنه خلال الست سنوات الأخيرة من القرن الأول قبل الميلاد كانت الفرق الرومانية قد جالت في شمالي جرمانيا وحالت دون وصول الأخطار إلى غالة ، وأضحت ألمانيا « بين الراين والألب » ولاية رومانية . ويلاحظ أن قبضة الرومان على هذه الولاية كانت مزعزعة بسبب كثرة التمردات

---

(١) Courcelle, p. 6 ; Lot, p. 25; Tacitus, pp. 325 - 329



الجرمانية والنزوات التي أخلت بالأمن فيها ، ولا سيما حين وقعت ثورات في مطامع القرن الأول الميلادي ، وذلك خلال أعوام ٢ و ٤ و ٥ ميلادية . وهذا بالإضافة إلى الثورات التي أشعلها اللاتيريون في بانونيا ودالماتيا ، كل ذلك حال دون الوصول إلى نجاح حاسم ضد الجرمان ؛ ولعل من أخطر الثورات التي قام بها الجرمان ضد الرومان ، تلك الثورة التي تزعمها أرمينيوس ( Arminius ) الشيروسكي ، فقد لقي الجيش الروماني نكبات فادحة بعدد إخماده لهذه الثورة ، وأبيدت ثلاث فرق رومانية بقيادة فاروس ( Varus ) عام ٩ م في غابة تيتوبورج ( Teutobourg )<sup>(١)</sup> ، ويقدر المؤرخ مومن ( Mommsen ) عدد الجيش الذي أبيد بنحو عشرين ألف . ورغم هذه الكارثة الخطيرة فإن سيادة الرومان لم يقض عليها قضاء تاماً في جرمانيا ، إذ لا مدو ثورة أرمينيوس أن تكون ثورة محلية بدليل أن غيره من العناصر الجرمانية الخاضعة لم يثر مثل البتافيين أو الفريزيين أو الماركومان . وقد بالغ الامبراطور أغسطس في آثار هذه الكارثة ، فهو كثيره من الكثير من رؤساء الدول الذين تقدمت بهم السن أضحي بعدها يخشى المغامرات الحربية في تلك الأصقاع . ومن ثم قرر أغسطس إخلاء جرمانيا والاكتفاء بوضع حاميات فيما وراء الرين لإرهاب الجرمان ، واعتبار حدود الامبراطورية عند نهر الراين<sup>(٢)</sup> .

ويرجح أن إخلاء جرمانيا جاء نتيجة لإهمال الرومان الذين استخفوا بالعناصر الجرمانية والخطر الجرمانى كما استخفوا بأيرانداه معتقدين أن فرقة واحدة تسكني لإخضاعها كما أن الرومان نظروا إلى مثل هذه البلاد على أنها فقيرة مجذبة لا مطامع فيها . والواقع أن استقرار الحدود الامبراطورية عند الراين شمالاً والدانوب شرقاً صار حقيقة واقعة منذ وفاة أغسطس ، بل ربما كان قبل ذلك ،

---

(١) Tacitus, pp. 326 - 329

(٢) Frank, p 400., Lot, p. 26; Lav; et R, 1, p. 55

منذ كارثة قاروس عام ٩ م ولم تغلح الجهود التي بذلها خلفاء أغسطس المباشرون في إعادة نشر النفوذ الروماني في تلك الأصقاع .  
رأى أغسطس أن تكون حدود امبراطورية عند هذه الحدود الطبيعية ( الراين والدانوب ) وأن الواجب عليه أن يتخذ موقف الدفاع في تلك المناطق ، فقد كانت كارثة قاروس سبباً في ضياع للممتلكات الرومانية بين الرين والفيزر . ولم يدر بخلافه وهو يقرر هذا الوضع أنه يضع حداً جنسياً ، لأنه لم ير حاجة إلى مثل هذا الاعتبار ، نظراً لأن امبراطوريته قد نجحت في علاج الخلافات الجنسية داخل حدودها ، إذ كانت تضم شعوباً مختلفة تتكلم لغات مختلفة من لاتين وإغريق وكلت وجيليين وجرمان وصقالبة وبروثنساالين ، وفي الحدود الشرقية نجد المغول وبعض العرب الخاضعين لسلطان روما ، كذلك لم تحس الامبراطورية الرومانية بمشكلة الملونين أو الاختلاف اللوني ، فإن روما حكمت عدداً من الشعوب لا يختلف لونها كثيراً عن لون رعاياها في حوض البحر الأبيض ، ثم أن حكام روما عاملوا الشعوب الخاضعة على أساس الثقافة والمدنية دون اعتبار للجنس أو اللون ، بل أن اضطراد منح الحقوق المدنية الرومانية للشعوب الخاضعة لهم لم يخضع لتلك الاعتبارات . أما الذي كان واضحاً في ذهن أغسطس فهو الاعتبارات الاستراتيجية وكذلك الاقتصادية ، رأى أن يعمل لإيفاء حاجات الدفاع الممكنة لامبراطوريته ، فالأنهار العظيمة هي بنفسها خطوط دفاعية ليست بحاجة إلى صيانة أو وقاية وفي نفس الوقت تعتبر طرقاً هامة للمواصلات والنقل التجاري . وظلت حدود الامبراطورية الرومانية قائمة عند الراين والدانوب أكثر من أربعة قرون<sup>(١)</sup> .

ورغم أن قرار أغسطس كان محتوياً إلا أنه أدى إلى نتائج خطيرة إذ لم تستطع الامبراطورية الرومانية المحافظة على هذه الحدود الطويلة حين تعرضت

---

(١) Bryce, p. 14; Lot, p. 27; Deanesly, p. 17



إلى غزوات جديدة قبل أن تتمكن من نشر الحضارة الرومانية بين هذه العناصر<sup>(١)</sup>. ومن ناحية أخرى أخطأ الرومان في إخلاء جرمانياً والاعتماد على الدانوب والراين كموانئ طبيعية بينهم وبين الشعوب البربرية ؛ ولهذا الخطأ أشباه في التاريخ ، فهذه الصين القديمة ، قد أفرغت جهودها وماليتها مدة تقدر بنحو خمسة قرون ( ٢١٤ ق م — ٢٥٠ م ) في بناء سد عظيم بينها وبين البرابرة من التتار وغيرهم ، ومع ذلك لم يحمها السد الكبير حتى من غزوة واحدة<sup>(٢)</sup>.

وبعد عهد أغسطس تأرجحت السياسة الرومانية نحو الشعوب الجرمانية بين المواءمة والشدة ، فأعطت روما بعض هذه الشعوب حق المتاجرة ( Jus commercii ) معها كما اجتذبت إليها بعض الأسر الكبيرة من الجرمان ، غير أن هذه السياسة لم تزد الجرمان إلا طمعاً في بلاد الرومان الغنية ، فرأى تراجان ( ٩٨ — ١١٧ م ) مدى خطورة الغلظة التي ارتكبها أسلافه ، ومدى النتائج التي تمخضت عن اتخاذ موقف الدفاع ، ولذا قرر التوسع فيما وراء هذه الحدود ، ففتح عام ١٠٠ م منطقة داكيا ( Dacia ) — وهي رومانيا الحالية — وتتكون من ترانشلفانيا وولاشيا ( الأفلاق ) وولدافيا ( البنادن ) — ويقع في داكيا الداكيون وهم فرع من التراقيين ، وسرعان ما اضطهنت داكيا بالحضارة الرومانية ووضحت حصناً منيعاً وترساً أمامياً قوياً للحضارة الرومانية في قلب العالم البربرى .

أما خليفته هادريان ( ١١٧ — ١٣٩ م ) فقد عاد إلى السياسة الدفاعية واكتفى بإقامة سلسلة من الأسوار ، يحمل أحدها اسمه في بريطانيا ، ولسكن مثل هذه السياسة لم تعجب الامبراطور ماركوس أوريليوس ( ١٦٩ — ١٧٧ م )

---

(١) نشر (ترجمة الدكتور لصحي والدكتور عواد) من ١٢٣-١٢٤ وحاشية رقم ١٨٠

(٢) Lot, pp. 28 - 29

منفرداً بالحكم أو مشتركاً مع ابنه كومودس (١٧٧ — ١٨٠ م) فكرس حياته لكفاح الجرمان ، والواقع إن الخطر من ناحية الراين قد قل شأنه حينئذ ، على حين برز الخطر من ناحية الدانوب حين غزا عنصر السكاتيين ( Catli ) عام ١٦٢ م منطقة رايتيا وجرمانيا العليا ، وفي نفس الوقت قام العنصران السوابيان : الماركومان — سكان بوهيميا ، والكوادى — سكان موراثيا وجزء من النمسا<sup>(١)</sup> بهجوم ساحق على الجيش الرومانى وحاصروا مدينة أكويليا ( Aoullia ) فخاربهم أورليوس وانتصر عليهم ، كما انتصر على قبيلة جازيج ( Jazyges ) قرب الدانوب . وهذه القبيلة فرع من السارمات الايرانيين ، استطاع هذا النصر أن يحتل مناطق هذه القبائل لمدة أربعة عشر عاماً وأمله أن يكون ولايتين رومانيتين من سارماتيا — وهى هنغاريا الحالية تقريباً — وماركومانيا — تشكوسلوفاكيا المحاصرة تقريباً — ولكن يشك في أنه حقق هذا المشروع الضخم ، وعلى فرض تحقيقه فإن حماية هاتين الولايتين تستلزم قوات لا طاقة لروما بها . وسرعان ما تحطمت هذه الآمال العريضة بمقتل الامبراطور فى وقعة فندبونا ( Vindobona ) — فيينا الحالية — عام ١٨٠ م ؛ وفشل ابنه كومودس حين انفرد بالسلطة ( ١٨٠ — ١٩٢ م ) فى اتباع سياسة أبيه الايجابية ، فعاد إلى السياسة الدفاعية التى استنها أغسطس من قبل ، حقيقة أثمرت سياسة أبيه فى اتحاد صوت الماركومان والكوادى لمدة قرنين أو ثلاثة . ولكن حتى القرن الثالث الميلادى ، لم تعد لهذه القبائل الجرمانية أية أهمية ، بعد أن ظلت خطراً يهدد الامبراطورية فترة طويلة<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

بهذا تنتهى الموجة الأولى أو الشطر الأول من الغزوات الجرمانية ، ومنذ القرن الثالث الميلادى فصاعداً تبدأ غزوات وهجرات جديدة .

(١) فشر (ترجمة الدكتور لصحى والدكتور عواد) ص ١٢٧، ١٢٦ وحاشية ص ١٩٣

(٢) Tacitus, p. 334. loc. pp 29-30.



فلم يمض نحو نصف قرن تقريباً على وفاة ماركوس أورليوس (عام ١٨٠ م) حتى تعرضت الإمبراطورية الرومانية إلى هجمات جديدة من عناصر جرمانية تحت أسماء مثل : الفرنجة والسكسون والقوط وغيرهم . وتختلف هذه الغزوات عن سابقتها بأنها كانت أشد عنفاً وأبعد أثراً في كيان الإمبراطورية الرومانية ، بل إن هذه الغزوات الأخيرة هي التي قررت مصير الإمبراطورية الرومانية الغربية بعد نحو قرنين من الزمان .

لسكن هذا لايعنى أن القبائل الجرمانية الجديدة في هذا الشطر من الغزوات ، مقطوعة الصلة بالجرمان السابقين ، وإنما هي من سلالاتهم ، غاية ما في الأمر أن كثيراً من العناصر السابقة قد نحد لفترة مثل الفريزيين والبعض منها عاهد الرومان ثم خرج على شروط المعاهدين مثل الألمان والفرنجة ، واندمج البعض الآخر في قبائل أقوى تزعمت حركات الغزو الجديدة ، كالقبائل التي انضوت تحت لواء الفرنجة ، وهذا فضلاً عن أن بعضاً من القبائل الجرمانية القديمة قد قضى عليها مثل السكبريين والأمبرونيين الذين قضى عليهم في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد ، والشروسكيين الذين أبيدوا في القرن الأول الميلادي ، كما قضى على انبستارن ( Bastrnao ) ويسمون كذلك بالبيكونيين ( Pouelnj ) في القرن الثالث الميلادي ، ومن القبائل التي قضى عليها كذلك أو اندمجت في الحضارة الرومانية قبائل السيكا مبريين والتبانتيين ( Tubantes ) وغيرهم<sup>(١)</sup> .

ونتناول من غزوات وهجرات الشطر الثاني غزوة القوط أعظم فروع الجرمان الشرقيين على الإطلاق وتتبع تاريخ القوط الغربيين بصفة خاصة حتى نهاية دولتهم في مطلع القرن الثامن الميلادي .

---

(١) فسر (ترجمة الدكتور زيادة والدكتور الباز) ص ١٩ ، ٢٠ ؛ Tacitus, pp. 320,340

## الفصل الأول

### أ. ظهور القوط وتحركهم

أصل القوط : — موطنهم — هجرتهم إلى البحر الأسود في القرن الثاني الميلادي احتكاكهم بالامبراطورية الرومانية — انقسام القوط إلى شرقيين وغربيين — القوط الغربيون في داكيا ووصول المسيحية إليهم على يد أوليفلاس القوطي — القوط الغربيون والامبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي وقعة أدرنة ٣٧٨ م وتناجها — ثيوديسيوس العظيم والقوط الغربيون .

يعتبر عنصر القوط ( Gothos ) أعظم قبائل الجرمان الشرقيين أطلافاً ، فهم أكثر القبائل الجرمانية عدداً وأشدّهم خطراً على أوروبا ، عبروا كأغلب أقرانهم من اسكندرية ، منذ الزمن السحيق ، وذلك قبل القرن الرابع قبل الميلاد<sup>(١)</sup> . واستقروا عند مصبات الأودر والفستولا حالين محل الرومانيين والوندال ، ويحتمل أن وصول القوط قد أدى إلى تحرك القبائل الجرمانية الأخرى نحو الغرب<sup>(٢)</sup> .

وقد ذكر بتياس ( Pythias ) الرحالة الأغريقي المرسيلي القديم وهو من معاصري الإسكندر المقدوني ، أن هناك شعباً يعرف باسم القوط ( Guttones )<sup>(٣)</sup>

(١) Moss, p. 44.

(٢) Lot, p. 75.

(٣) ذكر اسم القوط بأشكال مختلفة منها ( Ootones ) ( Gothones ) وكلمة ( Outtones ) ترادف ( gut-lhluda ) بمعنى الشعب القوطي ( Idodgklud, I, p. 34 ) .



يقيم فيما هو بروسيا الشرقية الحالية أى فى الركن الجنوبى الشرقى من ساحل البحر البلطى وحول خلجان دانتزج الحالية ، ويعمل هذا الشعب فى تجارة العنبر الذى يجمعه من سواحل البحر<sup>(١)</sup> . ولم يسمع عن هذا الشعب بأكثر من هذه العبارة لمدة أربعة قرون بعد ذلك ، ويؤكد المؤرخ الرومانى القديم بلينى ( Pliny ) المتوفى عام ٧٩ بأن هؤلاء لا يزالون يقيمون حيث هم فى أيامه ، كما أن تاكيوس ( Tacitus ) أعظم مؤرخى الرومان والمتوفى حوالى عام ١١٧ م ، قد أورد اسم القوط ( Gothones ) فى معرض حديثه عن الجرمان وقال فى السكتيب الذى وضعه عن جرمانيا ( Germania ) بأن نظام الملكية قام ونما بين القوط أكثر من غيرهم من العناصر الجرمانية<sup>(٢)</sup> .

وموطن هؤلاء القوط الأصلى هو شبه جزيرة اسكندنافيا فى السويد بصفة خاصة ، وكانت تعرف باسم جزيرة سكانزيا أوسكين ( Sconzia, Skano )<sup>(٣)</sup> وظلوا فترة من الزمن فى المنطقة المعروفة باسم ( Gothiscandza ) أو ( Gotibland ) جنوب السويد ثم عبروا إلى الساحل الأوروبى<sup>(٤)</sup> ، ورغم أن هذه المنطقة قد عرفت باسم العنصر المعروف باسم جوتر ( Gauter ) إلا أن هذا العنصر الأخير قريب الشبه من القوط مما يحمل على الظن بأن الإسمين لمسمى واحد ، كذلك يدل اسم جزيرة ( Gothland )<sup>(٥)</sup> فى البحر البلطى ، على أن القوط أقاموا فيها فترة أو كانوا يسكنونها ، وكانت قديماً تعرف باسم ( Gutland ) . وما ورد فى الأغاني ( Sagan ) الشمالية ، وأشعار الأنجلوسكسون أن شبه جزيرة جوتلاند ( Jutland ) كانت

---

(١) Courcelle, p. 5; Mommsen, III, p. 430; Tacitus, p. 339  
Hodgkin, I, p. 34; Bradley, pp. 1 - 2; Tacitus, p. 336

(٢) Encycl. Brit., Art. «Goths»

(٣) Hodgkin, I, p. 33

(٤) Deanesly, p. 26

(٥) تقع هذه الجزيرة بين خطى عرض ٥٧° ، ٥٨° شمالاً وتوضع حالياً للسويد .

( م ٣ — دولة القوط الغربيين )

قديمًا مسكونة بفرع من القوط يعرف باسم (Hréth-gotan أو Reithgotar)<sup>(١)</sup>. وعندما وصلت جموع القوط إلى الساحل الأوروبي ، استقروا قرب بومرانيا الشرقية حيث هزموا العناصر المقيمة بها والمعروفة باسم (Ulmerugi) كما هزموا جيرانهم الوندال والروجيين ، و بعد فترة من الزمن هاجروا إلى سكيثيا (Soythia) واستقروا في المنطقة التي أطلقوا عليها اسم أيوم (Olum) شمالي البحر الأسود في حوض نهر الدنيبر . وكان ذلك خلال النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي تقريبًا<sup>(٢)</sup>.

ومن القبائل التي صحبت القوط في هجرتهم ، وربما كانت خاضعة لهم أو مرتبطة بهم يحلف أو معاهدة ، قبائل الهيروليين والسكيريين والتورسيلايين والجبديون : (Heruli ، Scirians ، Turollings ، gepibae)<sup>(٣)</sup> ويبدو أن هذه القبائل كانت أقرب إلى القوط من غيرها من فروع التيوتون<sup>(٤)</sup>. والملاحظ أن الرومان قد خلطوا بين القوط وشعب آخر يعرف باسم الجيتيين (Getae) كان يسكن شمالي مصبات الدانوب ، إذ حدث على عهد الأباطوار أغسطس (٣٠ ق.م. — ١٤ م) أن نفى الشاعر أوفيد (Ovid) إلى هذه المنطقة حيث عاش وسط ذلك الشعب ، وحين وصل القوط إلى هذه المنطقة في القرن

---

(١) Bradley, pp. 7 - 8

(٢) Encycl. Brit. Art., «Goths», Hodgkin, 1, pp. 40-1

(٣) هناك رواية نقلها جوردين (Jordanes) المؤرخ القوطي في القرن السادس الميلادي ربما عن الأساطير والأفاني القديمة — مؤداها أن القوط حين انتقلوا إلى الساحل الأوروبي ، كانوا يركبون في ثلاث سفن بقيادة ملكهم بريج (Berig) ، وحدث أن وصلت إحدى السفن متأخرة لثقل حمولتها ، ولهذا التأخير عرف ركاب هذه السفينة باسم (Gipids) من الكلمة القوطية (Gepanta) بمعنى البطيء

(Bradley, p. 8; Hodgkin, pp. 33 - 40; Lav, et Ramb., 1, p. 49)

(٤) Bradley, p. 8



الثالث الميلادي ، اختلطوا بالعنصر القديم<sup>(١)</sup> ، ومن هنا اختلط على الرومان أن الإسمين لسمى واحد حتى صاروا يطلقون اسم القدماء على الغزاة الجدد ، ولهذا أشباه في التاريخ كإطلاق اسم البريطانيين القدماء مثلاً ( Britones ) على الغزاة الجدد من الأنجلوساكسون ووقع في هذا الخلط كذلك جوردان المؤرخ القرطبي ، لأنه قرأ ما كتبه الرومان عن هذا الشعب ، والصواب أن الشعبين يختلفان جنساً ولسنة<sup>(٢)</sup> . ومنذ انتقال القوط إلى شواطئ البحر الأسود دخل الكثير منهم طوعاً في خدمة الإمبراطورية الرومانية في الشرق ، فمثلاً نجد أن منهم من عمل بواباً أو بناء أو ساقياً<sup>(٣)</sup> ،

ولم يكد يأتي عام ٢١٤ م حتى كان القوط قد انتشروا حول شواطئ البحر الأسود الشمالية ، ووجدوا أنفسهم لأول مرة وجهاً لوجه مع الإمبراطورية الرومانية وذلك على عهد الإمبراطور كركلا ( Caracalla ) ( ٢١٢-٢١٩ )<sup>(٤)</sup> ولما كان شأن هذه القبائل البدوية النقلة والاعتداء على المناطق الغنية ، نزولاً على ما طبعوا عليه من الجفوة والغلبة وحب المغاسرات ، ثم لحاجتهم للعيش بأية وسيلة ، فقد بدأت إغاراتهم<sup>(٥)</sup> ، إلا أن الرومان ، وقد استشعروا خطرهم الدائم<sup>(٦)</sup> ، حالفوهم حوالي عام ٢٢٥ م ، وقرروا لهم جملاً ( Stipendium ) ، سنوياً نظير قيام القوط على حماية حدود الإمبراطورية ضد السارمات<sup>(٧)</sup> ( Sarmates ) البرابرة الذين يقيمون فيما وراء القوط ، غير أنه حدث على عهد الإمبراطور فيليب العربي ( ٢٤٤-٢٤٩ ) ، أن قطع هذا الجمل فمبرأوس ترجوتا

(١) Olsson, II, p. 342

(٢) Bradley, p. 19; Hodgkin, I, N. A. pp. 98-100

(٣) Lav, et Ramb. I, p. 56

(٤) Thompson, p. 44; Eucycl. Brit., «goths»; Hodgkin, I, p. 43

(٥) Deanesly, p. 26

(٦) C. med. H. I, p. 39

(٧) Hodgkin, I, p. 49

( *Anstraguta* أو *Ostrogotha* ) ملك القوط<sup>(١)</sup> ويدل اسم هذا الملك على أن فرع القوط الشرقيين كان قد تولى قيادة هذه الحملة ، عبر هذا الملك نهر الدانوب ونهب ولايتي مؤيسيا ( *Meosia* ) — على الشاطئ الجنوبي للدانوب — و *تراقيا* . وقام القائد الروماني السناتور دكيوس ، الذي صار امبراطوراً فيما بعد على رأس جيش لدفعهم ، فرأى القوط الأقبيل لهم بمداخلة الرومان فانسحبوا في هدوء وعادوا من حيث أتوا وعبروا الدانوب ، ويقال إن عدداً كبيراً من الجنود الرومان قد انضم إلى القوط وحرضوهم على هجوم آخر بسبب تحقير دكيوس لهم ورميهم بالإهمال والتقاعد حتى طرد عدداً كبيراً من جنوده لأنهم في نظره غير جديرين باسم الجنود<sup>(٢)</sup> . وحينئذ تشجع ملك القوط وأرسل قوة بقيادة قائدين قوطيين هما : أرجيث ( *Argath* ) وجونثاريك ( *Guntharic* ) ، استطاع هذا الجيش أن ينهب بعض أجزاء من ولاية مؤيسيا ، بل حاصر عاصمتها مدينة مارقيان ( *Marcianopolis* )<sup>(٣)</sup> ولم يجد سكانها بداً من مقاضاة القوط لرفع الحصار نظير دفع مبلغ كبير من المال فعاد القوط إلى أراضيهم<sup>(٤)</sup> . ويتبدى تاريخ القوط المحقق حوالى هذا العهد ، كما يبدأ تأسيس الإمبراطورية القوطية المترامية الأطراف جنوب روسيا وشمالى البحر الأسود ،

---

(١) الملك أوستراجوتا أو أوستروجوتا أول ملوك أسرة الأمالين ( *Amalinga* ) وهى الأسرة المعروفة التى انحدر منها ملوك القوط الشرقيين ، ولهمه الأسرة شهرة واسعة فى الحروب ، وهى سليلة جلال ظفر بلقب ( *Amala* ) أى العظيم ، واقد برهن أوستراجوتا على أنه جدير بحمل لقب هذه الأسرة ، إذ اشتهر هو بدوره بشدة صراسته فى الحرب وصبره فيها حتى لقب ( بالصبور ) وتوفى عام ٢٥٠ م ، وأبرز سلالة هذه الأسرة الملك أرمازيك الذى انجر عام ٣٧٥ م ( *Lav. et* ) ، *Hodgkin*, 1, pp. 43, 76 - 77; *Bradley*, pp. 13 - 43; *Ramb*, 1, p. 49 أنظر ما يلى ص ٢٠ ، ٤١ .

(٢) *Hodgkin*, 1, p. 49

(٣) شيد الامبراطور تراجان هذه المدينة تذكراً لأخته مارقيا ( *Marcia* )

(٤) *Hodgkin*, 1, p. 50; *Bradley*, pp. 24 - 26



حيث يجرى نهر دنيستر وذلك بعد أن تغلبوا على بدو الاستبس ، ويجاورهم من ناحية الشمال الغسرى عنصر الفن ( Finns ) ومن الشرق الآلان ( Alans ) الفرس ، ولسكن يلاحظ على هذه الإمبراطورية أنها كانت مفككة غير متماسكة الأجزاء<sup>(١)</sup> ، وبهذا الوضع أخذ القوط يلحون في قرع بلاد الإمبراطورية الرومانية فتحركوا عام ٢٥٠ م بعد أن سرنوا على الحرب بالفرسان الثقيلة ، وتابعوا تخريبهم في بلاد البلقان بقيادة ملكهم كينوا أو كنيفا ( Kniwa or Culva )<sup>(٢)</sup> وتمكنوا من الاستيلاء على مدينة فيليب ( philippopolis )<sup>(٣)</sup> حيث استمات الامبراطور دكيوس في الدفاع عنها ، وظل يحارب حتى قتل هو وابنه في الحرب عام ٢٥١ م في وقعة دبروجه ( Abritus ) ، وفشل خليفته على العرش الإمبراطوري تربونيانوس جالوس ( Trebonianus gallus ) في دفعهم فسلم لهم بالاستيلاء على البلاد التي فتحوها كما تعهد لهم بدفع جزية سنوية نظير عدم اعتدائهم<sup>(٤)</sup> . غير أن الفوضى الحربية التي تلت هذه الحرب ، في بلاد الإمبراطورية ، قد تركت الميدان خالياً تحت رحمة البرابرة ، وعجز الإمبراطور فالريان ( ٢٥٣ - ٢٦٠ ) عن القيام بأى عمل فعال ، نظراً لانشغاله في الحرب ضد الفرس في أطراف آسيا الصغرى إذ حدث أن استولى الفرس على أرمينيا وانطاكيا ، ولسكنهم هزموا هزيمة شنعاء قرب الرها عام ٢٥٩ / ٢٦٠ م . وخلال هذه الفترة كان القوط قد استأنفوا غزواتهم ، فاستولوا على القرم ، وعبروا البحر الأسود وضربوا مدينة طرابزوند على الساحل الجنوبي للبحر الأسود ، بل أمعنوا في إيغالهم في بلاد الإمبراطورية وضربوا خلقدنية ونيقوميديا وغيرها ثم عبروا إلى أثينا ونهبوها

---

(١) Deanesly, pp. 26 - 7; Bolss., pp. 8 - 9

(٢) ليس هذا الملك من سلالة الملك السابق .

(٣) Hodgkin, 1, pp. 52-3

(٤) Deanesly, p. 26; Lot, p. 35; Bradley, pp. 26-9

٢٦٧ م وجمعوا ما في مكتباتها من كتب ، وأوشكوا أن يحرقوها ، لولا أن أحد عقلائهم نصح قومه بترك هذه الكتب ليتلهم بها الإغريق عن الإشغال في الحرب <sup>(١)</sup> . وكان ذلك على عهد الإمبراطور جاليانوس ( Gallianus ) — ( ٢٧٠ — ٢٦٨ ) وبعد مقتل جاليانوس على يد الحشاشين استطاع خليفته الإمبراطور كلوديوس الثاني ( Claudius ) ( ٢٦٨ — ٢٧٠ ) البانوني ، أن يهاجم القوط وأحلافهم من الباستارن والجبدای والهيرولين عند ما كانوا يخربون في مدن مؤيسيا ، وفي وقعة حربية عنيفة قرب نيسس ( Nisus ) وهي نيش الحالية في صربيا العليا — عام ٢٦٩ م ، لقي القوط صدمة عنيفة ، خسروا فيها نحو خمسين ألف من رجالهم ، ومن أجل هذا الظفر لقب الإمبراطور كلوديوس بقاهر القوط ( Gothicus ) <sup>(٢)</sup> . ومع هذا فلم يستطع خلف كلوديوس وهو أورليان ( Aurelian ) ( ٢٧٠ — ٢٧٥ ) أن يتابع الزحف ، حقيقة انتصر على القوط ولكن انتصاره لم يكن حاسماً ، وخسر كثيراً كما أن القوط أنفسهم قد قاسوا كثيراً بسبب الحرب . فتهيأت الأحوال من الجانبين الموافقة على عقد هدنة ومعاهدة ، منح القوط بمقتضاها مقاطعة داكيا ( Dacla ) <sup>(٣)</sup> وتشمل ما هو ترانسلفانيا الحالية والجزء الغربي من الجرج و غربي ولاشيا <sup>(٤)</sup> وفي نظير ذلك يتعهد القوط بإمداد الجيش الروماني بفرقة من الفرسان القوط قوامها ألفا فارس . ثم إن الإمبراطور أخذ عدداً من أبناء وبنات الأمر النبيلة القوطية كضمان لولاء القوط أو رهينة لينشأوا تنشئة رومانية في رعاية الإمبراطور ، وبعد ذلك عين بعض شباب القوط في مناصب عليا بالقصر الإمبراطوري ، وزوج عدداً من بنات القوط من كبار ضباطه . بهذا الارتباط أضحي القوط محالفين ومحافظين على المعاهدة.

(١) Bradley, pp. 31 - 33

(٢) Gibbon, 1, pp. 372 - 4

(٣) أضيفت هذه الولاية على عهد الإمبراطور تراجان .

(٤) Courcelle, p. 10; Hodgkin, 1, pp. 45 - 6



لمدة نصف قرن تقريباً ، حيث استفادوا من حياة السلم في دا كيا وتأثروا بالحضارة الرومانية أكثر من أشقائهم الشرقيين المنتشرين في وديان ليتوانيا الواسعة وجنوب روسيا<sup>(١)</sup> .

وفي فترة الخمسين عاماً منذ عهد أورليان ، كان تاريخ القوط فيها غير واضح ، وأول خروج لهم بعد انقضاء هذه الفترة كان عام ٣٢٢ م ضد الإمبراطور قسطنطين الأكبر فهزمهم وأخضعهم حتى أنهم ساعدوه في السنة التالية ضد ليكنيوس ، وقاد القوط في هذه الحرب ملوكهم مثل أرياريك وأيوريك (Ariario, Aoric)<sup>(٢)</sup> ، وبعد ثمانين سنة حاربهم قسطنطين مره أخرى وانتصر عليهم فطلب القوط مهادنتهم وعقدت محالفة ظل القوط بعدها نحو ٣٠ سنة لا يقلقون أمن الإمبراطورية<sup>(٣)</sup> . على أنه حتى ذلك الوقت لم يكن المنصر القوطي قد هاجر بأعداد ضخمة إلى البلقان ، فلم تزل هناك إمبراطوريتهم العاسمة جنوب روسيا ...<sup>(٤)</sup> .



١ وعن انقسام القوط إلى شرقيين وغربيين ، فالمعروف أنهم منذ مطلع القرن الثالث الميلادي ، وهم على شواطئ البحر الأسود الشمالية انقسموا إلى فرعين كبيرين هم : القوط الشرقيون (Greutungs) أو (Grouthungi) والقوط الغربيون (Thervings) أو (Tervingi) . أقام الأولون شرقي نهر دنيستر بينما استقر الآخرون في غربه ، ولا تعني هذه التسمية سوى دلالتها على الوضع الجغرافي لهذين الفرعين<sup>(٥)</sup> ، ولو أن من المؤرخين من أضاف إلى هذا التمييز المكانى تمييزاً

---

(١) Hodgkin, 1, pp. 69 - 70, 73 - 4; Bradley, pp. 34 - 7

(٢) Hodgkin, 1, pp. 71 - 4

(٣) C. med. H., 1, p. 39; Bradley, pp. 40 - 1; Lot, pp 35 6

(٤) Hodgkin, 1, p. 71; Deanesly, pp 26 - 7

(٥) Moen, p.44; Lav. et ramb., 1, p.49; C. med. H, 1, p.39; Bradley p.5

معنوياً آخرًا ، فيفسر كلمة ( Creuthungi ) أو ( Greutungs ) التي صارت فيما بعد ( Ostrogoths ) بمعنى القوط اللامعين من الكلمة ( Austr ) بمعنى اللامع ، وكلمة ( Thervringi ) أو ( Tervingi ) وهي التي عرفت فيما بعد بإسم ( Visigoths ) ، بمعنى القوط العقلاء أو الراشدين<sup>(١)</sup> ومهما كان التمييز بين الفرعين فالثابت أن الحد الفاصل بين عنصرى القوط هو نهر دنيستر ( Thyras ) والثابت كذلك أن القوط بشطر يهيم ظلوا يعملون معًا ، كما وضع من الأحداث السابقة وأن العنصر الغالب في الفريق الذى احتك بالإمبراطورية الرومانية كان من القوط الغربيين ، ولو أن الجميع يخضعون لسيادة عليا واحدة هي سيادة ملك القوط الشرقيين ، ثم إن الغربيين هم الذين عقدوا المعاهدة مع الإمبراطور أورليان ، واستقروا بمقتضاها في منطقة دا كيا ، وهم الذين خرجوا على عهد قنسططين الباكر وحاربوه وانهزموا أمامه فمقدوا معه معاهدة . وكان من نتيجة الإقامة الطويلة في ولاية دا كيا وتقدر بنحو مائة سنة من ( ٢٥٠ — ٣٥٠ م ) أن الشقة قد اتسعت بين فرعى القوط<sup>(٢)</sup> . ومن عجيب الصدف أن هذا التمييز الجغرافى بين فرعى القوط ظل واضحًا حتى بعد تسكوين دول القوط فيما بعد ، فكان القوط الغربيون فى تولوز فى الغرب بينما كان القوط الشرقيون ، إما فى الجرجر أو فى إيطاليا ، أى شرق أشقائهم<sup>(٣)</sup> .

ظل القوط الغربيون يخضعون لسيادة أشقائهم الشرقيين فترة طويلة ، وكما القوط الشرقيون قد كونوا لهم امبراطورية متسعة بلغت ذروة مجدها واتساعها خلال القرن الرابع الميلادى وذلك على عهد ملكها ارمازيك ( Ermanric ) أو

---

(١) Davis, p. 22; Hodgkin, 1, pp. 400 - 2; Lot, p. 50

(٢) Encycl. Brit.; Bradley, p. 38; Deanesly, p. 26; Hodgkin, 1, p. 74

(٣) Hodgkin, 1, p. 73



Hermanrice الذي ولي العرش عام ٣٥٠ م وهو سليل أسرة الأماليين<sup>(١)</sup> شغلت هذه الامبراطورية ما هو أوكرانيا الحالية تقريباً ، ولبعد صيبت هذا الملك شبهه جوردين مؤرخ القوط بالاسكندر المقدوني ، وقالوا عنه إنه اسكندر القوط الشرقيين<sup>(٢)</sup> . ورغم خضوع القوط الغربيين لسلالة إرمانريك ، فإنهم كانوا مستقلين من الناحية العملية ولهم حكمهم فكانوا ينقسمون إلى قبائل على رأس كل قبيلة حاكم أو قاضي ، وليست لهم رئاسة موحدة ، وأن اعترفوا جميعاً — ولو نظرياً بالسيادة العليا للملك القوط الشرقيين<sup>(٣)</sup> .

\* \* \*

وفي داكيا وصلت المسيحية إلى القوط الغربيين وكذلك إلى بعض الشرقيين في أوكرانيا<sup>(٤)</sup> على يد المبشر القوطي أوليفلاس — Ulphilas — ( ٣١١ — ٣٨٠ م )<sup>(٥)</sup> . ويرجع هذا المبشر إلى أسرة يونانية الأصل كانت تقيم في إقليم قبادوقيا بآسيا الصغرى ، حيث وقع جده القبادوقى أسيراً في يد القوط حين غزوا آسيا الصغرى ونهبوها عام ١٦٧ م . وولد أوليفلاس في المنطقة التي كان يقيم

(١) أنظر ما سبق ص ٣٦ حاشية ١ .

(٢) قامت امبراطورية القوط الشرقيين على حساب عنصر السارماتيين الإيراني ، وهو الذي كان قد حل بدور عل السكيثيين ( Scythians ) الإيرانيين كذلك ، شمال الذنوب حتى نهر دنيستر ، وذلك منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، فانحاز السكيثيون إلى الأطراف عند نهر الدن ( Tanais ) ، وإلى شبه جزيرة القرم ، نوات عزوات السارماتيين حتى القرن الأول الميلادي وعندما جاء القوط ، انحاز هؤلاء السارماتيون إلى بلاد الامبراطورية الرومانية لاجئين ( Bradley, pp. 38 - 9, 43 - 4; Lot, pp. 50 - 2 Hodgkin, I, p. 76 ; C. med. II. IV pp. 183 - 4 ) .

(٣) Hodgkin, I, pp. 400 - 2; Bradley. pp. 39, 43 - 6

(٤) Thomp , 45; Lot, p. 170

(٥) كتب اسم أوليفلاس بأوضاع مختلفة منها : Vulfila, Ulphilas, Wulfila : ومعنى هذه التسمية : الذئب الصغير ، ( Lav. et Ramb. I, p 50 ) .

بها القوط حوالى عام ٣١٠ أو ٣١١ م ، وأسماء أبواه اسمًا قوطيًا ونشأه على النظام القوطى ، وعلى أثر هزيمة القوط أمام الامبراطور قنسطانطين الأكبر ، عقدت محالفة بينهم وبين الامبراطورية البيزنطية عام ٣٣٢ م ، وقدم أوليفلاس ضمن السفارة القوطية إلى القسطنطينية لمفاوضة الامبراطور قنسطانطين فى شروط الصلح ، ليتولى أمر الترجمة إذا كان يجيد الأغريقية بجانب القوطية ، وربما كان سبب مجيئه إلى بيزنطية أمراً آخر غير هذه السفارة ، فقد قيل إنه كان من ضمن الرهائن الذين بقوا فى بيزنطة لضمان تنفيذ المعاهدة ، وأيا كانت العلة فى وجوده بالقسطنطينية ، فإن أوليفلاس أقام بهذه المدينة فترة من الزمن حيث تعلم وتثقف بالثقافة الاغريقية كما درس اللاتينية<sup>(١)</sup> .

ولكن أوليفلاس قام بدور يشبه إلى حد ما قام به النبي موسى عليه السلام ، فرغم أن موسى تعلم حكمة المصريين وتربى فى بلاط فرعون ، فإنه عمل على انقاذ قومه وهدايتهم إذ لم يقبل أن يعيش رافها مهذباً وقومه فى ضلال وبؤس . ولسنا نعلم بالضبط ، هل كان أوليفلاس يعتنق المسيحية قبل وصوله إلى القسطنطينية أم لا ؟ والمؤكد أن المسيحية كانت قد وصلت إلى نفر قليل من القوط قبل عهد أوليفلاس تحمس أوليفلاس للمسيحية ورغب أن يكون رسولها بين قومه . صار قسيساً فى بيزنطة ( Reader, Rector ) عام ٣٤١ ، وحين بلغ سن الثلاثين قرر مجمع انطاكية الدينى بارشاد ايزوب — Eusebius — ( ٢٦٠ — ٣٤٠ م )<sup>(٢)</sup> رئيس الحزب المعارض للبطريق الاسكندري اثناسيوس ، تعيين أوليفلاس أسقفا ومبشرا بين القوط المقيمين شمالى الدانوب<sup>(٣)</sup> .

---

(١) Hodgkin, 1, pp 80-1; Bradley, p. 57

(٢) Barker (F.): From Alex. to Constantine, pp. 472 - 80

(٣) Bradley, pp. 57 - 8; Lot, p. 38; Deanesly, pp. 26 - 7; Hodgkin,

1, p. 81; Lav, et Ramb., 1, p. 60



ظل أوليفلاس نحو سبع سنوات ينشر المسيحية بين القوط في اقليم داكيا حيث كثرت أتباعه رغم اضطهاد ملكهم اثاناريك للمسيحية ولما اشتد اضطهاده كتب أوليفلاس إلى الإمبراطور قسطنطيوس (٣٣٧ — ٣٦١ م) يطلب منه أن يمنح القوط وطناً داخل الإمبراطورية للخلاص من هذا الاضطهاد فاستجاب له الإمبراطور وجاء أوليفلاس مع بضعة آلاف من القوط المسيحية وعبروا الدانوب واستقروا قرب نيقوبوليس في مؤسيا عند سفح جبال البلقان فكان هذا الفريق من القوط سباقاً إلى الدخول في المسيحية والتحمس لها؛ وأعجب قسطنطيوس بأوليفلاس حتى كان ويتحدث عنه دائماً باسم (نبينا، ومسي الثاني) — (Our second Moses) ظل هذا الفريق الموادع من القوط المسيحيين يقيمون في تلك المنطقة عدة قرون في هدوء يزرعون أرضهم ولا يشتركون في الحروب العنيفة التي تدور حولهم ، ونظراً لبعده صيت أوليفلاس في مهمة التبشير صار يعرف باسم رسول القوط أو حوارى القوط — (Apostle of the Goths) كما أطلق عليه جوردين (Jordanes) المؤرخ القوطى في القرن السادس الميلادى : القسيس والمطران (Priest & Primate)<sup>(١)</sup>.

ويلاحظ أن جميع القوط المسيحيين لم يغادروا داكيا مع أوليفلاس ، بل بقي عدد كبير منهم ، وازداد عدد المسيحيين بالتدريج ، حتى أنه حوالى عام ٣٦٩ م قرر اثاناريك اتخاذ اجراءات اضطهادية ضدهم ، ولا سيما وأن منافسة فريتهجرن<sup>(٢)</sup> كان مسيحياناً أو يميل إلى المسيحيين ، ولما غادر اثاناريك البلاد وذهب إلى مرتفعات ترانسلفانيا ، لم تسكن هناك ثمة مقاومة في سبيل انتشار المسيحية ، وفي سنوات قليلة تحول جميع القوط الغربيين والشرقيين على السواء إلى المسيحية<sup>(٣)</sup>.

---

(١) Deanesly, pp. 26 - 7; Pirenne (H.) p. 25 Hodgkin, 1, p. 83

(٢) عن اثاناريك وفريتهجرن أنظر ما يلي ص ٤٨ وما يليها .

(٣) Hadrill, pp. 21 - 23, Hodgkin, 1, p. 81; Bradley, p. 58

كانت المسيحية التي اعتنقها أوليفلاس ونشرها بين القوط ، على المذهب الأريوسى نسبة إلى أريوس ( Arius ) الاسكندرى ( ت ٣٣٦ م ) الذى كان أول من أثار الجدل حول طبيعة المسيح ، وقرر بأن المسيح وإن اتصف بالآلوهية إلا أنه مخلوق بأمر الآله الأب وهو لذلك أقل مرتبة منه ، ورغم ما ظفرت به هذه العقيدة من تأييد وخطوات رسمية بسبب تعضيد الأسقف ايزوب — مستشار الامبراطور قنسطنطين الأكبر ، فإن مجمع نيقيا قد استنكرها فى المجمع المسكونى الذى عقد عام ٣٢٥ م <sup>(١)</sup> .

أما نتائج اعتناق القوط للمسيحية الأريوسية من الوجهة السياسية ، فلم تظهر إلا فيما بعد <sup>(٢)</sup> وحسبنا أن نقول إن الأريوسية كانت كرهية للأمبراطورية البيزنطية والكاثوليكية الرومانية ، وأعق أثرًا فى تفكك الدول الجرمانية التى دانت بها ، من الاختلاف الجنسى أو الثقافى أو الحضارى بين الرومان والبرابرة .

على أن أهم ما قام به أوليفلاس بعد التبشير بالمسيحية هو ترجمة الإنجيل إلى اللغة القوطية التى يجيدها ، وتدريب عدد من القوط ليخلفوه فى مهمته الدينية بين قومه . قضى جزءاً كبيراً من حياته فى ترجمة الإنجيل ، وكان للقوط حروف أبجدية وكتابة بلغتهم ، لكنه كتب هذه الترجمة القوطية بحروف إغريقية كبيرة كما كان المؤلف فى كتابة الكتب حينئذ ، وفى حالة الأصوات القوطية التى يصعب التعبير عنها بالحروف الأغريقية ، عبّر عنها أوليفلاس فى ترجمته بالحروف القوطية ، مع تغيير أشكالها حتى تبدو متفقة إلى حد كبير مع الحروف الأغريقية <sup>(٣)</sup> .

---

(١) راجع فيشر : ( ترجمة الدكتور زيادة والدكتور الباز ) ج ١ ص ١٧ — ١٨ ؛ Hodgkin, I, pp, 90 - 2 Encycl of Rel. Ethics, Vol. I, ; Lav, et Ramb., I, p, 61 Ant., "Arianism"

(٢) أنظر السياسة الدينية .

(٣) Hodgkin, I, pp, 84 - 86; Bradley, p. 61



وأقدم مخطوط للإنجيل المترجم إلى القوطية ، كتب بعد أوليفلاس بنحو ١٥٠ سنة ويحتمل أن أشكال الحروف قد تغيرت قليلا قبل هذا الوقت ، ولكن من السهل أن نرى الحروف الأبجدية القوطية هي نفس الحروف الأبجدية الأغريقية تقريباً مع إضافة ستة حروف جديد<sup>(١)</sup> ، وبذلك يكون قد أتم الحروف القوطية<sup>(٢)</sup> .

وتعتبر ترجمة أوليفلاس للإنجيل ترجمة جيدة بالنسبة للمصر الذي عمات فيه حين لم يكن من السهل في القرن الرابع ، على قوطى أن يجيد الأغريقية لدرجة تمكنه من فهم نصوص الإنجيل . والترجمة الدقيقة من لغة إلى أخرى تقتضى عقلية رشيدة دربت على التفكير الدقيق . ولكن توجد فقرات قليلة لم يستطع أوليفلاس أن يوضح فيها المعنى المقصود من أصل النص . فكثير من الكلمات التي وردت بالإنجيل ليس لها مقابل في اللغة القوطية نظراً لأنها تشير إلى أشياء أو حوادث تتعلق بالحياة الحضرية ، أو تشير إلى أفكار وآراء تمت إلى طرق التفكير المسيحية ، وهذه جد غريبة على عقول الوثنيين . ولكنى يتغاب أوليفلاس على هذه الصعوبة ، كان يترجم مثلاً كلمة كتابة ( Writing ) في الإنجيل الأصيل إلى كلمة تدل على معنى الرسم أو التصوير والتأشير ( Painting or marking ) في اللغة القوطية . وكلمة القراءة ( Reading ) إلى ما يدل على معنى الغناء ( Singing )<sup>(٣)</sup> .

وليس من المعروف على وجه الدقة مقدار ما ترجمة أوليفلاس من الإنجيل ، ذكر بعض المؤرخين القدماء أن أوليفلاس ترجم الإنجيل كله ما عدا سفر الملوك ( Book of Kings ) الذي تركه عمداً لأنه يعتقد أن قصص حروب بني إسرائيل

---

(١) Hodgkin, 1, pp. 84 - 5

(٢) Lav. et Ramb., 1, p. 60

(٣) Bradley, p. 62

من الخطورة قراءتها عند قوم تغلب عليهم النزعة الحربية<sup>(١)</sup> . وكذلك خشي من تأثير هذه الحروب على عقول القوط ، ويناقض هذا أن سفرى يوشع ( Joshua ) والقضاة ( Judges ) اللذين ترجمهما ، ربما كان لهما من الأثر في إشعال الروح الحربية والرغبة في الحرب أكثر مما يؤدي إليه سفر الملوك ، ويحتمل أن هذا التفسير الذى ذهب إليه المؤرخ القديم غير صحيح والراجح أن أوليفلاس مات قبل أن يتم ترجمة الأنجيل<sup>(٢)</sup> .

أما نهاية أوليفلاس ، فكانت بالقسطنطينية ، حين زارها عام ٣٨١ م بدعوة من الإمبراطور تيودسيوس الكبير ، وعند وصوله إلى العاصمة الإمبراطورية ، مرض ومات ، وكان تلميذه الذى خلفه في مهمته هو أوكسنتيوس ( Auxentius )<sup>(٣)</sup> .

هكذا كان انتشار المسيحية الأريوسية بين القوط ، أما كيف اتخذ الغربيون لهم طريقاً مستقلاً عن أشقائهم الشرقيين ، فلم يحدث هذا إلا بعد انحلال إمبراطورية القوط الشرقيين ، ومع ذلك فقد ظل التعاون والارتباط بينهما بشكل ما ، حتى بعد تأسيس دولتي القوط .

تخطت إمبراطورية القوط الشرقيين على يد الهون من المغول إذ انساحت جموعهم الكاسحة حوالى عام ٣٧٠ م بقيادة ملكهم الخان بالامبر ( Balamber )

---

(١) Lav. et Ramb., 1, p. 60

(٢) اكتشفت أهم نسخة من ترجمة أوليفلاس في القرن السادس عشر الميلادى في دير بمدينة ثردن ( Werden ) ، وتداولت هذه النسخة أيدي كثيرة ، حتى اشتراها السكوات حولاجاردى ( De La Gardie ) السويدى ودفع ثمنها غالياً عبارة عن كمية كبيرة من الفضة ، ولذا عرفت هذه النسخة باسم الكتاب الفضى أو المجموعة الفضية ( Codex Argenteus ) ، وهذه النسخة محفوظة الآن في مكتبة جامعة أوبسالا ( Upsala ) ، ويعد من أئمن ما تحويه مكتبات أوروبا ، فهو مكتوب بحروف من ذهب وفضة على ورق من الجلد القرمزى ، واكتشفت نسخة أخرى من هذه المخطوطة في القرن السابع عشر بألمانيا ، أما بقية النسخ الست ، فقد اكتشفت في إيطاليا منذ نحو قرن ( Bradley, pp, 63 - 4 ) .

(٣) Bradley, pp. 63 - 4; Hodgkin, 1, pp. 86 - 9



وحطموا في طريقهم امبراطورية الآلان الإيرانية التي كانت تمتد من جبال القوقاز وفي قلب آسيا حتى بحيرة آرال<sup>(١)</sup>. ولما هجز أرمانيك — اسكندر القوط الشرقيين — عن رد هذه الموجة المدمرة ، انتصر عام ٣٧٥ م بعد أن عمّر قرناً من الزمان .

ومن ثم انهارت امبراطوريته الواسعة ، فتفرق القوط الشرقيون إلى وحدات أربع :

١ — فريق لم يقبل الخضوع لسيادة الهون وهاجر بقيادة سافرا كس والأثيوس ( Safrax, alastheus ) ومعهما صبي يسمى Wido ( وهو من الأميرة الألمانية الشهيرة ، انتخبوه ملكاً عليهم وتوجهوا غرباً إلى الدانوب ، حيث انضموا إلى القوط الغربيين الذين كانوا قد سبقوهم<sup>(٢)</sup> .

٢ — فريق وجه إلى القوم وهو الذي أطلق عليه كتاب بيزنطة القوط الأغريق : ( Gotho-Grecs )<sup>(٣)</sup> .

٣ — فريق ثالث ظل بيلاده وانتخب له ملكاً هو ( Winithart أو winithaharys ) حفيد أخى أرمانيك ، وهذا الفريق تأثر حاول طرد الهون وقام بتخريب بعض البلاد الخاضعة للهون كما ارتكب كثيراً من الفظائع<sup>(٤)</sup> .

(١) تقيم بقايا عنصر الآلان اليوم — ويسمىهم العرب اللان — وسط جبال القوقاز ويعرفون باسم الأوستيين ( Ossètes )؛ وهو عنصر أشقر ذوقامة متوسطة ( Lot, p. 52 Lav, et Rame, I, p. 59 )

(٢) ( Freu (II, ) p. 26; Daanesly, p. 16, Lot, pp. 58, 9Ere, p. 58 )

(٣) Lot, p. 58

(٤) كان حفيد الملك وينثاري هو الذي تولى الملك على الفريق الرابع المسالم للهون ، حوالي عام ٤٤٠ م وذلك بإذن من ملك الهون . واسم هذا الحفيد ولامر Walamer غير أنه لم يلبث أن خرج على الهون حين ضعف أمرهم بعد موت ملكهم أتيل عام ٤٥٣ م واستطاع أن يهزم الهون . وكان له أخوان أشركهما في الحكم هما ودومر وثيودمر ( Widumer ) ( Theudemer ) وفي يوم النصر على الهون أنجب الأخ الأخير ثيودمر ولداً هو ثيودريك الذي اشتهر أمره فاجتمعوا على إيطاليا وأعظم ملوك القوط فأطبع ( Bradley, pp. 48 - 9 )

٤ — فريق رابع لم يتبرم بسيادة الهون وملك هذا الفريق هينمند ( Hunimund ) ، ابن أرمانيك ظل يعترف بسلطة الهون وحارب في جانبهم ضد الفريق الثائر<sup>(١)</sup> .

أما مصير القوط الغربيين الذين كانوا خلال النصف الأخير من القرن الرابع الميلادي جزءاً من الامبراطورية القوطية الشرقية ، ومن رعايا ارمانيك فانه منذ وضع خطر الهون وبدأ هجومهم وثارت الشعوب الخاضعة للقوط الشرقيين ، منح ارمانيك رعاياه من القوط الغربيين مزيداً من الاستقلال وحرية العمل فسمح لهم بتدبير جميع شؤونهم بأنفسهم حتى في المسائل الخارجية كإبرام المعاهدات أو شن الحروب ، من غير ضرورة لأخذ موافقة الملك ، وكانوا حينئذ ينقسمون إلى ثلاث قبائل على رأس كل قبيلة رئيس أو قاض ( Judox ) وهؤلاء القضاة هم الثلاثة أخوة<sup>(٢)</sup> . أثناريك وفريتجرن وألوي ( Athunario , Fritigern , Alawiw ) وكان أثناريك أقوى الثلاثة ، ويسدوان الإثنيين الآخرين قد سلما له بنوع الرئاسة العليا<sup>(٣)</sup> . بذل أثناريك جهداً كبيراً محاولاً طرد الهون ولكن فشله<sup>(٤)</sup> .

ورث زعيم القوط الغربيين منزلته وسلطته عن أبيه روتسيترز ( Rhothostous ) الذي عرف بإخلاصه للرومان حتى أنهم أقاموا له تمثالاً بالقسطنطينية ورغم ما عرف عن أثناريك من الشجاعة وقوة المراس في الحرب ، إلا أن شهرته ارتبطت بالخداع والمكر أكثر من ارتباطها بالشجاعة . رغب مخلصاً في المحافظة على سياسة أبيه في محالفة الرومان ، غير أنه ارتكب غلطة كلفته وقومه ثمناً غالياً ،

---

(١) Ibid, p. 47

(٢) Lav, et Ramb., 1, p. 61

(٣) Bradley, p. 50

(٤) Deanesly, p. 26



ذلك أن بروكبيوس<sup>(١)</sup> ( Paocoplus ) أحد أقرباء الإمبراطور فالنس ( ٣١٣ - ٣٧٨ ) خرج عليه وتمكن من طرده من العاصمة والاستيلاء على عرش الإمبراطورية فترة من الزمن ، طلب هذا المقتصب مساعدة حربية من القوط الغربيين بمقتضى المعاهدة معهم ، فأسرع أثاريك وأرسل إلى تراقيا قوة قوامها نحو ٣٠ ألف مقاتل ، اعترافاً منه بالأمر الواقع ، والملاحظ أنه لم يقدر الجيش بنفسه ، إبقاء للقسم الذى قيل إن أباه استصدره منه قبيل وفاته ، بعدم قيادة جيش ضد الرومان . وفى عودة هذه القوة القوطية خربت فى طريقها ولايات تراقيا ونهبها بموافقة الإمبراطور القائم ، وحينئذ وقع ما لم يكن فى الحسبان إذ جاءت الأنباء بمقتل بروكبيوس عام ٣٦٩ م وعودة فالنس إلى عرشه<sup>(٢)</sup> . وبدلاً من أن يكف القوط عن نهبهم ويطلبوا الصفح من فالنس ، تمادوا فى تخريبهم ، فلم يكن هناك بد من العمل على إيقاف هذا النهب ، وتمكنت الجيوش الإمبراطورية من قطع الطريق على القوط ومنع وصول التموين إليهم كما حالت دون عودتهم إلى الدانوب ، وضيق عليهم الحصار حتى أجبرتهم على التسليم من غير قيد أو شرط . لم يقتلهم الرومان وإنما استرقوهم وباعوهم كما سجنوا قوادهم فى أماكن نائية . وعندما وصلت أنباء هذه السكارثة إلى أثاريك بعث بسفرائه إلى القسطنطينية لاطالب الصفح والمغفرة بتواضع وصراحة ، بل ادعى سلامة النية وأن كل ما فعله القوط الغربيون إنما هو إيفاء بشروط المعاهدة المعقودة بينهم وبين الرومان واستدلوا على سلامة النية والسذاجة بمساعدتهم للإمبراطور الذى اتضح أنه كان داعياً ومن ثم طالبوا بإطلاق سراح أسراهم . اقتنع فالنس وكاد يصفح ، غير أنه حين استشار أخاه فالنتينيان

---

( ١ ) بروكبيوس سليل أسرة نبيلة من بيليقيا ( Cilicia ) بآسيا الصغرى ، وله سمعة عالية فى الخدمات المدنية والعسكرية على السواء ، قام بثورة انتهت بانتزاع العرش لفترة معينة ( Hodgkin, 1, pp. 139 - 44 )

( ٢ ) Ibid, p. 156

( ٣٦٤ — ٣٧٥ ) امبراطور القسم الغربى من الإمبراطورية ، نصحه بسرعة  
المهجوم على أثانريك فى بلاده ( داكيا )<sup>(١)</sup> .

لبي فالنس نصح أخيه وحارب القوط الغربيين لمدة ثلاث سنوات وانتصر  
فى أكثر المواقع ، ولكنه لم يكن انتصاراً حاسماً وانتهت الحرب بالصلح ،  
ووافق أثانريك المتحاذع على أن يقطع الجبل الذى كان يتقاضاه زعماء القوط  
من الرومان بشرط اعتراف الرومان به ملسكا على جميع القوط ، كما أن فالنس  
رأى أن تعدل الشروط عن طريق المقابلة الشخصية مع سيد القوط الذى بدا  
محترماً فى نظره ، فاعتذر أثانريك عن استحالة انتقاله عبر الدانوب بمقتضى  
القسم الذى أخذه أبوه عليه بالأيام الدانوب أو يبطأ أرض الرومان<sup>(٢)</sup> ، وفى نفس  
الوقت حدد باعتبار المعاهدة منقوضة إذا دخل فالنس أرض القوط فى داكيا ،  
واقترح أن تتم المقابلة فى زورق وسط نهر الدانوب ، وهنا نجد بعض الطرافة  
فى أن أثانريك تحاشى التعرض أو الإشارة إلى كل ما يدل على اعترافه بهزيمة  
أمام الرومان ، ولا بد أن فالنس قد شعر بأن البربرى يسخر منه ولستكنه لم يجرؤ  
على رفض الترتيب المقترح ، وقعت المعاهدة وأخذ الطرفان رهائن لضمان تنفيذها ،  
ومن ثم عاد فالنس ودخل عاصمته دخول الظافر فى احتفال مهيب ، حيث نعتته  
الخطباء بأنه « قاهر القوط » الثانى<sup>(٣)</sup> .

شغل أثانريك بعد ذلك فى اضطهاد المسيحيين الذين كثروا بين رعاياه<sup>(٤)</sup>  
كما انشغل فى حرب ضد منافسه فريتيجرن<sup>(٥)</sup> ، ولم يكد يأتى عام ٣٧٦ م  
حتى أنهى قضاء القوط أو زعمائهم ما بينهم من منافسة وتزاع ، ولما كان

(١) Bradley, pp. 52 - 3

(٢) أنظر ما يلى ص ٦٠

(٣) Bradley. p 54 ، أنظر ما سبق ص ٢٦ .

(٤) Hodgkin, 1, p. 177

(٥) Ibid, p. 183



أثاناريك هو المتولى للقيادة العامة لجيش القوط جميعهم ، فقد فوجئ ، وهو على غربي نهر الدنيستر بعبور الهون على ظهور خيولهم ومهاجمتهم له ، فلم يستطع الثبات أمامهم وفر ، وحينئذ أرسل زعيم القوط الآخرين : فريتيجرن ، وألوى ، في طلب الإذن من الإمبراطور فالنس ، لعبور نهر الدانوب ، إذ لم يعد باستطاعة القوط المقام في داكيا التي هددتها جميع الهون العنيفة ، وعيثا حاول أثاناريك في حمل قومه المدبرين على مقاومة الهون ، ولذا رحل مع فرقة من جيشه نحو مرتفعات ترانسلفانيا في الشمال الغربي ، واختفى عن مسرح الحوادث نحو أربع سنوات أو خمس<sup>(١)</sup> . وفي خلال هذه الفترة أضحي منافسه فريتيجرن الملك الفعلي للقوط<sup>(٢)</sup> .

انتظر القوط الغربيون الإذن من فالنس لعبور الدانوب ، فراراً من خطر الهون المحدث ، والذي يقترب منهم يوماً بعد يوم ، وكان فالنس في أنطاكيا مشغولاً بحرب الفرس<sup>(٣)</sup> ، حين استقبل قصاد القوط من قبل فريتيجرن ، شرح له هؤلاء القصاد مدى خطورة الهون ووعده بأن يكونوا من رعاياه الخاصين إذا منحههم وطناً في تراقيا عبر الدانوب ، وكان لا بد من الإجابة بنعم أولاً في ذلك الظرف الدقيق ، ليس هناك فرصة للتردد أو المشاورة ، تردد بعض مستشاري فالنس في السماح لهم لما قد يكون هناك من آثار سيئة قد لا تسكون واضحة في ذلك الوقت ، على حين رأى البعض الآخر أن هناك فائدة كبرى في الإذن لهؤلاء ، وذلك لحاجة الإمبراطور إلى الرجال ، وهذه فرصة سانحة لإضافة نحو مليون من الرعايا في لحظة عين ، انتهى الأمر بالموافقة ، وصدرت الأوامر إلى حكام الرومان عند الدانوب بعمل ما يلزم لنقل القوط عبر النهر ، وسرعان

---

(١) أنظر ما يلي ص ٦٠

(٢) (Freighton, p.117; Gibbon, III, p.380 Bradley p.55)

(٣) Pirenne (H.) pp. 26 - 7; Lot, p. 59

ما تجمت القوارب وبدأ النهر يمج بأعدادهم الزاخرة ، المتحجرة لا عبوز أمام خطر الهون حتى أن بعضاً منهم قد غرق في النهر لشدة الازدحام ، وامل في هذا ما يشبه حين تزاحم أهل بغداد على عبور الدجلة أمام خطر المغول في القرن الثالث عشر فيما بعد ، استمروا يعبرون النهر عدة أيام أمام سحابة الجماهير وحراس الخنود ، عبر القوط بنسائهم وأطفالهم وسائمتهم ، ولما كان عدد القوارب غير كاف أمام هذه الجموع المتهاقنة ، فقد استخدمت الألواح الخشبية السميكة والقرباب المنفوخة وكذلك البراميل ؛ حاول الرومان تعدادهم أثناء العبور فلم يتمكنوا<sup>(١)</sup> ، فهذا شعب بأكمله يهاجر ، تم ذلك في ربيع عام ٣٧٦م واستقروا بموافقة فالنس في منطقة دورستورم (Durostorum) وهي في مؤيسيا السفلى أو بلغاريا الحديثة ، وعين فريتجن ، ملك القوط الغربيين ، قائداً في الجيش الروماني حتى يشعر زعيم القوط بأن له صفة رسمية في الإمبراطورية<sup>(٢)</sup> . لم يكبد القوط الغربيون يستقر بهم المقام كما هدين في هذه المنطقة حتى بدأوا يتبرمون من سوء المعاملة التي لقوها على أيدي الرومان ، ولا سيما وقد جاءتهم الأنباء بأن أطفالهم سوف ينتزعون منهم كرهائن ، ويوضعون في أماكن نائية بالإمبراطورية ، لأن الرومان رأوا اتخاذ مثل هذا التدبير لكي يحملوا القوط على الهدوء وعدم الإخلال بأمن الإمبراطورية ، وحينئذ بدأ القوط يفسكرون في الانتقام حين نفذ هذا التدبير .

على أن فالنس سرعان ما اكتشف غلطته الكبرى في السماح لهؤلاء بالإقامة في قلب الإمبراطورية ، فرأى اتخاذ إجراء آخر ليأمن شرهم ، وهو أنه أسر بتجريد الرعايا الجدد من سلاحهم ، إلا أن ثروة القوط التي جمعوها من

(١) قدرهم المؤرخ بيوري بنحوماتي ألف ( أنظر Bury (J.) : Hist. of the

( Later Rom. Emp 1, p. 104

Deanesly, pp. 26 - 7; Lot, p 59; Hodgkin, 1, p. 245; Gibbon, (٢)

III, pp. 380 - 382; Diehl : hist. generale. pp. 5-6



منهوباتهم السابقة مكنتهم من رشوة الموظفين الرومان حتى تركوا لهم أسلحتهم ،  
كذلك أمر الإمبراطور بتوزيع القوط في فرق مختلفة وفي جهات مختلفة .

وفي هذا الوقت وصل فريق القوط الشرقيين الذي لم يقبل الخضوع لسيادة  
الهون ، وهذا الفريق بقيادة سافراكس والأثيوس ، وعند الدانوب التمسوا من  
فالنس السماح لهم بعبور النهر ومنحهم ملبأ ، فرفض الإمبراطور حتى لا تتضاعف  
مشاكله ، غير أن القوط الشرقيين لم يستجيبوا لهذا الرفض ، وعبروا الدانوب  
من أماكن خالية من الحراسة ، وتابعوا سيرهم لينضموا إلى أشقائهم الغربيين<sup>(١)</sup> .

ورغم التوصيات الصادرة من الإمبراطور فالنس بحسن معاملة القوط وعدم  
المغالاة في بيع المواد الغذائية اللازمة لهؤلاء المعاهدين ، حتى يتمكنوا من الزراعة  
والإنتاج ، فإن تصرفات الحكام الرومان ، كانت أسوأ الحظ الوقود المباشر  
لإثارة القوط. ودفعهم للخروج على شروط المعاهدين فضلا عن عدم رضائهم عن  
الشروط التي فرضت عليهم ، فمثلا تطرف حاكم تراقيا وهما : ليبسكنوس  
وماكسيموس ( Lupitinus & Maximus ) واستغلا حاجة القوط للمواد  
الغذائية إذ وجدوا في محنتهم فرصة للأثراء ، فاحتكرا شراء هذه المواد من  
المنتجين بأرخص الأسعار وباعوها للقوط بأثمان خيالية ، لدرجة أن كان القوطي  
يدفع عبداً من عبيده ثمناً لرغيف الخبز الواحد ، أو عشرة أرطال من الفضة نظير  
الحصول على ماشيه للذبح ، وغالباً ما أجبر القوط على أكل لحوم الكلاب<sup>(٢)</sup> .

لم يحتمل القوط الصبر على هذا الوضع ، فقرروا الخروج على الرومان. والثورة  
على فالنس<sup>(٣)</sup> ، وربما كان ذلك يتشجع من الهون الذين حرضوهم<sup>(٤)</sup> ، ولم يكن

---

Pirenne ( II. ) d 26; Lot, pp. 58 - 9; Eyre, p. 24; Bradley, (١)

pp. 65 - 67; Deanesly, p 26

Hodgkin, 1, pp. 254-6; Bradley, pp 67-8; Gibbon, III, pp. 385-6 (٢)

Moss, pp. 44 - 5 (٣)

Deanesly, p. 26 (٤)

القوط بحاجة كبيرة إلى من يثورهم ، وسرعان ما عبروا جبال البلقان عام ٣٧٧م) ودخلوا تراقيا ومقدونيا فهرب قائد الحامية ليبكنوس — سالف الذكر — ولجأ إلى مدينة مارقيان قرب قارنا ، وحينئذ قرر فالنس مغادرة آسيا الصغرى ، وعاد في صيف عام ٣٧٨ إلى عاصمته حيث قوبل أسوأ استقبال بسبب تلك الغلظة الشائنة . ولذلك عول على إصلاح ما أفسد ، بأن يقوم بنفسه على رأس جيش لمهاجمة القوط ، وزاد في حماسه أن الناس أخذوا يعيرونه بما فعل ويقارنون موقفه المتخاذل من موقف زميله في الغرب وهو جراتيان بن أخيه فالنتيان الذي أدرك خطورة الحال وعمل على متابعة نشاط أبيه ، فهزم الجرمان عند الراين ، ثم هبط إلى الدانوب لينتقذ البلقان من خطر القوط ووصل في تقدمه إلى سرميوم عاصمة الليريا في صربيا<sup>(١)</sup> ، أما فالنس فقد أسرع ووصل إلى أدرنة وقاد الجيش الذي يعسكر حول أسوار هذه المدينة ، وبينما هو في مجلسه الحربى مع قواده يناقش الخطط جاءه رثومر ( Rithomer ) أحد قواد جراتيان موفداً من قبل سيده ليطلب إلى فالنس التريث حتى يصل جراثيان بجيشه ، غير أن التمتاعين من قصار النظر ، القوا في روع فالنس ألا يتيج الفرصة لقسيمة الغربى في أن يشاركه مجد الانتصار على القوط ، والرأى عندهم أن يبادر هو بالدخول في المعركة والانهاء منها قبل وصول جراتيان ، ولم يرق هذا الرأى في نظر أعظم قواد الامبراطورية وهو سباستيان ( Sebastian ) ، قائد المشاة في الجيش الرومانى ، كما فنده فيكتور ( Victor ) السارماتى<sup>(٢)</sup> قائد الفرسان ، وحينئذ وصل قسيس مسيحى — يشك في أنه أوليفلاس — جاء في وفد من القوط من قبل فريتهجرن وعرض على فالنس المفاوضة في الصلح بشرط اعتراف الامبراطور بامتلاك القوط لتراقيا . وهذه هى الرسالة الرسمية<sup>(٣)</sup> ، التى لا بد وأن تكون قد صدرت بموافقة

(١) Deanesly, p. 26; Perroy, p. 11; Lot, p. 91

(٢) Lot, p. 61 أنظر ما سبق من ٨ حاشية ه



جمعية القوط . وهناك رسالة خاصة سرية ، أبلغها القس إلى الإمبراطور ومؤداها أن فريتيجرن يخشى ألا يحافظ القوط على ولائهم للرومان إذا ما أُجيبوا إلى طلبهم في يسر ، ولذا فهو ينصح الإمبراطور بأن يتظاهر بالقوة حتى لا تبدو سرعة موافقته دليل ضعف أو خور ولكن الرسل عادوا من غير إجابة .

وفي صباح ٩ أغسطس من عام ٣٧٨ م أودع ثلثس أمواله داخل أدرنه . وخرج لا يلوى على شيء معتزماً مهاجمة القوط الذين يعسكرون على مقربة منه ، وكان جيشه مفسكاً تبلغ عدته عشرة آلاف مقاتل ، وبعد مسيرة نحو ثمانية أميال تحت أشعة الشمس المحرقة لاحت له مطالع عربات القوط التي يتحصنون وراءها ، فرتب صفوف جيشه واستعرضه استعداداً للمركة ؛ فوجىء القوط بهذه المباغة فصاحوا صيحة تصم الأذان وهم ينشدون نشيدهم الحربي ، كما دت لهم لبث الشجاعة قبيل المارك ، أما فريق القوط الشرقيين فلم يكن قد وصل إلى أشقائه بعد ، إذ كان على بعد عدة أميال من ميدان المركة ، بحثاً عن النهب والسلب ، فأرسل إليهم فريتيجرون يستدعيهم على عجل ، ولكي يعمل فريتيجرن على تأجيل بدء المركة حتى يصل أشقاؤه ، اصطنع الخيلة والدهاء ، وأرسل إلى الرومان يطلب إليهم الدخول في مفاوضات على قاعدة تسليم القوط ؛ نجحت الخديعة ووافق الرومان على أن يبعث القوط من قبلهم وفدًا من كبار القوط ، فأجاب فريتيجرن بأنه يرغب في الحضور بنفسه بشرط أن يرسل الرومان بعض كبار الضباط إلى المعسكر القوطي كرهينة ، حينئذ فرح الرومان ، وبدأوا يتناقشون فيمن يقع عليه الاختيار ، ولما وقع الاختيار على التربيون ماكويديوس ( Equitius ) رئيس حرس القصر وقريب الإمبراطور ، أبى وأصر على عدم القيام بهذه المهمة المخوفة بالخطار ، وحبته في ذلك أنه سبق أن وقع مرة أسيراً في يد البرابرة واستطاع الهروب منهم لسكنه لا يدرى ما يفعل به لو عاد إليهم ثانياً ، وحسم النزاع حين تقدم رتشومر متطوعاً للقيام بهذه المهمة ، ورتشومر هذا

هو رسول جراتيان . وخلال هذه المناقشات الطويلة ؛ كان الجنود الرومان قد شعروا بالتعب والإرهاك نظراً لوقوفهم تحت أشعة الشمس مدة طويلة ، حتى أصابهم الجوع والظما ، على حين كان القوط في معسكراتهم .

وبينما كان رتشومر في طريقه إلى المعسكر القوطي أستدعى ثانياً ، إذ لم تعد هناك حاجة لذهابه ، لأن المعركة قد بدأت فعلاً بسبب طيش الفرقة الأيبيرية<sup>(١)</sup> المنضمة للجيش الروماني فهذه قد سئمت طول الإنتظار وقامت بهجوم على العدو من غير انتظار أمر الإمبراطور فأبيدت عن آخرها . كانت هذه الفرقة بقيادة با كوريوس الأيبيري ( Baourius )<sup>(٢)</sup> وفي ذلك الوقت وصلت فرق الفرسان من القوط الشرقيين ، حينئذ أمر فريتجنر بدق الطبول إيذاناً بالمعركة وحمل القوط حملة عنيفة ، شهبها بعض المعاصرين بالصاعقة ، فشتتوا شمل فرسان الرومان ، وأحاطوا بالرجال وضيقوا عليهم بحيث لم يستطيعوا استخدام أسلحتهم لشدة التصاقهم ببعض ، فذبحوا بالآلاف وقتل الإمبراطور ، وظلت المذابح قائمة في الجيش الروماني ولم يوقفها إلا ظلام الليل ، وبقي القوط في ميدان المعركة لعدة أيام بعد انتهاء الموقعة وهم ينهبون للموتى دون أن يجرؤ أحد من الرومان على التقدم للبحث عن جثة الإمبراطور<sup>(٣)</sup> .

تلك هي كارثة أدرنة ، وتعد في تاريخ السكوارث المدمرة التي حلت بالإمبراطورية الرومانية ، الثانية بعد دبروجه<sup>(٤)</sup> ، وإن كانت فظاعة أدرنة

---

(١) الأيبيريون ( Iberians ) سكان مقاطعة إيبيريا الأسيوية بين البحر الأسود وبحر قزوين ويحتمل أن هذه المنطقة كانت تابعة للفرس ثم أخضعها الرومان ( أومان : الامبراطورية البيزنطية ) ترجمة الدكتور طه بدر ( ص ١٩٠ حاشية ١ ) .

(٢) Gibbon, III; p. 404

(٣) Lot, pp. 60 - 61; Pirenne ( H. ), p 27; Bradly, pp. 71 - 74;

Encycl. Brit., Hodgkin, I, pp 271, Lav. et Ramb., I, p. 61 Gibbon, III, pp. 401-404

(٤) أنظر ما سبق ص ٣٧ .



تفوقها ، فقد خسر الرومان ثلثي الجيش وصفوة القادة من مختلف الرتب أمثال سباستيان وتراجان وأكويتيوس وفالريان ، و٣٥ آخرين من رتبة السكولونيل أو التربيون ( Tribuni )<sup>(١)</sup> .

أردف القوط بعد هذه الواقعة بالتقدم نحو القسطنطينية وهاجموها بمنف وكادوا يقتحمونها لولا ظهور فرقة من الفرسان العرب ، كانت تعمل في الجيش الروماني ، قامت هذه الفرقة العربية بهجوم خاطف مضاد زلزل مواقع أقدامهم وألقى العرب والفرز في قلوبهم ؛ وبما أفزع القوط ذلك المنظر الذي هالهم ، إذ رأوا أحد فرسان العرب وهو يرمي على فرسته بمن من قتل القوط ، وأخذ يشرب دمه فأيقن القوط أن القتال مع مثل هؤلاء ضرب من التهور والحق ، ومن ثم خارت قواهم فتراجعوا ورفعوا الحصار عن العاصمة وعادوا محملين بما نهبوا ، وأجاب الرومان على هذه السكارثة خلال السنتين اللتين تلتا الواقعة ، بإقامة مذبحه شنعاء في أبناء القوط من الشبان الذين كان الرومان قد أخذوهم رهينة ، عند السماح للقوط بعبور الدانوب ؛ وكان هؤلاء الشبان يقبضون في ولايات آسيا الصغرى ، أبدى الشبان القوط نوعاً من التبرم والتمرد على سادتهم من الرومان على أثر وفاة أدرنه ، فأصدر يوليوس ( Julius ) وزير الحرب الروماني ، وهو الذي تولى أمر الإمبراطورية غداة مقتل قانس وقبيل انتخاب خلف له ، أصدر أمره إلى حكام آسيا الصغرى بتفويض من السناتو ، بأن يستدرج هؤلاء الرهائن إلى المدن حيث يحاط بهم في الأسواق العامة ويذبحون عن آخرهم . نفذت هذه الجريمة البشعة التي أساءت إلى سمعة الرومان مهما كان الدافع عليها<sup>(٢)</sup> ومهما يكن من أمر الانتقام الروماني ، فإن كارثة أدرنه بانّت من القضاة ما حمل المؤرخ اللاتيني المتأخر ( Ammianus Marcellinus ) على أن يمسك

---

(١) Hodgkin, I, pp. 274 - 75, Bradley, p. 75, Lot, pp. 61 - 62

(٢) Gibbon, III, pp. 411 - 12, Bradley, pp. 76 - 9

عن ذكر تفاصيلها ؛ فجاءت أنباؤه عنها غامضة مبهمه وهى وقفة حسرة وألم يشبه تلك التى وقعها المؤرخ الإسلامى ابن الأثير حين أزال المغول دولة خوارزم شاه عام ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) .

أما المؤرخ الانجليزى جيبون ( Gibbon ) فقد كان أحد الأوائل الذين لحوا فى وقعة أدرنة عام ٣٧٨ م ؛ نقطة تحول هامة فى التاريخ ، على حين كتب المؤرخ ( الفرنسى ) فيكتور ديري ( V. Dury ) فى تاريخه عن الرومان عند حديثه عن هذه الواقعة : « لم يبق شئ من روما ، لقد اختفت عقائدها ونظمها المدنية والحزبية ، وكذا فنونها وآدابها ، وبدأ الغزو والقهر . وصل فريجنون حتى أسوار القسطنطينية ، وبعد سنوات قلائل استولى ألابريك على روما »<sup>(١)</sup> كان لهذه المأساة أثرها البالغ فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية الشرقية وفى مدنياتها بوجه خاص وفى تاريخ البرابرة ومستقبلهم بوجه عام ، ولو كان القوط يجيدون فن استغلال الفتوح والنصر ، لاستطاعوا بهذه الواقعة أن يطووا صفحة الإمبراطور الشرقية قبل أختها الغربية ، غير أنهم فشلوا فى الإفادة من هذا النصر الساحق .

هذا وتعتبر كارثة أدرنة نكبة حربية ؛ إذ لم يستطع الرومان بعدها أن يحشدوا جيشاً قوياً يمكن الاعتماد عليه فى قهر البرابرة ، ثم هى من جانب آخر بداية جدية لفترة الصراع والحروب التى تلاشت بعد ذلك وملأت تاريخ العصور الوسطى ، وتتميزت بالعنف ، كما أضحت فرق الفرسان الثقيلة العامل الحاسم فى تلك الحروب ، وتلك حقيقة واقعة ظلت قائمة حتى القرن الرابع عشر الميلادى<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

---

(١) Lot, p. 61

(٢) Moss, p. 45



بمقتل فالنس في أدرته ، أضحت جراتيان حاكم الغرب ، الإمبراطور الوحيد على الرومان ، غير أن الأمور قد جرت منذ نحو قرن على أن الإمبراطورية لا يمكن إدارتها بواسطة إمبراطور واحد ، فاضطر لاختيار قسيم له في السلطة ، وأجبر على أن يكون هذا القسيم هو القائد الروماني والأسباني المولد تيودسيوس ، ولعل تردد جراتيان في اختيار تيودسيوس ، قسما له ، يرجع إلى أن أباء تيودسيوس وسميه ، كان قد اشتهر أمره ونبه ذكره كحاكم في بريطانيا وأفريقية ، فرأى جراتيان فيه منافسا خطيرا في مطلع حكمه ومن ثم تخاضع منه بأن أجبره على الانتحار ، وبمجرد وقوع كارثة أدرته قام حزب ينادى بتولية تيودسيوس الابن ، فتم اختياره وأعلن أغسطساً في سيرميوم في ١٩ يناير ٧٣٦ م<sup>(١)</sup> .

ومن حسن طالع الإمبراطورية الرومانية أن كان تيودسيوس هو خليفة فالنس ، فهو يختلف في مشاعره عن يوليوس وزير الحرب الذي دبر الأمور قبل انتخاب تيودسيوس .

رأى تيودسيوس أن يعيد شيئاً من سمعة الإمبراطورية الحربية قبل أن يدخل في مفاوضات القوط ، حتى يلقي عليهم درساً يجعلهم يعترفون بأن الإمبراطورية لم تمت ، وأنه لم يزل يخش بأسها ، فأسرع بإعادة تنظيم جيشه وإعادة الروح المعنوية له ، وذلك في الوقت الذي كانت همه القوط فيه قد ثبطت ، وتفككت وحدتهم بسبب النزاع الذي دب بين صفوفهم ، ومغادرة بعض القوط وانضمام هذا البعض إلى الرومان ، إذ كلما شعر أحد من من كبار القوط ، بإهانة تلحقه من قبل فريتهجرن ، فارقه وانضم إلى الرومان ، وتيودسيوس خلال ذلك يرحب بهم ويغدق عليهم الجوائز والمناصب . من هؤلاء القادة القوطي المظفر موداهاري ( Modahari ) الذي عين قائداً في الجيش الروماني وإليه يرجع الفضل في إحراز

أعظم انتصار ظفرت به الإمبراطورية في تاريخ وقائعها الحربية<sup>(١)</sup> .

مات فريتيجرن خلال عام ٣٧٩ م ، وبعد ذلك ظهر أثناريك مره أخرى وعبر الدانوب ، ولسنا ندرى كيف استجاز لنفسه أن يحنث في يمينه الذي أقسم بعدم عبور الدانوب<sup>(٢)</sup> ؛ لكن يرجح أن اعتراف أغلب القوط بزعامته هو الذى دفعه إلى ذلك ، ولا سيما بعد وفاة فريتيجرن .

وأول عمل قام به هو الاتفاق مع الرومان ، فدخل في مفاوضة مع الإمبراطور تيودسيوس الذى دعاه إلى القسطنطينية ، فتوجه إلى العاصمة حيث استقبل بحفاوة ، وهناك أخذت مظاهر العاصمة ومباهجها بلبه ، حتى قال إنه كثيراً ما سمع بعظمة القسطنطينية لسكنه لم يكن باستطاعته أن يتصور أو يصدق إلا بعد أن شهدا بنفسه وأن الإمبراطور بدا فى نظره إلهاً يمشى على الأرض ، ومن يجرؤ على الخروج عليه فهو مذنب جزاؤه الإعدام . على أن إقامة أثناريك لم تطل بالعاصمة فقد مات فى يناير عام ٣٨١ م ، واحتفل بدفنه<sup>(٣)</sup> .

وانتهت المفاوضة بمقد معاهدة فى أكتوبر عام ٣٨٢ م بمقتضاها أقرت الإمبراطورية القوط على الإقامة فى منطقتى مؤيسيا وتراقيا بوصفهم معاهدين ( Foederati ) بالإضافة إلى منطقة بانونيا<sup>(٤)</sup> التى تنازلات عنها الإمبراطورية لهم قبل ذلك بعامين<sup>(٥)</sup> .

---

(١) الإشارة هنا إلى الانتصارات التى ظفر بها الإمبراطور تيودسيوس عام ٣٧٩ م على شراذم القوط الغربيين الذين تفرقوا ينجربون وينهبون فى مدن تراقيا عقب واقعة أدرنة ، وموداهارى هذا سليل ملوك القوط ، والترب أنه على المذهب الأرثوذكس ، خدم الإمبراطورية الرومانية وأخلص لها ( Bradley, pp. 79 - 80, Hodgkin, 1. pp. 301 - 303 ) .

(٢) أنظر ما سبق ص ٥٠ .

(٣) Gibbon, III, p.423 Lot, p.64; Bradley, p.80; Hodgkin, 1, pp.308-309

(٤) تقع هذه المنطقة شرق فينا وشمالى بلفراد الحالية .

(٥) Lot, p. 62



وبعد وفاة أثاناريك بخمس سنوات عادت فرقة القوط الشرقيين التي كانت بقيادة سافرا كس والاثيوس ، ولسكنها الآن بقيادة زعيم جديد هو أوداثيوس ( Andathaeus ) ،

عادت هذه الفرقة إلى منطقة داكيا بعد أن نهبت شمالى ألمانيا وغربها ، وحاولت عبور الدانوب للدخول في تراقيا ، غير أن الرومان هجموا عليهم أثناء عبورهم وشتموهم قتلا وتفريقا ، ومن نجح في الإفلات والعبور إلى الشاطئ الآخر سلم للرومان ، وبذلك صارت سلطة الإمبراطور تيوديسيوس مبسوطة على جميع العناصر القوطية المقيمة داخل الإمبراطورية<sup>(١)</sup>.

أدرك تيوديسيوس أن سياسة اللين والمواذعة أجدى على الإمبراطورية من سياسة العنف والقوة ، فقد وضح تماما أن القسوط الذين دخلوا الإمبراطورية بأعدادهم الكثيفة لم يتراجعوا قط ، لذا لم ير بأسا من إعطاء القوط الشرقيين منطقة فريجيا بآسيا الصغرى ليقموا فيها ، كما أقر أشقاءهم الغربيين على الإقامة في البلاد التي استقروا فيها ؛ وأمر بإمدادهم بالقمح والماشية كما سمح لهم بحكم أنفسهم وفق قوانينهم الخاصة وأن يكون لهم جيش قائم بذاته ومنفصل عن الجيش الرومانى ، له قيادته الوطنية تحت اسم « حلفاء » ( socii ) وفضلا عن ذلك فقد أعاد عليهم الرواتب الضخمة وعين بعض نبلائهم في المناصب العليا<sup>(٢)</sup>. ومثل هذا الوضع الذى آل إليه أمر القوط الغربيين وبعض الشرقيين ، يختلف عن غيرهم من القبائل الجرمانية التي تغلغلت في أراضي الإمبراطورية الرومانية مثل عنصرى الشامانيين ، والماتوريين ( Chamaves & Hanttuariens ) وهذان العنصران من فروع الفرنجة ، استقرت هذه القبائل ، وآثرت الاندماج

---

(١) Hodgkin, 1, pp. 320 - 323

(٢) Hodgkin, 1, pp. 311 - 313, Lot, p. 81

في المجتمع الروماني حيث تفرغت لزراعة الأرض التي حصلت عليها ، وخضعت للقوانين الرومانية كما استعملت اللغة اللاتينية الدارجة<sup>(١)</sup> .

ظل القوط على عهدهم وولائهم للإمبراطورية خلال عهد ثيودوسيوس ، رغم وجود بعض التذمر بينهم ، لكن المحقق أنه طالما كان ثيودوسيوس على قيد الحياة فقد بقي القوط على طاعته أو ما يقرب من الطاعة ، وساعدوه في حروبه التي انتصر فيها على منافسيه ، ومن أبرز قواده من القوط الغربيين جايناس (Garnas) والأريك<sup>(٢)</sup> ، وعرف عن ثيودوسيوس أنه كان شديد الحرص على موادعة القوط ، حتى أنه انتقم لمقتل بوثرريك (Botherio) الضابط القوطي بأن أقام مذبحاً في أهل تسالونيكاً مما حمل القديس أمبروز (Ambrose) في ميلان عل أن يحرم الإمبراطور من الكنيسة أزاء هذا الفعل الشنعاء ولم يظفر الإمبراطور بالعفو إلا بعد اعتذار<sup>(٣)</sup> .

وربما ظل القوط على ولائهم للإمبراطورية لو كان خلفاء ثيودوسيوس يمثل سعة أفقه ولو لم يكن وزراؤهم ومستشاروهم قصيري النظر تغلب عليهم الأنانية والحماقة .

---

(١) Lot, p. 63

(٢) Ibid, pp. 64 - 5

(٣) Courcelle, p. 13; Moss, p. 49, Hodgkin, 1, pp. 528 - 30



## الفصل الثاني

### قيام مملكة القوط الغربيين

ظهور ألابريك الباطلي — مغاراته — بين ألابريك وستيليكو  
الوندالي — ألابريك وتخریب روما ٤١٠ م — مدى هذا الحادث —  
وفاة ألابريك ومسرحية دفنه — آتولف والامبراطور هونوريوس وقيام  
دولة القوط الغربيين في غالة وأسبانيا ٤١٢ م — ناربون العاصمة  
٤١٣ م — زواج آتولف من بلاسيديا ٤١٤ م — أسبانيا قبل  
دخول القوط الغربيين — القوط الغربيون في أسبانيا واتخاذ برشاونة  
عاصمة ٤١٤ م — خلفاء آتولف وعلاقتهم بالامبراطورية الرومانية —  
واليا وأكويثانيا ٤١٩ م — خطر الهون وأثره في التقارب بين القوط  
الغربيين — عوده العلاقة القوطية الرومانية إلى التوتر .

توفي الإمبراطور ثيودسيوس في يناير عام ٣٩٥ م ، بعد أن انفرد بالحكم  
على جميع أجزاء الإمبراطورية الرومانية في الشرق والغرب ، وخلفه ولده :  
أركاديوس ، وهو الأكبر الذي تولى على القسم الشرقي من الإمبراطورية ، أما  
أخوه الأصغر هونوريوس ، فقد ولى القسم الغربي <sup>(١)</sup> ، والواقع أن خليفتي  
ثيودسيوس كانا كالدي في أيدي وزرائهما والمقربين إليهما <sup>(٢)</sup> .

على أن أخطر حادث وقع عقب وفاة الإمبراطور ثيودسيوس ، وكان ذا  
مغزى بعيد في تاريخ الإمبراطورية الرومانية وفي تاريخ القوط الغربيين ومستقبلهم ،

(١) توفي أركاديوس عام ٤٠٨ م وهونوريوس عام ٤٢٣ م .

(٢) Zeller, p. 61 Bradley, p. 84

ذلك الحادث هو انتخاب القوط الغربيين الأاريك الجسور (Alh-Rolks) ملكاً عليهم<sup>(١)</sup>. فكان الأحوال قد تهيأت تماماً لمستقبل القوط الذي تمحدد ، حين ولى الأمر ضعيفان متهاككان مغلوبان على أمرهما ، وقام دونهما قوى جسور طامع .

انتخب القوط الغربيون الأاريك ملكاً عليهم ، والملاحظ أن لقب ملك في ذلك الوقت ، يعتبر في المفهوم العام وفي نظر المعاصرين يومئذ ، دون لقب القائد العام المعروف عند الرومان (Magister militum)<sup>(٢)</sup> ،

كان عمر الأاريك في ذلك الوقت يربو قليلاً على العشرين ، وهو من سلالة أسرة البالطين (Balthings) أو (Balthe) أى « الشجعان » ، وهذه صفة اشتهرت بها هذه الأسرة حتى صارت علماً عليها نظراً لما تميزت به من أعمال البطولة في الحرب ، ولم تزل هذه الصفة باقية حتى اليوم علماً على البحر البلطى ، نسبة إلى هذه الأسرة الشهيرة<sup>(٣)</sup> . وجاء اختيار الأاريك ملكاً على القوط الغربيين ، ابتداءً لحكم هذه الأسرة .

لم يقنع الأاريك بوصفه وقومه معاهدين في الدولة الرومانية حتى ولو كان ملكاً ، رأى أن قومه قد أدوا خدمات جليلة للرومان ، وأن الإمبراطور ثيودسيوس لم ينل ما نال من نصر وتوفيق إلا بفضل ما أبداه الأاريك وقومه من شجاعة وإخلاص ، فضلاً عما أبداه جايناس (Gaius) القوطى من مقدرة

---

(١) Moss, p. 49

(٢) Lot, pp. 65 - 6

(٣) تعتبر هذه الأسرة في المرتبة الثانية بعد أسرة الآمالين التى انحدر منها ملوك القوط الشرقيين ، وتعنى كلمة الآمالين : « العظماء » هذا مع ملاحظة أن كلا الفرعين لم يستمرا في الحكم باضطراب . أما الأاريك فيعتجل أنه ولد في الفترة ما بين ٣٦٠ و ٣٧٠ م في جزيرة ميوكي (Peuce) في دلتا الدانوب (Donnelly, p. 26, Lav., et Ramb, 1, p. 49 Hodgkin, 1, pp. 950 - 15)



وكفاءة ، إذ كان ألابريك وصنوه جابيناس أكفأ قواد القوط يومئذ ، وهما يعملان في طموح لتكوين مستقبل لهما ولشعبهما ، وذلك عن طريق الخدمة في الإمبراطورية الرومانية ، والواقع إن أقصى ما كان يطمحان إليه بالنسبة لشخصيهما هو الوصول إلى مرتبة القيادة العامة أو العليا للجيش الإمبراطورية وما معها من جيوش حليفة وذلك على غرار ما ظفر به أربوجاست (Arbogast) الفرنجي وهو القائد العام لجيوش الإمبراطور ثيوديسيوس ، وستيليكو الوندالي القائد العام لجيوش هونوريوس في الغرب . هذه هي الأسباب الحقيقية التي حملت ألابريك على أن يخرج على شروط المعاهدين ويحارب الإمبراطورية ، وقد جاءت أحداث الخمسة عشر عاماً التالية مؤيدة لهذه الحقيقة <sup>(١)</sup> ؛ احتج ألابريك بأن ثيوديسيوس كان قد أعطاه وعوداً صريحة بالمسكافة بعد الانتصار على منافسه أيوجين أستاذ البيان وإمبراطور الغرب بعد مقتل فالنتينيان الثاني <sup>(٢)</sup> ، لكنه لم يظفر بشيء سواء أكان ذلك من جانب ستيليكو الذي يحكم في الغرب بإسم هونوريوس أو من جانب رفينوس (Rufinus) كبير وزراء أركاديوس بالشرق . ولعل السبب المباشر الذي دفع بالقوط الغربيين إلى الثورة والخروج هو أن شعوراً معادياً للقوط قد بدأ يظهر في بلاط أركاديوس ، حين اقترح عليه بعض مستشاريه ، طرد القوط إلى ما وراء الدانوب ، ولما لم يكن باستطاعة الإمبراطورية المغامرة في مثل هذا المشروع فقد جاء أول عمل ضد القوط بإسم الإمبراطور أركاديوس ، إنقاصاً لرواتبهم وقطعاً للتقادم والصلات التي كانت تمنح لهم من الإمبراطورية الشرقية <sup>(٣)</sup> .

لهذه الأسباب ، غادر ألابريك مؤيسيا على رأس جيشه وضرب مقدونيا

---

Moss, p. 45 (١)

Hodgkin, 1, pp. 555-578 (٢)

Bradley, pp. 84 - 85; Deauesly, p. 27 (٣)

وتراقيا ، وهاجم القسطنطينية ، ولم يكن هناك جيش روماني يستطيع مقاومة الأاريك الجسور ، ، إذ كانت جيوش تيودسيوس التي سيرها الحرب أربوجاست لم تنزل بإيطاليا ومن ثم غدت البلقان تحت رحمة القوط ، وهنا لم يجد رفينوس بداً من الخروج من القسطنطينية وفاوض الأاريك ودفع له مبلغاً من المال نظير تراجعه عن العاصمة وذلك في مارس عام ٣٩٥ م ؛ أي بعد وفاة تيودسيوس بنحو شهرين فقط . والواقع إن رفينوس آثر رشوة القوط لإتقاذ العاصمة بسبب تخرج الأمور في ذلك الوقت ، إذ كان الهون في الشرق قد عبروا القوقاز وخرّبوا أرمينية وقبادوقيا وسوريا ، ولم يقف زحفهم رغم مقاومة أنطاكية العنيفة<sup>(١)</sup> ، على أن مطامع الأاريك لم تقف عند هذا الحد ، لأنه إنما يعمل لهدف أكثر من مجرد الحصول على المال لنفسه ولقومه ، لأنه إذا كان قومه يرضيهم الحصول على المنح المالية والهبات ، فإنه لم يصل إلى ما يطمح فيه وهو الحصول على منصب رفيع في حكومة الإمبراطورية ، فتابع غزوانه حتى استولى على تساليا وغيرها<sup>(٢)</sup> ، وقرب لاريسا وجد نفسه وجهاً لوجه أمام ستيليكو الوندالي<sup>(٣)</sup> ولي الأمر الفعلي في الغرب ، جاء ستيليكو على رأس بقايا جيش تيودسيوس ، والمعروف أن

(١) Bury, I, pp. 110-111; Hodgkin, I, pp. 654-5; Lot, pp. 66-7

(٢) نفس ( ترجمة الدكتور زيادة والدكتور الباز ) ص ٢٣ ؛ Hodgkin, I, p. 654

Lav. et Ramb. I, pp. 62 - 3

(٣) ولد ستيليكو ( Stiliko ) في الفترة ما بين ٣٥٠ ، ٣٦٠ م وهو ابن زعيم وندالي دخل في خدمة الامبراطور فالنس وكان يقود فرق المهادين في الجيش الروماني . وبعد أن تزوج ستيليكو من سيرينا حوالى عام ٣٨٥ م عين في منصب عسكري رفيع وذلك قبل وفاة تيودسيوس . برز ستيليكو في كثير من المواقع ضد القوط الغربيين ، كما تولى الوصاية على هونوريوس بعد وفاة تيودسيوس مع النيابة في حكم القسم الغربي من الامبراطورية ، ويحتل أن تيودسيوس وهو على فراش الموت ، كان قد أوصى ستيليكو برعاية مصالح القسم الشرقي كذلك ومن ثم أعطاه بعض الصلاحية والحق في الوصاية على اركاديوس ، وهذا ما أنار حقد وزراء اركاديوس ولا سيما رفينوس ( Hodgkin, I, pp. 645 - 50 )



ستيليكو هذا وندالى من جهة أبيه غير أنه اصطبغ بالحضارة الرومانية واشتغل في خدمة الإمبراطورية وتزوج من سيرينا ( Serena ) المثقفة ابنة أخى تيودسيوس ، وأنجب من هذا الزواج ماري التي خطبت للإمبراطور هونوريوس<sup>(١)</sup>.

تحرك ستيليكو للدفاعه الأريك تحت تأثير عاملين قويين أولهما إخضاع بربرى ثائر وثانيهما الحيلولة بين الأريك وبين الاستيلاء على ولاية الليريا الشرقية ، وهى ولاية هامة وكبيرة وتضم من البلاد مقدونيا وتساليا وأتيكا والبلوبونيز ، وبعد أن كانت هذه الولاية تابعة للقسم الغربى من الإمبراطورية أضافها تيودسيوس قبيل وفاته إلى القسم الشرقى منها حين قسم الإمبراطورية بين ولديه ، فأراد ستيليكو بدافع المطامع الشخصية أن يقوم بهذه الحركة باسم الإمبراطور هونوريوس ، ليعيد هذه الولاية إلى الوضع القديم ، وهذا يفسر تراخى رفينوس أمام الأريك سابقاً ووقوفه الأحمق عن مساعدة ستيليكو إذ حمّله حقه على منافسه فى الغرب على تحويل مطامع الأريك نحو الغرب مفضلاً أن تقع ولاية الليريا فى يد الأريك عن أن تعود إلى يد منافسه الغربى ، ولكن ستيليكو عجز عن تحقيق ما حاوله وتقهقر أمام الأريك عائداً إلى إيطاليا<sup>(٢)</sup>.

وهنا لا بد من ملاحظة أن ستيليكو لم يكن جاداً فى محاربة الأريك ، إذ يبدو أن الكراهية التى يكنها له منافسوه فى بلاط هونوريوس ، فضلاً عن اتهامه دائماً بالخيانة ، ولا سيما خلال الفترة التى ذاع فيها صيته فيما بين ٣٩٥ ومقتله عام ٤٠٨ م ، يبدو أن هذا كله كان من أسباب تراجعهم دون نتيجة حاسمة ، ويرجح أن أركاديوس تحت تأثير رفينوس ، قد أمر ستيليكو بالعودة إلى حدود القسم الغربى من الإمبراطورية ، لأن رفينوس ألقى فى روع سيده

Hodgkin, 1, pp. 770 - 73; Lot, p. 66 (١)

Lot, p. 66; Moss, p. 45 (٢)

أن ستيليكو يعمل لصالح القسم الغربي وأنه خائن<sup>(١)</sup>، فأتاح بذلك الفرصة لألاريك لأن يتابع هجومه على اليونان بعد عودة ستيليكو فاستولى على جميع بلاد اليونان حيث انهارت أمامه جميع الحاميات الرومانية عام ٣٩٦ م ، ونجحت أئينا من الدمار نظير فدية ضخمة ، بل أنها استقبلته استقبالا حافلا يابق بالظافرين ، ولا سيما وأنه مسيحي هدم بعض المعابد الوثنية وأنهى الطقوس القديمة ، وتوغل ألاريك في بلاد البلوبونيز ، ولعل القوط رغبوا في هذه المنطقة الجنوبية لتكون ملجأ لهم في المستقبل إذا اضطروا لذلك ، وعجزت حكومة القسطنطينية عن إيقافه ، فاضطرت إلى الاستنجاد بالإمبراطور هونوريوس وفي هذا الاستنجاد ، كان أركاديوس قد عاد إلى الصواب إذ استمع لمستشاريه الجدد وكانوا أكثر إدراكا لمصالح القسم الشرقي من رفينوس الخاقد الطامع الذي قُتل على يد الجيش الثائر<sup>(٢)</sup> ، فأوضحوا له أهمية ستيليكو في حماية القسم الشرقي<sup>(٣)</sup>. وحينئذ عاد ستيليكو بجيشه والتقى بالقوط الغربيين وطردهم من أركاديا فتفقر ألاريك نحو الشمال ، ولكن ما كاد ستيليكو يعلم بأن أركاديوس عقد معاهدة مع ألاريك وهي إحدى المعاهدات ( *Foodera* ) التي ملأت تاريخ الامبراطورية الشرقية نزات بمقتضاها على رغباته ، حتى عاد دون أن تؤدي حملته إلى أية نتيجة ، وبعد ذلك لم يفكر ستيليكو في التدخل الحربي لصالح القسم الشرقي من الامبراطورية<sup>(٤)</sup> . وبمقتضى هذه المعاهدة عينت حكومة بيزنطة ألاريك قائداً عسكرياً عاماً لمنطقة الأيريا ( *Magister militum* ) ( *Per Illyrioum* ) وتشمل هذه المنطقة جميع الأجزاء الأوروبية من الامبراطورية

(١) Hodgkin, 1, pp. 659 - 59

(٢) Boury 1, p. 115

(٣) كان جايئاس القوطي وقائد عام جيوش القسم الشرقي هو الذي دبر مقتل رفينوس لحطامه وسوء تديره فضلا عن أن جايئاس كان صديقا لاستيليكو .

(٤) Hodgkin, 1, pp. 698 - 61; Bradley, p. 86; Lot, p. 67



البيزنطية<sup>(١)</sup>، ظل ألامريك في منصبه الجديد نحو أربع سنوات هادئا حيث استغل هذا المنصب في تقوية جيشه بأن أمر جميع المصانع الامبراطورية في هذه الولاية بصنع أسلحة لجيشه القوطي ولم يستطع أركاديوس أن يحول دون ذلك ، كما أنه قضى وقته في تدريب جيشه وإعداده لمغامرات أوسع متى لاحت الفرصة إذ كان يتطلع إلى ترقية جديدة أخرى من جانب بيزنطة ولا سيما وأنه رأى صنوه ومنافسه القوطي جايناس يعين في منصب أسنى منه وهو منصب القيادة العامة للجيش الروماني في الشرق بلقب (Magister militum in Praesenti)<sup>(٢)</sup>.

ورأى ألامريك أن مستقبله في الغرب ، ويجب عليه أن ينفذ يده من الشرق نهائيا ، بعد أن رأى حركة المقاومة للجرمان عامة تقوى يوما بعد يوم ، كما أن البلقان لم تعد تصلح مستقرا دائما للقوط ، لما أصابها من تمزيب وتدمير

---

(١) Zeller, p. 18, Halphen, p. 15, Gibbon, IV, p. 10

(٢) جاءت توليه جايناس لهذا المنصب مثيرة للجدل والفجينة في نفوس الرومان فنشط الحزب المعارض للجرمان عامة ، وأصدر سينسيوس (Synesius) في برقة كتابا عنوانه (Peri - Basileias) يدعو فيه ضد الجرمان ، وهو نوع من التشهير والدعاية ضد الجرمان كما اجتاحت القسطنطينية في ذلك الوقت حركة معادية للجرمان ، أدت إلى اختفاء جايناس نهائيا ، إذ حدث أن كلفته حكومة بيزنطية ، باعتباره القائد العام لجيش الشرق ، باخذاد ثورة القوط الشرقيين المقيمين في فريجيا بآسيا الصغرى ، منذ عهد يودسيوس ، فلم يكف يصل جايناس إليهم حتى انضم إلى صفوفهم وزحف بهم نحو العاصمة حيث أجبر أركاديوس على تسليمه بعض الشخصيات البارزة في الحكومة الامبراطورية وجملة كذلك على أن يثبت في منصبه كقائد عام ، ومن ثم دخل جايناس بمجموعه العاصمة عام ٣٩٩ م ، فأثار هذا الوضع حركة المعارضة ضد البربر ، حتى أنه عندما غادر جايناس العاصمة خلف فيها حامية من نحو ٧٠٠ قوطي فقام هذا الحزب المعادي للبرابرة وذبح الحامية عن آخرها فأجاب جايناس على هذه المذبحة بإقامة مذبح في تراقيا ، وتمكن فروفيتا (Frovitta) منافس قوطي آخر كان يخدم في جيش أركاديوس من الإستيلاء على أسطول جايناس وتحطيمه في بوناز الدردنيل ، وفي جايناس إلى شمالي الدانوب حيث وقع أسيرا في يد ملك الهون أولدين (Uldin) فذبحه وأرسل رأسه إلى أركاديوس عام ٤٠٠ م ، وبهذا اختفى جايناس عن مسرح الحوادث .

( Moss, p. 60; Lot, pp. 60 - 68 ) أنظر ما سبق ص ٦١

فليس فيها مطعم مادي يحمله على التمسك بها ، بل أنها لم تعد تصلح لتسكيفية قومه ، ومن ثم انتهز فرصة انشغال ستيليكو في الغال ، فخرج في خريف عام ٤٠٠ م وأخلى البلاد التي احتلها تدريجيا . فجلا عن مؤيسيا وتساليا والبلوبونيز . وإبيروس ، ودخل إيطاليا عام ٤٠١ م ، حيث ظل نحو سنة ونصف يخرب وينهب في المدن الإيطالية الشمالية ، وكان بلاط الامبراطور هونوريوس في ذلك الوقت في مدينة ميلان ، فأعد العدة للقرار إلى الغال ، وأصلحت أسوار روما وحصونها استعداداً لمداغة هجوم الأاريك المتوقع ، غير أن كفة الرومان رجعت فجأة حين عاد ستيليكو من بلاد الغال بعد أن أنهى حروبه فيها بمهادنة أعدائه ، واستدعى أمداداً من بريطانيا ، وفاجأ الأاريك في عام ٤٠٢ م وهزمه في وقعتي بولانتزو ( Pollanzo ) وفيرونا شمال إيطاليا فكان لهذا النصر أثره في مباينة المتماثلين في مدح ستيليكو والإشادة بمقدرته وكفاءته النادرة ، حتى قارنوه بماريوس<sup>(١)</sup> ، وقيل في مدحه الشعر الكثير<sup>(٢)</sup> .

تقهقر الأاريك بعد أن كاد يقع في الأسر لولا سرعة جواده ، وأحسن ستيليكو معاملة زوجة الأاريك وأسرتة التي وقعت في الأسر ، ودخل في مفاوضات مع الأاريك انتهت بجلاته عن إيطاليا وإن ظل على أبوابها يتحين الفرصة للغزو والبطش<sup>(٣)</sup> . والواقع إن ستيليكو لم يرد أن يقضى على الأاريك قضاء نهائياً لغرض في نفسه وهو أن يدخره ليوم يضطر فيه لانتخاذه أداة عند اللزوم في نضاله ونزاعه مع وزراء أركاديوس ، ولذا لم ير مانعا من أن يعطى الأاريك رشوة كبيرة ليرحل عن إيطاليا خلال مفاوضاته إياه رغم انتصاره عليه ، وبذلك استطاع ستيليكو وسيد هونوريوس أن يدخلوا روما دخول الظافرين

---

(١) أظن ما سبق ص ٢٤ .

(٢) Gibbon, IV, pp. 15 - 20; Hodgkin, 2, p. 709; Pirenne (H), p. 27

(٣) Lot, pp. 69 - 70



عام ٤٠٤ م وأن يحتفل بالنصر ، وأقيمت أقواس النصر عليها لافتات كتب عليها « لقد خضع الشعب القوطي وإن تقوم له بعد ذلك قائمة » ، ومن سخرية المقادير ألا يمر أكثر من ست سنوات على هذا الاحتفال حتى دخل الأاريك روما وقرأ هذه العبارات ، لم يقيم هرزيوس في روما بعد هذا الاحتفال سوى بضعة أشهر حتى نقل عاصمته إلى رافنا التي أصبحت منذ ذلك الحين عاصمة للقسم الغربي من الامبراطورية وعاصمة ملوك البرابرة ( أدواكر وثيودريك ) وأخيراً مقراً للأرخبون البيزنطي بعد استرجاع جستنيان لإيطاليا<sup>(١)</sup> .

ورغم أن إيطاليا نجحت من غزوات الأاريك بفضل سياسة ستيليكو وموقفه فإنها لم تتخلص نهائياً منه ، ومضت فترة تقدر بأربع سنوات كانت إيطاليا بمنأى عن أخطار الأاريك الذي كان يعسكر خلال تلك الفترة في منطقة ابيروس ( Epirus ) وعلى اتصال باستيليكو ويقال إنه كان يرتب معه تدابير الاتفاق على الاشتراك معاً في مهاجمة الامبراطورية الشرقية<sup>(٢)</sup> .

غير أن إيطاليا لم تلبث أن تعرضت إلى غزوة جديدة من جانب القوط الشرقيين وأحلافهم من الوندال والسويف والبرجنسديين والآلان وذلك عام ٤٠٥ / ٤٠٦ م بقيادة رداجيس ( Radagaisus ) الوثني الذي يحتمل أن يكون من القوط الشرقيين المقيمين حول البحر الأسود حيث ظهر وتزعم فريقاً من قومه وثار ضد الهون ثم خرج يلتمس الغزو والنهب مع هؤلاء الأحلاف . ويعتبر رداجيس أكثر وحشية من جميع أعداء روما في الماضي وفي ذلك الوقت الراهن ، فقد أحدث هذا العدو البربري بإيطاليا من التخريب والتدمير والنهب والقتل أكثر مما أحدثه الأاريك<sup>(٣)</sup> . استطاع ستيليكو أن يقضي على جموعهم قرب فلورنسه مستعيناً بمحمود مرتزقة من الهون والآلان وأعدم رداجيس وباع

---

(١) Bradley, pp. 88 - 9; Lot, pp. 69 - 70

(٢) Hodgkin, 1, p. 731

(٣) Dill, p. 41, Halphen, p.p 16 - 17

من أسر من أحلافه رقيقاً بثمن بخس كما انضم إليه زعيم قوطى غربى ينافس  
الاريك هو ساروس (Sarus)<sup>(١)</sup> .

كان لدى ستيليكو فكرة الإفادة من الاريك لإذلال القسم الشرقى من  
الإمبراطورية ونجح فعلاً فى إغراء الاريك على الدخول فى خدمة القسم الغربى  
وعلى أن يتعهد بضم منطقة الليريا التى يحكمها الاريك من قبل بيزنطة إلى القسم  
الغربى ، ولكن قبل إتمام التنفيذ لهذا الاتفاق عدل ستيليكو عن هذا المشروع  
لوقت أكثر ملاءمة نظراً لما سمعه من انتصارات الثائر قنسطنطين فى الغال .

أما الاريك فقد تمسك بالمسكافة التى وعد بها نظير خدماته وأرسل من  
مقره فى نوريكورم (Norricum) يطلب ٤٠٠٠ جنيه ذهبي أو أربعة آلاف رطل  
من الفضة نظير الخدمات التى أداها للأمبراطور هونوريوس ، فاضطر ستيليكو  
إلى عرض هذه المطالب على مجلس السناتو ، مزكياً الاريك كحليف قوى نافع ،  
ومن الخطورة رفض ما يطلب كما دعم حججه بأن الملك القوطى قد وعد بالقضاء  
على قنسطنطين الثائر والذي أعلن نفسه إمبراطوراً فى الغال ، وأن القوات  
الإمبراطورية لا تكفى لهذا الغرض . استاء الشيوخ عند ما طلب ستيليكو  
منهم الموافقة على دفع هذا المبلغ ، واعتبروه « جزية » لملك بربرى ، وحمل الخامس  
بعضهم فقال إنه يفضل أن تحرق منارهم فوق رؤوسهم على أن يوافق على مثل  
هذا التسليم الشائن ، وانتهى الأمر بالموافقة الإجماعية حين أخذت الأصوات  
ما عدا عضو واحد هو لامبرديوس (Lampridius) الذى خرج من قاعة المجلس  
وهو يقول لزملائه : إن الذى وافقتم عليه ليس معاهدة للسلم بل صك بالعبودية

(١) Bradley, p. 89; Lot, pp. 70 - 71; Pirenne ( H. ), pp. 28 - 9;

Hodgkin, pp. 731 - 33 Gibbon, IV, pp 32-35

أنظر ما يلى ص ٧٩



( Non est ista pax sed pactio servitutis )<sup>(١)</sup> ، وغم أن هذا الاتفاق لم ينفذ ، فقد أخذ غالبية الأعضاء يتشككون في مدى إخلاص ستيليكو بسبب أصله الجرمانى ، الذى لم ينفروه له ، كما ازدادت شكوكهم حين عزم الإمبراطور هونوريوس<sup>(٢)</sup> على التوجه إلى القسطنطينية على أثر وفاة أخيه أركاديوس ليساعد ثيوديسيوس الثانى ( ٤٠٨ - ٤٥٠ م ) على ارتقاء عرش أبيه ، فمطل ستيليكو هذا المشروع واقترح أن يتوجه هو إلى الشرق ، ففسرت مشورته بأنه ما اقترح الذهاب بنفسه إلا لتنفيذ مشروع أثيم غادر هو تنصيب يوكريوس ( Eucherius ) ابن ستيليكو على عرش بيزنطة ؛ وانتشر السخط بين صفوف الجيش الرومانى حتى أنه رفض إطاعة أوامره بالتوجه إلى الغال لقمع الثورة القائمة فيها ، وبدلاً من تنفيذ أوامر القائد العام ، قبض الجيش على عدد كبير من كبار الموظفين ممن رأى فيهم مشايعة لآراء ستيليكو ، منهم رئيس الدواوين ووزيرا المالية<sup>(٣)</sup> ورئيس الحرس الإمبراطورى وغيرهم ، ولم ينج الإمبراطور هونوريوس نفسه من غضبة الجيش إلا حين وافق على تسليم ستيليكو له ، أما ستيليكو فقد التجأ إلى كنيسة رافنا حيث قبض عليه وأعدم بأمر سيده فى أغسطس عام ٤٠٨ م ، وذلك بعد سنتين فقط من انتصاره على القوط الشرقيين وأحلافهم ، وبعد ستيليكو أقدر قواد هونوريوس<sup>(٣)</sup> .

تلا هذا الحادث موجة كراهة كاسحة ضد البرابرة عامة وضد الجنود المرتزقة منهم بصفة خاصة ، وتصرف وزراء هونوريوس أسوأ تصرف فى مثل هذه الأحوال ، فقد أمروا بطرد جميع القوط والضباط والبرابرة الآخرين من مناصبهم ، بل أصدروا قانوناً يحرم دخول الأريوسيين أو الوثنيين فى خدمة الإمبراطورية

---

(١) Lav. et Ramb., 1, p. 64; Hodgkin, 1, pp. 748 - 9

(٢) Bradley, pp. 90 - 91; Hodgkin, p. 747

(٣) Bury, 1, pp. 106, 160-62, 166-170; Hodgkin, pp. 754-8, Lot, pp. 72-3

في المستقبل<sup>(١)</sup>، وحينئذ غادرت الفرق الجرمانية مراكزها وأغلبها على الأريوسية ولم تجرؤ هذه الفرق على الثورة خوف تنكيل الرومان بذويهم، ومع ذلك انتشر الهياج في إيطاليا، وسرى بين الناس أن المراطقة والأجانب أصبحوا خارجين عن حماية القانون، فقام الغوغاء وكذلك الجيش بذبح أسر هذه الفرق ونهب أموالها، وكانت النتيجة أن نحو ٣٠ ألف من الجنود المرتزقة من البرابرة قد تركوا الجيش الروماني والضموا إلى الأاريك المتحضر، وهم يتحرقون شوقاً للانتقام من الرومان<sup>(٢)</sup>.

أضحى هونوريوس وجهاً لوجه أمام الأاريك ومن تجمع لديه من الساخطين والناقين وحينئذ أرسل الأاريك لتنفيذ شروط المعاهدة بدون جدوى<sup>(٣)</sup>، فقاد جيشه إلى شمالي إيطاليا بحجة الانتقام لمقتل ستيليكو، ولم تسكن هناك أدنى مقاومة وصار الطريق مفتوحاً أمامه فوصل إلى رافنا حيث كان الإمبراطور متحصناً، لكنه عدل عنها نظراً لقوة حصونها وما يحيط بها من مستنقعات، وتوجه رأساً إلى روما حتى لا يضيع وقته، وعسكر قرب أسوار روما في سبتمبر عام ٤٠٨ م، مفضلاً الحصار وإجاعة المدينة عن أن يفتحها عنوة حتى لا يفقد أحداً من رجاله، وهذا أول حصار الأاريك لروما، حاصرها وقطع عنها إمدادات تموينها، فاستبد الجوع بأهل روما عامة كما اشتد القزع بأعضاء السناتو فصبوا جام غضبهم وحقدوا على ستيليكو الذي كان السبب في هذه الكارثة بأن أعدموا أرملة سيرينا (serena) لاعتقادهم أنها هي التي استدعت الأاريك للانتقام لزوجها. مات الآلاف من الجوع داخل المدينة، وظل السناتو معانداً لا يقبل التسليم على أمل أن يصل جيش هونوريوس لإنقاذ المدينة، بعد أن استطاع رسول

---

Hodgkin, p. 762 (١)

. Bradley, p 91 (٢)

Hodgkin, 1, pp. 761 - 2 (٣)



هو نريوس أن يدخل المدينة في غفلة من القوط المحاصرين وأن يبعث في أهلها الأمل بهذا الوعد ، ولكن الجيش المنشود لم يصل فلم يسع السناتو إلا أن يبعث برسل المفاوضة طالباً من الأاريك أن يرفق في الشروط ومظهراً له في نفس الوقت أن الرومان سوف يقومون قومة رجل واحد إن جاءت شروط القوط مذلة لهم ، وأنهم سوف يستعذبون الموت عن أن يسلموا بشروط مهينة ؛ وأن لديهم جيوشاً ضخمة ، فما كان من الأاريك إلا أن أجاب الرسل ساخراً « كلما كان المرعى خصيباً كلما سهل رعيه » وأخذ يضحك من استعداد أهل روما للحرب ، وأخيراً سأله الرومان عن الشروط فقال : إنقاذ المدينة بشرط تسليم جميع ما فيها من ذهب وفضة ، وتسليم جميع العبيد الأجانب « ولما استفسره المفاوض الروماني عما يبقى للرومان بعد ذلك ، أجابه ببساطة : حياتكم ( Salvos ) . والواقع لم يرد الأاريك سلب كل ثروات المدينة ولكنه أراد أن يلقى في قلوب الرومان القزع والهلوع ، وتمت المفاوضة بتحديد الفدية المطلوبة وهي ( خمسة آلاف رطل ذهب وثلاثة آلاف رطل فضة ، وأربعة آلاف ثوب امبراطوري من الحرير ، أربعة آلاف أخرى من الحلال الإمبراطورية الإرجوانية من صناعة صور الفاخرة ، أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف رطل فلقل ) .

وقد يبدو غريباً أن يكون الفلقل من ضمن ما طلبه الأاريك ، وأن يعد ضمن المواد الخاصة بالتلف غير أن ثمنه كان حينئذ مرتفعاً جداً ، ويستورد من الهند وقد تذوقه القوط في مطابخ الرومان فأدركوا طعمه<sup>(١)</sup> .

دفع الرومان الفدية وجلا الأاريك وتوجه إلى تسكانيا ، وبهذا ينتهي الحصار الأول لروما حيث لم يستخدم السيف ولم ترق فيه دماء وإنما كان الجوع هو السلاح الوحيد الذي استعمله الأاريك . حافظ الأاريك على حسن معاملة

---

(١) Bury, 1, pp.174 - 77; Hodgkin, 1, pp. 770 - 4, Bradley, pp.92-4

الرومان ومنع رجاله من الاعتداء أو النهب ، بل إنه عاقب بعض رجاله لأنه سخر من الرومان ، وازداد أتباعه عندما انضم إليه ٤٠ ألف عبد تخلصوا من سادتهم في روما ، كما انضم إليه عدد كبير من القوط الذين جاءوا صعبة صهره آتولف (Ataulfus) من شواطئ الدانوب، وآتولف هذا من القوط الشرقيين<sup>(١)</sup>.

لم يكن لدى أларيك حتى ذلك الوقت أية فكرة عن القضاء على الامبراطورية الغربية ، بل كان كل ما يطمع إليه هو تأسيس مملكة قوطية تابعة للرومان على أن يعين قائداً عاماً للجيش الروماني ، ومن ثم دخل في مفاوضات مع الإمبراطور هونوريوس ، وكان أларيك في ذلك الوقت في معسكره في تسكانيا ، وطلب من الإمبراطور أن يسلمه البندقية ونورسيا ودالماتيا وهي المناطق التي يسكنها القوط باعتبارهم معاهدين . ودارت المفاوضات في مدينة ريمينى (Rimini) بين أларيك ورئيس وزراء هونوريوس وهو جوففيوس (Jovius) . فأرسل جوففيوس إلى سيده بمطالب أларيك ، مقترحاً في نفس الوقت أن يعرض الإمبراطور على أларيك منصباً عسكرياً سامياً . فأجاب هونوريوس لا تماً وزيره على هذا الاقتراح الأخير باعتباره من اختصاصه هو لا من اختصاص جوففيوس ، وختم رسالته بأن مثل هذا المنصب لن يعطى لأларيك أو أى واحد من جنسه ، فقرأ جوففيوس هذه الرسالة على مسمع من أларيك ، وما كاد يتمها حتى أمر أларيك بقطع الحادثات وهدد بحصار روما والانتقام لهذه الإهانة التي لحقت به وقومه . فعاد جوففيوس إلى رافنا واستحلف سيده هونوريوس ألا يضم السيف حتى يقضى على القوط البرابرة<sup>(٢)</sup> . والواقع أن هونوريوس ورجال بلاطه في رافنا

---

(١) يحتمل أن يكون اسم آتولف (ata-ulfus) مشتقاً من كلمة (atta-wulfus) بمعنى أبى الذئب ، وبقيت هذه التسمية فيما يعرف حديثاً باسم أدولف (Adolf) (Bury, 1, p. 178 - 185; Hodgkin, 1, p. 821)

(٢) Hodgkin, 1, pp. 780 - 2



لم يقطعوا الأمل نهائياً في إزالة القوط والتخلص منهم ، إذ أنهم لم يحسوا بوطأة خطرهم حين كانوا في رافنا فلم يتعرضوا لما تعرضت له روما من جوع بسبب الحصار . ورغم هذا فإن الأاريك خفف من شروطه ورغب مخلصاً في معاهدة الامبراطورية ، ووعد بمساعدتها حربيًا ، وأرسل قسلاً إلى الامبراطور ولكن الامبراطور رفض<sup>(١)</sup> .

لذلك لم ير الأاريك بداً من استئناف هجومه ، وتوجه نحو روما ، وأواخر عام ٤٠٩ م بعد أن فقد كل أمل في الاتفاق مع الامبراطور وهدد روما بالاستيلاء على ثغرها أوستيا ( Ostia ) حيث توجد أهراء القمح ، وفرض الحصار مرة أخرى وهذا هو الحصار الثاني ، وسرعان ما دخل السناتو في مفاوضات الأاريك ، واستجاب لشروطه التي تقضى بزل الامبراطور هونوريوس وتعيين امبراطور جديد ، ووقع الاختيار على تعيين حاكم روما الوثني برسكوس أتالوس ( Priscus Attalus ) الذي اعتنق المسيحية واعد على يد أسقف قوطي على المذهب الأريومي وتوج امبراطوراً مما أثار كراهية الكاثوليك<sup>(٢)</sup>

وافق الامبراطور الجديد على تعيين الأاريك قائداً عاماً للجيش الروماني وتعيين أتولف أخى زوجة الأاريك في منصب : قائد الحرس الامبراطوري بلقب ( Comes Domestlorum ) . والتف حول الحكومة الجديدة عدد كبير من أعضاء السناتو البارزين أمثال لامبرديوس الذي عين في وظيفة رئيس القضاة وهو الذي كان منذ قليل أشد الناقمين على اقتراح ستيليكو في إعطاء الأاريك الأموال التي طلبها<sup>(٣)</sup> .

---

(١) Hodgkin, 1, pp. 783 - 4

(٢) Ibid, pp. 780 - 6

(٣) Lot, pp. 75 - 6

من هذا يتضح أن الأريك حتى نهاية عام ٤٠٩ م قد وصل إلى ما كان يطمح إليه ، فقد حصل على منصب رسمي رفيع في الامبراطورية الغربية ، واستقر قومه في المناطق التي احتلوها ، بل إن القوط الغربيين أخذوا يتغلغلون حتى أضحت الامبراطورية الغربية برمتها تحت سيطرتهم ومشيتهم ، وعلى الأقل في إيطاليا ، ولم يكن هناك أدنى اعتراض أو مقاومة يخشى منها ، إذ كان الامبراطور أتالوس دمية في أيدي القوط ، أما هونوريوس فلم يعد أمامه شيء سوى أن يعد العدة سراً للفرار إلى القسطنطينية <sup>(١)</sup>.

والواقع إن المدن الإيطالية كانت قد سئمت حكم الامبراطور هونوريوس ، وسرعان ما اعترفت بالامبراطور الجديد ، وشملتها موجسة من السرور . تقدم الأريك بجيشه ومعه الامبراطور أتالوس حتى وصلوا إلى أبواب رافنا ، حيث يقيم هونوريوس ، فتقدم وزراء الامبراطور المعزول وعرضوا على أتالوس فكرة اقتسام الامبراطورية بينه وبين هونوريوس غير أن أتالوس رفض هذا العرض ، وأصر على أن يعتزل هونوريوس العرش في الحال وأن يتوجه إلى المنفى ، وخلال هذه الأحداث دب نزاع بين الأريك وصنيعته أتالوس ، منشأه أن هرقل كونت أفريقية ، كان قد ساء ما وصلت إليه الأحوال في روما ، فأوقف إرسال القمح من أفريقية ، وبدأت روما تحس بالجاعة ، وإزاء هذا التصرف اقترح الأريك التوجه إلى أفريقية لإخماد هرقل ، وربما كان في تحقيق هذا المشروع سلامة إيطاليا من أخطار القوط نهائياً ، غير أن أتالوس رفض هذا الاقتراح ، وأخذته الغرور ، ولعله كان يحلم أن باستطاعته أن يحكم مستقلاً عن الملك القوطي ، ولم يضع الأريك وقتاً في حسم ما قد يراود هذا الامبراطور وعقد مجلساً من القوط والرومان قرب مدينة ريمني ، وأرغم أتالوس على حضور هذا المجلس في زيه



الامبراطورى وعلى مشهد من المجلس أمر الأريك بانتزاع الشارات الامبراطورية عن أتالوس ، وأعلن أن أتالوس لم يعد امبراطوراً وإنما صار مواطناً عادياً ولم يقس عليه أكثر من هذا بل سمح له أن يعيش فى بلاطه وظل على هذا النحو على عهد خليفته أتولف الذى رأى فيه نديماً مسلماً وموسيقياً بارعاً<sup>(١)</sup>.

حينئذ استأنف الأريك المفاوضات مع هونوريوس ، وبدأها بارسال الروب الامبراطورى إليه كعلامة لرغبته الخالصة فى الاتفاق معه وحسن العلاقة ، وكادت المفاوضات تنجح وتبرم المعاهدة فى يولييه ٤١٠ م بعد مقابلة شخصية بين الأريك وهونوريوس ، لولا وصول المدد الذى كان هونوريوس قد وعد به من قبل تيودسيوس امبراطور الشرق ، جاء هذا المدد بقيادة ساروس (Sarus) الزعيم القوطى الغربى الذى يخدم الرومان وينافس الأريك<sup>(٢)</sup> ، وهجم فجأة على معسكر الأريك فى ريمنى ، فقطع الأريك المفاوضات وثار مخاوفه لاعتقاده أن هونوريوس قد خدعه ، ومن ثم ترك رافنا وتوجه إلى روما ولم يفكر فى حصارها كما حدث فى المرتين السابقتين بل دخلها عنوة فى مساء ٢٤ أغسطس ٤١٠ م ، هذه هى المرة الأولى التى يدخل روما جيش بربرى بعد تخريبها الأول منذ ثمانية قرون على يد الغال ، استباح الأريك روما لرجاله ستة أيام ، ولكن نظراً لأن الأريك يدين بالسيحية فقد أمر رجاله بقصر نهيم على بيوت النبلاء وإحراقها والاستيلاء على الفضة والذهب والماشية والأثاث والجواهر ، ومنعهم من قتل العزل من السلاح كما استثنى الكنائس والآثار الدينية ، ورغم هذا فقد حدث قتل لكنه قليل ، ولعل كتاب الرومان قد بالغوا فى عدد القتلى الذين وصفوهم بأن جثثهم كانت تملأ الشوارع بسبب امتناع أصحابها عن التعريف عن أماكن أموالهم وثرواتهم ، والواقع إن أوامر الأريك قد نفذت إلى حد بعيد لأنه وقومه

(١) Hodgkin, 1, pp. 789-91, Lot, p. 76, Bradley, p. 95

(٢) أنظر ما سبق ص ٧٢ .

كانوا لا يزالون يعتبرون أنفسهم معاهدين وأن هدفهم الحقيقي هو الحصول على مكان ثابت معترف به في الامبراطورية وليس تدميرها<sup>(١)</sup>، كما وضح من حرص الأاريك في الأحداث السابقة على الاتفاق مع الرومان بشتى الوسائل<sup>(٢)</sup>.

ترك الأاريك روما خراباً يباباً، ولكن استيلاءه عليها لم يفده وأدرك هذا جيداً بل إنه أدرك كذلك أن أحلامه قد تبددت، فما هي ذى إيطاليا ليست أحسن حالا من الليريا بعد أن عمها الخراب والركود بحيث أضحت عاجزة تماماً عن إمداده وقومه بالاستقرار الحقيقي الآمن، حقيقة هو أضحي سيد إيطاليا المطلق، لكن ينقصه لتدعيم مركزه وسلطانه أن يضع يده على منابع القمح التي تمون شعبه، وسرعان ما فكر في مشروع غزو أفريقية.

هذه هي الكارثة التي حلت بروما، وكان لسقوطها ضجة وهزة في أركان العالم الروماني، إذ فقدت روما مكاتها وسمعتها، وانتشرت أنباء الكارثة في العالم حيث بدأ للكثير أن نهاية العالم قد دنت، وشاع بين الناس نظرية تقول: إن المدنية الخالدة التي احتفظت بأباطرتها الوثنيين، كان ينبغي أن تسقط عندما اعتنق أحد حكامها الديانة المسيحية، وأقبل الناس بعضهم على بعض يتساءلون عما إذا كان ذلك هو كل ما استطاعت المسيحية أن تأتي به، أم كانت الطامة انتقاماً للوثنية ومعابدها القديمة، أما كان ما حدث هو الجزاء لاعتناق المسيحية<sup>(٣)</sup>.

وقد رد القديس أوغسطين — أسقف هيبو (Hippo) بأفريقية الرومانية وهي بونا الحالية بتونس — على كل تلك الأقاويل في كتابه «مدينة الله (De Civitate Dei)» الذي بدأ تأليفه عام ٤١٢ م وانتهى منه عام ٤١٧،

(١) - Thomp., pp. 57-8; Boiss., p. 246 moss, pp. 45-6, Lot, pp. 96-

7, Pirenne (H),

Courcelle, p. 45; p. 280, Gibbon, IV, p. 108-118, Deanesly, p. 27, Eyre p. 18

Hodgkin, 1, pp. 792-8 (٢)

(٣) فسر (ترجمة الدكتور زيادة والدكتور الباز) ص ٢٤.



وفي ذلك الكتاب الذى يعد أعظم ما خلقه الآباء الأولون من الكتب الدينية ،  
أجاب أوغسطين بأن روما مدينة من صنع البشر ، وهى لا تقاس فى شئ إلى  
مدينة الله التى لا تنال منها الظواهر المادية ولا تحدّها الحدود ، بل تسع كافة  
المؤمنين أينما يكونون<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

هكذا كان صدى الكارثة التى حلت بروما على يد الأريك زعيم القوط  
الغربيين ، أما مشروع الأريك لغزو أفريقية ؛ فهو فضلاً عن فائده المادية  
فى الحصول على منابع القمح ، يفيد من ناحية سلطانه إذ بتحكمه فى هذه المنابع  
يستطيع أن يتحكم فى إيطاليا نفسها ؛ وتقدم إلى جنوب إيطاليا وعند عبوره  
المضيق إلى صقلية هبت عاصفة عند مدينة ريجيو ( Reggio ) فى جنوب إيطاليا  
دمرت أسطوله ، ولم يكد يقترب عام ٤١٠ من نهايته حتى مرض الأريك ،  
وكان قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره — ومات قرب مدينة كوستنزا  
( Cosenza )<sup>(٢)</sup> ، ولم يعثر له على قبر على الطريقة الرومانية ، نظراً لأن رجاله  
أرادوا أن يجعلوا من قصة دفنه موضوعاً للمحمة ، فدفنوه تحت مجرى نهر بازنتو  
( Basento ) الذى يجرى بالقرب من مدينة كوستنزا ومعه كنز كبير من الفضة  
والذهب والملابس والأسلحة ولكى لا يعرف مكانه قتلوا الأرقاء الذين قاموا  
بعملية الحفر والدفن ليظل قبر الأريك لغزاً وسراً على مر العصور<sup>(٣)</sup> .

\* \* \*

---

(١) فشر م ٢٤ ، 1, Hodgkin, pp. 59 - 67 Dill, pp. 49 - 55; Corucelle,

Moss, pp. 799 - 805; p. 46

(٢) Moss, p. 46; Lot, p. 77

(٣) Bradley, pp. 97 - 81 Pirenne (H.) p. 29; Deanesly, pp. 17 - 8

Hodgkin, 1, pp. 806 - 9

حتى وفاة أларيك عام ٤١٠ م ، لم تسكن دولة القوط قد قامت بعد ، فلم تكن مناطق استقرارهم السابقة ، مناطق استقرار دائم ، رغم اعتراف الإمبراطورية الرومانية بهم ، وإنما كانت أقرب إلى مناطق الانتقال منها إلى أماكن الإقامة الدائمة المستقرة . هكذا كان شأنهم في شمالى البحر الأسود حيث كانوا مندمجين مع أشقائهم الشرقيين وكذلك كان الشأن فى دا كيانهم فى الأديا وأخيراً فى إيطاليا وكان يمكن أن يستقروا فى إيطاليا وأن تقوم فيها دواتهم ، لولا موت أларيك المفاجئ وأواخر عام ٤١٠ م .

تولى أمر القوط الغربيين بعد أларيك ، أخوزوجته آتولف (Ataulphus) (٤١٠ - ٤١٥ م) ، ومجرد ولايته على عرش القوط ، عدل عن مشروع الغزو الأفريقى . ويبدو أنه لم تسكن لديه مشروعات محددة ، فلم يلبث فى إيطاليا بعد وفاة أларيك أكثر من سنة ونصف ، هب خلالها تسكانيا ، ثم صمم على مغادرة إيطاليا والتوجه إلى غاليا<sup>(١)</sup> .

دخل فى مفاوضات مع الإمبراطور هونوريوس انتهت بمعاهدة عام ٤١٢ م وافق الإمبراطور بمقتضاها على الاعتراف بالقوط الغربيين كخلفاء معاهدين ، ومنحهم منطقة فى جنوب الغال هى المعروفة باسم ناربونة الغالية (Gaul Narbonnalse) ومنطقة فى أقصى شمالى أسبانيا هى تركونه الأسبانية (L'Espagne Tarraconnalse)<sup>(٢)</sup> وبما حمل هونوريوس على الموافقة على هذه المعاهدة ، رغم ما فيها من تساهل من جانب الإمبراطورية ، ورغم احتجاج قنسطنطيوس قائد عام جيوش الإمبراطورية أن جالا بلا سيديا (G. Placidia) أخت الإمبراطور كانت أسيرة فى يد القوط منذ تخريب أларيك لروما

---

(١) Halphen, pp. 20-21; Gibbon, IV, p. 124; Lot, p. 77; Mosa, p. 46

(٢) Leclercq, p. 215



عام ٤١٠<sup>(١)</sup> ، وقد وعد آتولف بإعادتها ، وهذا بجانب اختلال أحوال الإمبراطورية بسبب الهزائم السابقة ، فضلا عن الثورة التي لم تخمد بعد في غاليا حيث قام الدعى جوفينوس ( Jovius ) وأعلن نفسه امبراطورا ، لهذه العوامل ، رأى هونوريوس أن ينهى مشاكله مع القوط وأن يستأديهم لقمع الفتنة القائمة ومحاربة الجرمان الآخرين وفي نفس الوقت يبعد شرهم عن إيطاليا .

ولذلك يمكن القول إنه حين عقدت هذه المعاهدة ٤١٢ م بين الإمبراطور هونوريوس وبين آتولف ملك القوط الغربيين ، تكون دولة القوط قد قامت فعلا ، وأصبحت حقيقة ملموسة ، وذلك بالنظر إلى تاريخ القوط أنفسهم قبل ذلك العام وبعده ، فالمناطق التي سكنوها من قبل ، رغم أنهم سكنوها بمقتضى معاهدات مماثلة ، لم تثبت في أيديهم ، ولعل ذلك راجع إلى مطامع القوط أنفسهم الذين لم يقنعوا بها ، أما عند ما منحوا جزءا في غاليا وآخر في أسبانيا ، وإن جاء هذا المنح على النحو الذي منحوا به سابقا داكيا والاييريا ، وبنفس الشروط تقريبا ، فإن هذه الأجزاء أضحت نواة لدولة القوط ثم لإمبراطورية القوط ، إذ حافظوا عليها وظلت بأيديهم حتى زوال دولتهم نهائيا من التاريخ ، ولا ينقص من هذه الحقيقة أن تعرضت أملاك الدولة القوطية من بعد هذا التاريخ ٤١٢ م إلى الانقاص سواء جاء هذا الانقاص على يد الفرنجة ، أو على يد الإمبراطورية الشرقية ، لفترة ما ، يضاف إلى ذلك أن القوط ، وقد اقترن فضاهم بالظفر والغلبة في سبيل الاستقرار والبقاء ، كانوا يتطلعون ، في الواقع ، إلى الحسك في بلاد الغال ، وهي أعظم جزء اصطبغ بالحضارة الرومانية ، وهذه تتيح لهم فرصة التوسع نحو الجنوب إذ لم تكن جبال البرانس حاجزا أو مانعا يعوق تقدمهم ، فضلا عن وجود طريق ساحلى تجارى بين غاليا وأسبانيا ،

ولذلك جاءت معاهدة عام ٤١٢م محققة لآمال القوط الغربيين ، وليس لهم بعدها إلا أن يحافظوا على ما منحوا وأن يعملوا على التوسع كلما أتاحت لهم الفرصة .

حقيقة حاول آتولف أن يثبت مركز القوط في إيطاليا ، بل رغب في التوسع وتحويل الإمبراطورية الرومانية إلى إمبراطورية قوطية<sup>(١)</sup> ، وأن يجعل نفسه إمبراطوراً ، لكنه اقتنع خلال الفترة التي قضاها في إيطاليا عقب وفاة ألابريك بعجز القوط عن إتمام هذه الأمنية وحتى لو قدر لهم إقامة هذه الإمبراطورية فإنه يدرك قصور القوط عن إدارتها ، ولذلك رأى أن يغير وجهة نظره وأن يستأدى شعبه بوصفه معاهداً لخدمة الإمبراطورية وإعادة مجدها مؤملاً بذلك أن يظفر بلقب محي العالم الروماني . أو بامث العالم الروماني *Restutor* (٢) .

( *Orbis Romani* )

كلفه الإمبراطور هونوريوس في بداية عام ٤١٢م بالتوجه إلى الغال لمحاربة جوفينوس الذي أعلن نفسه إمبراطوراً . توجه آتولف إلى بلاد الغال حيث حاول الدخول في مفاوضات مع الثائر ، وبعث إليه أتالوس ليفاوضه في أمر اقتسام الغال بينهما ولما رفض جوفينوس عاد آتولف إلى مشروعه الأصلي الذي جاء من أجله ، وكان ساروس القوطي ، عدو آتولف المنيد — قد ثار ضد هونوريوس وخرج مغاضباً وجاء إلى الغال لينضم إلى الدعي جوفينوس ، فقابله آتولف وحاربه وقتله<sup>(٣)</sup> .

ولم يكد يقترب عام ٤١٣م من نهايته حتى كان آتولف سيداً على معظم جنوب الغال بما فيه المدن الكبيرة تولوز وبوردو وناريون وغيرها ، وفي ناريون التي اتخذها آتولف عاصمة له ، تزوج من بلا سيديا ، فيما يقال بموافقة هونوريوس

(١) Eyre, 15; Bryce, pp. 18 - 19, 30

(٢) Encycl, Brit., Deanesly, p. 28; Lav et Ramb. 1, p. 66

(٣) Dill, pp. 349 - 350; Lav. et Ramb., 1, p. 66; Bradley, pp. 100-101



الذى اضطر أن يقبل هذه المصاهرة ليأمن شر القوط<sup>(١)</sup> ، وبعد إلحاح من جانب آتولف الذى أبدى رغبة حارة فى مصاهرة الأسرة الإمبراطورية ليضمن من ناحية أخرى خضوع الرومان له فى الغال<sup>(٢)</sup> ، وحتى يغفر له الرومان أصله البربرى . وتم الزواج فعلا فى مطلع عام ٤١٤م رغم قيام بعض الاحتجاجات والمعارضات من جانب الرومان الذين رأوا فى زواج بلاسيديا من زعيم بربرى أمراً منافياً لكرامة الرومان عامة والأسرة الإمبراطورية بصفة خاصة ، والواقع إن زواج البرابرة من الأسرة الإمبراطورية أمر مألوف — كزواج ستيليكو من بيت تيوديسيوس ، ولم تخل المعارضة الرومانية لهذا الزواج من عوامل شخصية إذ كان قنسطانطيوس يطمع نفسه فى الزواج من بلاسيديا<sup>(٣)</sup> ، ثم أن آتولف كان يرجو من وراء هذا الزواج أن يدعم لأسرته فى العرش إذا ما رزق بورث للعرش من ابنة تيوديسيوس العظيم<sup>(٤)</sup> .

احتفل آتولف بهذا الزواج احتفالا رائعا فى ناربون ، وقد عزف أتالوس فى هذا الحفل<sup>(٥)</sup> .

بعد ذلك توجه القوط الغربيون إلى أسبانيا ، وأحوال هذه قبل دخول العناصر الجرمانية إليها ، لم تزد عن كونها مشهداً من مشاهد البؤس والفاقة ، ولا سيما فى ظل الأباطرة الرومان المتأخرين ، فأراضيها الصالحة للزراعة والاستثمار مقسمة صياعاً ( *Lutifundia* ) بين قلة من النبلاء الرومان وهم يتمتعون بكل الإمتيازات والحقوق ، ويعيشون فى ترف وعافية ، يتمتعون فى قصورهم على شواطئ الأنهار أو عند سفوح الجبال ، حيث توجد حدائق الكروم

---

(١) Courcelle, pp. 68 - 69; Zeller, p. 24; Pirenne (H.) p. 29

(٢) Bradley, p. 102

(٣) أنظر ما يلى ص ٨٩ حاشية ١

(٤) Moss, p. 40; Lot, pp. 82 - 4; Deanesly, p. 28 Leclerc, p. 216

(٥) Bradley, p. 102; Hodgkin, 1, 831

والزيتون ، وفيما عدا هذه القلة المترفة ، عاش بقية السكان أرقاءاً أو عبيداً يعملون في ضياع السادة النبلاء ، باستثناء طبقة ليست كبيرة هي الطبقة الوسطى من الأحرار ، ومثل هذا المجتمع البائس كان لا بد وأن ينهار عند أول غزوة ، ولا سيما إذا كانت من غزوات الجرمان الصاخبة ، وبدأت مطالع هذه الغزوات تبدو في الأفق منذ عام ٤٠٩ م وعجز نبلاء الرومان عن الوقوف أمامها ، بل ظلوا سادرين في مساخرهم وملاهيهم ، يطربون وبشربون<sup>(١)</sup> .

وأول من دخل شبه جزيرة إيبيريا من القبائل البربرية : عناصر الآلان الإيرانيين والسويف والوندال من الجرمان ، عبرت هذه الجموع بلاد الغال حوالي عام ٤٠٩ م وكان الآلان بقيادة ملكهم رسبارديال (Respardial) والسويف بزعامه ملكهم أرمانريك (Hermanerik) أما الوندال فكان يقودهم ملكهم جوندريك (Gunderik) . خربت هذه العناصر الغازية البلاد الإسبانية في تركونه وغاليسيا ولوزيتانيا وجزء من بايتيكا وظلوا نحو سنتين يتجولون ويخربون في إسبانيا ، حيث اقترنت أعمالهم بالقحط والوباء ، وكان الوندال أشد هذه العناصر تخريباً وتدميراً ووحشية ، وبعد قليل اقتسموا البلاد حوالي عام ٤١١ م ، فاستقر السويف وجزء من الوندال في غاليسيا ، واستقر الآلان في لوزيتانيا أما بقية الوندال فقد أقامت في بايتيكا التي صارت منذ ذلك الوقت تعرف بالأندلس نسبة إلى الوندال<sup>(٢)</sup> .

على هذا الوضع الذي آل إليه أمر إسبانيا الرومانية ، دخل القوط الغربيون ورغم ما هنالك من تحالف ومعاودة مع الامبراطور هونوريوس وأن لا تواف حقاً في امتلاك شمالي أسبانيا بمقتضى المعاهدة ، وأن من واجبه أن يعمل على تطهير أسبانيا من الغزاه الذين استقروا فيها ، فإن حسن العلاقة مع الامبراطورية لم يدم

(١) Dozy, II, pp. 4 - 13

(٢) Courcelle, p. 81, Bury, I, p. 185; Lecl., pp. 213 - 16; Pirenne,

(H.), p. 28



عند ما وطىء القوط الغربيون الأراضي الأسبانية ، فقد حدث أن قنسطنطيوس الطامع في زواج بلاسيديا ، والمستبد بأمور هونوريوس لم يطق صبراً على زواج آتولف من بلاسيديا ، فأعاد آتولف تمثيل المسرحية التي مثلها الأريك من قبل ، وهي إعلان الموسيقى وأتالوس امبراطوراً ، فجاء قنسطنطيوس على رأس جيش كبير ، وفي نفس الوقت قطعت الأساطيل الرومانية الإمدادات عن القسوط من الموانئ العالية ، وانتصر قنسطنطيوس وطارد القوط الذين فروا من نابون ، وهرب آتولف بجموعه إلى أسبانيا وأخذ ينهب البلاد التي يمر بها ، حتى استقر في برشلونه بعد أن انتزعها من الوندال عام ٤١٤ م ، فاتخذها عاصمة لأملاكه الأسبانية ومركزاً لعملياته الحربية داخل شبه الجزيرة ، وتوغل بعد ذلك داخل أسبانيا ، وفي برشلونه ولدت بلاسيديا ابناً أسماه أبواه تيودسيوس ، وكانا يأملان أن يلي هذا الولد عرش الامبراطورية الرومانية يوماً<sup>(١)</sup> ، وقد حاولت بلاسيديا إغراء زوجها بفوائد الاعتماد على مخالفة الرومان حتى يستطيع أن يكمل فتح شبه الجزيرة الأسبانية<sup>(٢)</sup> .

ويعتبر آتولف أول ملك قوطي يدخل أسبانيا ، وعند ما توفي مقتولاً على يد أحد أتباع ساروس عام ٤١٥ م ، كان سيدياً على أغلب أسبانيا ونحو ثلثي بلاد الغال . وعرف عن آتولف تمسقه للحضارة الرومانية والتقاليد الرومانية ، حتى أنه أوصى أخاه بأن يعمل دائماً على الاتفاق مع الرومان وأن يرسل بلاسيديا إلى أخيها بعد وفاته . غير أن أقلية من أتباع آتولف لم تشاركه هذا الإعجاب بالحضارة الرومانية ، ومن ثم جاءت وفاته فرصة للحزب المعارض للرومانية . ويتزعم هذا

---

(١) مات هذا الولد في برشلونه التي ولد فيها ، فخر عليه أبواه حزناً شديداً واحتفالاً بدفنه ، في كنيسة في ضواحي برشلونه ، حيث وضع في تابوت من فئدة (Bury, 1, p. 199 ; Hodgkin, 1, pp. 833 - 34)

(٢) Bradley, p. 103, Lecl, pp. 215 - 16

الحزب سيجريك (Slegeric) أخو ساروس الذي كان آتولف قد قتله من قبل<sup>(٢)</sup>. وكثيراً ما تعرضت هذه الأقلية لزوجة آتولف بالإهانة والإيذاء في حياة زوجها الذي عمل مخلصاً على حمايتها واحترامها. فما كاد يقتل آتولف حتى انتخب القوط سيجريك ملكاً عليهم (٤١٥ م) ولم ينتخبوا أخ الملك المتوفى.

استهل سيجريك عهده بقتل أبناء آتولف الستة من زوجته الأولى كما أهان بلاسيديا إهانة بالغة، بأن جعلها تسير على قدميها نحو اثني عشر ميلاً بجوار جواده<sup>(٣)</sup>، ولمكن ولاية سيجريك لم تطل، فقد لقي حتفه بعد أسبوع فقط من تملكه، على يد واليا (Wallia) الذي ولى على العرش القوطي من بعده (٤١٥ — ٤٢٠ م)<sup>(٤)</sup>.

وينتسب واليا إلى أسرة الباطنيين، وهو بذلك ثاني ملوك هذه الأسرة، والخلف الحقيقي لآتولف، من حيث ميوله واتجاهاته في الإفادة من الرومان وحضارتهم، أحسن معاملة بلاسيديا، حقيقة حارب الرومان في صدر حكمه، كما حارب السويف والوندال لبسط سلطانه داخل أسبانيا، إلا أنه عندما أصيب بقط، وفشل مشروع الغزو الأفريقي الذي فكر فيه للاستيلاء على منابع القمح، كما فشل ألاريك من قبل، حينئذ اضطر إلى مهادنة الرومان، وعرض على هونوريوس إعادة بلاسيديا، فرحب الرومان ولاسيما قنسطنطيوس، وفي نظير ذلك يمدد الرومان بالقمح، وتكون فتوحه في أسبانيا بإسم الامبراطورية، ثم الاتفاق عام ٤١٥ م، وعادت بلاسيديا إلى رافنا، حيث أرغمت على الزواج

---

(١) Hodgkin, I, p. 834; Deanesly, pp. 28 - 9

(٢) Bradley, p. 104,

(٣) Lecl., 216; Moss, p. 40; Lot, p. 84; Deanesly, pp. 28- 9



من قنسطنطينوس<sup>(١)</sup>، وأرسلت إمدادات القمح إلى القوط بعد أن كانت قد منعت فترة.

أضحى واليا يحارب البرابرة الذين استقروا في أسبانيا بإسم الامبراطورة ونجح في حروبه ، وتمكن من أسر اثنين من ملوك الوندال وأرسلهما إلى الامبراطور ، فاحتفل هذا الأخير بالنصر . أدت حروب واليا في أسبانيا إلى إخضاعها تقريباً باستثناء الجزء الشمالى الغربى منها ، وخلال حروب واليا في أسبانيا ، قاسى سكان الولايات الرومانية الكثير من العنت والإرهاق ، إذ أضحت الضيافة الإجبارية مقررة للقوط على الرومان ، وصار القوط يشرفون على أملاك الرومان ويستولون على ثلث غلتها أو ثلثيها ، واستطاع واليا أن يطرد الآلان من لوزيتانيا خلال عام ٤١٨ م ، فلبجأوا إلى الوندال في الأندلس<sup>(٢)</sup> . غير أن قنسطنطيوس ، لم يرقه أن يصبح القوط يمثل هذه القوة والنفوذ في أسبانيا ، واقترح على الامبراطور أن يعطيهم منطقة إكسيتانيا بالغال<sup>(٣)</sup> ، فقبل الامبراطور ومنح واليا هذه المنطقة واعترف به حاكماً معاهداً عام ٤١٩ م . وتشمل إكسيتانيا كل فرنسا الحالية جنوب نهر

(١) بدأ مستقبل بلاسيديا بعد عودتها إلى رافنا ، حيث تزوجت من القائد الكريه لها قنسطانطيوس ، رغم أنه أصبح شريكا للامبراطور هونوريوس في الحكم عام ٤٢١ م . وبعد وفاة هونوريوس عام ٤٢٣ م من غير وريث ، صارت بلاسيديا لمدة ٢٥ عاما الحاكم المطلق على الجزء الغربي من الامبراطورية ، وذلك خلال حكم ابنها فالنتينيان الثالث (Valentinian III) من زوجها قنسطانطيوس وعلى عهدها ظل بلاط رافنا آمنا من غزوات البرابرة ؛ كما ظلت المواصلات البحرية آمنة مع بيزنطة بفضل يقطلة الأسطول البيزنطي ، ويتميز عهد بلاسيديا بالامتزاج والاختلاط بين البرابرة ، والطبقة الرومانية الحاكمة ، ماتت عام ٤٥٠ م بعد أن بلغت من العمر ستين عاما ، ولها ضريح نفخ ضخم في رافنا تجلت فيه معالم الفنون الشرقية الإيرانية بصفة خاصة . ( Denrealy, p. 20, ) , Hodgkin, 1, pp. 823, 839 - 40, 886 - 7;

(Bury, 1, pp. 202-203; Bradley, p. 105; Lav. et Ramb., 1, p. 67

Bradley, p. 107; Lecl., p. 218; Deane'sly, p. 29 (Y)

Bradley, p 106 (r)

الوار ، وفيها من المدن الشهيرة ، بواتيية وبورد وتولوز . اتخذ واليا مدينة تولوز عاصمة له <sup>(١)</sup> .

وقد تغنى الشعراء في ذلك العصر ، بأ كويتانيا القوطية ، ووصفوها بجمهرة الغال وفردوس الأرض ، ودرة الولايات ، وأرض القمح والنبذ والزيت وهكذا ، والواقع إن واليا فرج بهذه المملكة الجديدة وآثرها عن أسبانيا المظنية ، والتي لا يطيب الاستقرار فيها من غير عناء دائم <sup>(٢)</sup> . ومن تولوز ، ظل واليا يعمل على تدعيم مملكة القوط حتى توفي في عاصمته عام ٤٢٠ م <sup>(٣)</sup> .

لم يترك واليا وريثا من بعده ، سوى ابنة ، فانتخب القوط الغربيون ثيودريك ، ثالث ملوك أسرة الشيمان ، ( ٤٢٠ — ٤٥١ م ) وهو وإن حافظ على المعاهدة مع الرومان ، إلا أنه كان يضم في قرارة نفسه العمل على توسيع مملكته وتدعيمها ، وأمر الخروج على المعاهدات مألوف في ذلك العصر ، فلا يعدم الخارج حجة يبرر بها خروجه ، رأى ثيودريك أن مملكته يحيط بها الفرنجة من الشمال والبرجنديون من الشرق ، بينما كان الرومان لا يزالون يمتلكون بعض المدن الثرية جنوب الغال مثل آرل ( Arles ) ، وناربون ( Narbonne ) وهذه تتاخم مملكة القوط من ناحية الجنوب ، انتهز ثيودريك فرصة الاشتراك مع الرومان لإخماد ثورة حنا الخارج على الامبراطورية في غاليا ، واستطاع ثيودريك أن ينتصر وأن يخمد الثورة التي انتهت بقتل زعيمها ، لكن الملك القوطي لم يلق سلاحه بعد إخماد الثورة ، بل حاصر مدينة آرل ، وحينئذ لم يسع القائد الروماني أيتيوس ( Aetius ) — وكان قد تهادن مع بلاسيديا وانها فالتنيمان الثالث بعد خروجه مع التائر — إلا أن يهاجم القوط الغربيين ويهزمهم

---

(١) Courcelle, p.117; Lav. et Ramb., 1, p. 67; Mose, pp. 47-8

(٢) Bradley, pp. 47-7

(٣) Bradley, p. 107; Lecl., p. 218; Deanesly, p. 29



ويأسر أونولف (Aunwolf) قائدهم ، ومنذ ذلك الوقت اضطربت العلاقة الرومانية القوطية ، بين الحرب والمهادنة ، وعقد الموائيق ونقضها بحسب ما يترأى لمصلحة كل فريق منهم<sup>(١)</sup> .

تطلع ثيودريك إلى مخالفة الوندال والارتباط معهم حتى يكونوا له عدة عند اللزوم ، وأقبل على هذه الخطوة فزوج ابنته من ابن جزريك ملك الوندال — وعاصمة الوندال يومئذ قرطاجنة بأسبانيا — ولكن هذه الزيجة باءت بالفشل ، نظراً لأن جزريك الوندالي ، وقد عرف بالقسوة والوحشية ، شك في إخلاص الزوجة القوطية وخشى أن تضع لابنه السم ، فجدع أنفها وقطع أذنيها وأعادها إلى أبيها<sup>(٢)</sup> .

غير أن ظروفًا خارجية عملت على تقارب القوط من الرومان ، وتلخص هذه الظروف في خطر الهون الذين اشتد تخريبهم بزعامة ملكهم أتيل ، وجاءت هذه الموجة الكاسحة من الشرق ، فارتبط الرومان مع القوط الغربيين والفرنجة والبرجنديين ، والتقت هذه الجموع المتحالفة عام ٤٥٠ م بالهون الذين اقتحموا الغال بجيش جرار بلغت عدته نحو نصف مليون جندي ، من مختلف العناصر التي خضعت لهم ، فكان من بين هذا الجيش قوط شرقيون وجيديون وغيرهم ، حاصر الهون مدينة أورليان ، لكنهم لقوا ضربة قاصمة من قبل الرومان وأحلافهم في وقعة شالون (Chalons) عام ٤٥١ م ، وقد أنقذت هذه الوقعة أوروبا من خطر الهون ، وأبلى القوط الغربيون فيها بلاءً حسناً ، حتى أن ملكهم ثيودريك قتل فيها<sup>(٣)</sup> .

---

(١) Bradley, p. 108, Lecl., pp. 225 - 26; Pirenne (H ), pp. 29 - 30

(٢) Bradley, pp. 110 - 111

(٣) Bradley, pp. 111 - 112, Lecl., pp. 225 - 28; Eyre, pp. 15 - 18

Bury, 1, pp. 291 - 6 Davis, p. 26; Lav. et Ramb., 1, pp. 71 - 2

ورغم هذا النصر الذى أسهم فيه القوط الغربيون بالنصيب الأوفى ، فإن الحقد والغيرة فى قلوب الرومان لم تتركها مجالا للارتفاع من هذا النصر القوى ، إذ سرعان ما خشى القائد الرومانى ( أينيوس ) من ازدياد نفوذ القوط ، بعد إزالة خطر الهون ، فأشار على ثورسمند ( Thorsmond ) الذى خلف أباه ثيودريك على عرش القوط ( ٤٥١ - ٤٥٣ م ) بأن المصلحة الخاصة لدولة القوط الغربيين ، تقضى عليه بالعودة إلى تولوز العاصمة ، وترك الميدان ، لأن هناك مؤامرة يدبرها إخوة ثورسمند ، عاد ملك القوط الغربيين إلى عاصمته ، تاركا ميدان الحرب ، مما أتاح لأتيلافرصة التمهق والجلاء والتوجه إلى جرمانيا دون أن يتعقبه أحد ، ولم ينقذ أوروبا من عودة الهون بعد ذلك إلا موت أتيلاف بعد هذه الواقعة بسنتين ، أما علاقة القوط الغربيين بالرومان ، فقد ازدادت سوءاً بسبب النزاع بينهم حول توزيع الغنائم التى غنموها من القوط ، فلم يقتنع ثورسمند بما أعطاه له أيتيوس<sup>(١)</sup> ، وبدأ يستعد لحرب الرومان على غير رغبة معظم قومه الذى آثر الإبقاء على الصداقة الرومانية ، وانتهت المعارضة بثورة تزعمها إخوة ثورسمند عام ٤٥٣ م أدت إلى قتله على يد أحد أخوته وتولية هذا الأخ عرش القوط الغربيين باسم ثيودريك الثانى ( ٤٥٣ - ٤٦٦ م ) .

وطبىعى أن يعمل هذا الأخ المثقف على مداراة الرومان والحفاظة على الصداقة معهم ، فجدد التحالف مع الامبراطورية ، وجهد فى إقامة العلاقات الودية ، ومن أجل الحفاظ على الود مع الرومان ، وإيفاء بشروط المهادين ، حارب ثيودريك الثانى السوييف عام ٤٥٦ م حين عبروا البرانس ، واشترك مع القوط الغربيين ، أحلاف الرومان الآخرين من الفرنجة والبرجنديين ، ودخل ثيودريك براجا ( Braga ) عاصمة السوييف من غير مقاومة ، وأمعن فى نهب

---

(١) أنظر ما يلى ص ١٠٩



البلاد السوفيقية ، بحيث أنه لم يترك مكاناً إلا خربه ونهبه ، ولم تنج الكنائس والمذابح من سطوته ، فأتخذ منها مرابطاً لخيوله ، كما قبض على الراهبات ، عاد ثيودريك من أسبانيا إلى غاليا ، تاركاً وراءه بقية الخلفاء مع جزء من جيشه ، لفتح اشتورجا ( Astorga ) وبلنسية ( Valencia ) . واسنا نبأ في أن ثيودريك فعل ما فعل من أجل خلفائه الرومان فحسب ، ولكن الحقيقة ، أن العامل الديني كان ذا أثر بارز في إشعال الكراهية بين القوط والسوييف ، فالقوط أريوسيون متعصبون لأريوسيتهم<sup>(١)</sup> ، بينما السوييف على الكاثوليكية ، ومهما كان الدافع في إمعان ثيودريك القوطي في التشكيل بالسوييف ، وأنه كان يهدف في مطلع حكمه إلى الإبقاء على علاقة الود والتحالف مع الرومان ، فإن هذه العلاقة التي رنا إليها لم تدم طويلاً أو لم تبقى على النحو الذي أراده ، فقد وقعت الحرب بين الفريقين في غاليا ، وهزم القوط أمام الرومان عام ٤٥٩م ، كما أن حياة ثيودريك نفسه قد انتهت بالقتل على يد يوريك أصغر أخوته ، وذلك عام ٤٦٦م<sup>(٢)</sup> .

---

(١) أنظر السياسة الدينية

(٢) Lot, p. 122, Leclercq, pp. 224 - 25

## الفصل الثالث

### تكوين امبراطورية القوط الغربيين في غالة وأسبانيا

يوريك وفتوحه في غالة وأسبانيا — ألابريك الثاني وعلاقة القوط بالفرنجة : وقعة قويه ٥٠٧ م — نقل عاصمة القوط إلى ناربون --- ولاية تيوديس القوطي الشرقى ملكا على القوط الغربيين وانتقال العاصمة إلى برشلونه — أجيلا وتركيز السياسة القوطية في أسبانيا ونقل العاصمة إلى مارده — أثنانا جلد وتدخل جستنيان — نقل العاصمة إلى طليطلة و بروز النفوذ البيزنطى — ليوفجلد يحاول بسط سيادة القوط على جميع أسبانيا — ركاردا الأول وتحول القوط الغربيين إلى الكاثوليكية ٥٨٧ م --- سوتلا وتقسيم الوظيفة الامبراطورية على النسق البيزنطى --- زوال السيادة البيزنطية نهائياً من أسبانيا — واما آخر ملوك القوط الغربيين المعظم .

يعتبر يوريك ( Euriol ) ( ٤٦٦ — ٤٨٤ م ) أصغر أبناء ثيودريك الأول الباطلى ، مؤسس امبراطورية القوط الغربيين في غالة وأسبانيا ، ولى العرش على جثة أخيه وسمى أبيه ، والقوط يومئذ يتحكمون في معظم بلاد الغال ، التي تقسمها الجرمان فيما بينهم ، ولم يعد للرومان فيها سوى مملكة سياجريوس ( Syagrius ) المنزلة ، وعاصمتها سواسون .

اتبع يوريك سياسة تخلف سياسة أخيه القليل وغيره ممن سبقه ، فهو يزعم الحزب القوطى الذى ينادى بأن تكون الدولة القوطية خالصة مستقلة غير تابعة للرومان أو مرتبطة معهم بتحالف ما<sup>(١)</sup> . رأى أن سلفه واليا قبل التنازل من

(١) Thompson, p. 58 ; Lecl., p. 330; Deanesly, p. 96



قبل عن حكم الولايات الأسبانية في مقابل حكم أكويتانيا ، وذلك بمقتضى اتفاق بينه وبين الإمبراطور هونوريوس<sup>(١)</sup> ، كذلك رأى تذبذب العلاقة القوطية الرومانية من بعد واليا ، ما بين الصفاء والعداء ، ولما كان هذا الوضع لا يتفق وسياسة حزبه وأهدافه ، قرر يوريك أن يحسم الموقف وأن يفصل في مصير العلاقة القوطية الرومانية في وضوح وجلاء ، وكان سريعا وحاسما ، فلم ينقض سوى عامين على ولايته العرش حتى قام بهجوم ساحق بقصد توسيع ملكه في غاليا وأسبانيا معا ، واستولى في عام ٤٧١ م على منطقة بروفانس وبرى ( Berry ) غير أنه وجد مقاومة عنيفة في هضبة أوثرني ( Anvergne ) وسط فرنسا ، ورغم انتصاره على أسطول روماني يقوده بازيلسكوس ( Basillous ) ونجاحه في الاستيلاء على مدينة بوج ( Bourges ) ، شمال هضبة أوثرني ، رغم ذلك استغرق استيلاؤه على هذه المنطقة عدة سنوات حيث اشتدت المقاومة ولا سيما لحماية مدينة كليرمونت<sup>(٢)</sup> وما حولها ، فاضطر يوريك إلى حصار هذه المدينة أكثر من مرة ، ومن الذين اشتهروا لاستبسالهم في الدفاع عنها أسقفها سيدونيوس أبوليناريوس ( Sid. Appollinaris ) والقائد الروماني نبوس إكديكوس ( N. Ecdicius ) ، نجح يوريك في إخضاع كليرمونت عام ٤٧٤ م وقبض على الأسقف ونفاه ثم عفا عنه بعد سنتين<sup>(٣)</sup> ، ولم تستسلم بقية أوثرني إلا في عام ٤٧٥ م .

---

(١) أنظر ١٠ سبق ص ٨٩ .

(٢) لهذه المدينة شهرة في الحروب الصليبية ، اذ انعقد فيها المؤتمر المنسوب إليها عام ١٠٩٥ م بتوجيه البابا اربان الثاني ، وتقرر في هذا المؤتمر الدعوة إلى الحروب الصليبية .

(٣) عن حياة هذا الأسقف أنظر ( Stevens : Sid. Appoll. pp. 161 - 164 )

(Dill, pp. 187-193 Courcelle, pp. 141 - 7 : Lav. et Ramb , 1, p. 108

وكانت الإمبراطورية الغربية ، التي توشك أن تنهار ، قد سلمت بمطالب القوط الغربيين نظراً لتعرض إيطاليا في ذلك الوقت لتهديد فرع من القوط الشرقيين ، فطلبت مساعدة القوط الغربيين ضد أشقائهم الشرقيين لإنقاذ إيطاليا<sup>(١)</sup> ، على أن يوريك لم يقتنع بما وصل إليه من فتوح ، بل تابع حروبه وأخضع قطلونيا عام ٤٧٦ م وعبر البرانس ومعه إمدادات من القوط الشرقيين جاءته من ضفاف الدانوب — كما يقول ايزدور الأشبيلي<sup>(٢)</sup> — ودخل أسبانيا واحتل معظم القسم الشمالى منها من غير مقاومة تذكر ، اللهم إلا ما أبداه بعض النبلاء من مقاومة في منطقة تركونه<sup>(٣)</sup> ، ولم يمض غير قليل حتى كان شمال أسبانيا وشمالها الشرقى وكذلك جنوبها الغربى ، وأغلب ولاية قرطاجنة الرومانية والأندلس وبعض أجزاء من لوزيتانيا<sup>(٤)</sup> ، كان ذلك كله في قبضة يوريك ، أما غاليسيا وبقية لوزيتانيا فكانتا تحت سيطرة السوييف<sup>(٥)</sup> .

وللمعروف أن الإمبراطورية الغربية نفسها قد زالت نهائياً في ذلك العام وهو عام ٤٧٦ ، وأن يوريك قد حاول فعلاً مقاومة أدواكر<sup>(٦)</sup> للجيلولة دون القضاء عليها ، ولكنه فشل ، بينما نجح من ناحية أخرى في حمل زينون امبراطور الشرق على التنازل له عن المنطقة الممتدة من الرون حتى جبال الألب جنوب نهر ديرانس (Durance)<sup>(٧)</sup> بحيث أضحي يوريك أقوى ملك في غربى أوروبا ، ويعتبر عام ٤٧٦ م السنة التي بلغت فيها إمبراطورية القوط الغربيين ذروة اتساعها إذ امتدت حينئذ من بوزاز جبل طارق جنوباً إلى نهر اللوار بفرنسا

(١) Lot, p. 122; Deanesly p. 96 (نفسه) ص ٢٩ .

(٢) أنظر النهضة الأدبية والفكرية .

(٣) Lecl., p. 231

(٤) Pirrue (H.), p. 29 ، أنظر الخريطة .

(٥) G. med H. II, p. 159

(٦) أدواكر (Odoacer) زعيم الروجيين من الجرمان الشرقيين ورئيس القوات العسكرية بإيطاليا (نفسه ص ٣٢ ؛ Courcelle, p. 197)

(٧) نهر ديرانس أحد فروع الرون (أنظر الخريطة) .



# امبراطورية التول الغربيين

٢٤٧٦

الحدود  
وليات شبه جزيرة ايبيريا العظمى

- ١- تاراكون
- ٢- غاليسيا (جاليقية)
- ٣- قرطاجنة
- ٤- لوزيتانيا
- ٥- بايتيكا (الاندلس)







شمالاً ، ومن المحيط الأطلسي غرباً إلى جبال الألب شرقاً<sup>(١)</sup> . ومركز هذه الإمبراطورية مدينة تولوز ، حيث أمسى بلاطه مقصد جميع العناصر الجرمانية المختلفة حتى من غير الجرمانيين مثل الفرس ، وقد هؤلاء جميعاً يلتصقون الحلف مع إمبراطورية القوط الغربيين ويرجون مساعداتها الحربية<sup>(٢)</sup> .

تلك هي إمبراطورية القوط الغربيين القصيرة العمر ، إذ ارتبطت بشخصية يوريك ، وهي لذلك من نوع الإمبراطوريات الشخصية التي يرتبط مصيرها بحياة مؤسسها وبانها ، والدليل على ذلك أنه بمجرد وفاة يوريك في مدينة آرل ( Arles ) عام ٤٨٤ م ، خلفه ابنه أاريك الثاني ( Ario ) ( ٤٨٥ — ٥٠٧ م ) الذي لم يكن يمثل كفاءة أبيه ومقدرته الحربية ، فهو ضعيف الخلق منحل الشخصية قصير النظر ودون معاصريه من ملوك الجرمان أمثال كلوفس الفرنجي ، فعند ما هرب سياجريوس الروماني على أثر هزيمته أمام الفرنجة في وقعة سواسون عام ٤٨٦ م والتجأ إلى أاريك الثاني ، لم يسمع الملك القوطي إلا أن سلم من التجأ إليه إلى عدوه ، فهد بهذا التصرف الدنيء ، السبيل لأن يصبح القوط وجها لوجه مع الفرنجة الأقوياء بعد زوال الولاية الرومانية الأخيرة من بلاد الغال ، تلك الولاية التي كان يمكن أن تقوم دولة حاجزة بين القوط والفرنجة ، ومن ناحية أخرى أفسح المجال إلى الفرنجة لأن يكونوا هم لا القوط الغربيون ورثة الرومان في الغال ، بل لعل أكبر صدمة حاقت بإمبراطورية القوط الغربيين على عهد أاريك الثاني هي اعتناق الملك الفرنجي للمسيحية الكاثوليكية مما فصله عن زمرة الجرمان الأريوسيين فصلاً روحياً عميقاً فضلاً عن بعد أثره في مستقبل الفرنجة بصفة خاصة ، فقد جاءت كثلثة كلوفس وقومه ضربة لازب في ذلك الوقت الذي اشتد فيه العداء

---

(١) Deanesly, pp 29 - 30; Lot, p. 157; Noss, pp. 62 - 3

(٢) Halphen, pp. 40-41; Lot, pp. 122 - 143; Leli, pp. 241 - 32

( م ٧ — دولة القوط الغربيين )

بين الرعايا الرومان وحكامهم من الجرمان ، رُحِب أولئك الرعايا بتحول الفرنجة إلى المسيحية الكاثوليكية ، فضاقت الشقة التي تفصل بين الرعية والحاكم ، وهذا ما ساعد على دوام ملك الفرنجة دون غيرهم من العناصر الجرمانية<sup>(١)</sup> .

وفعلا بدأ كلوفس حركته التوسعية ضد القوط الغربيين واتخذت حربه ضدهم صفة دينية عام ٥٠٧ م ومهد لذلك بمفاوضات مع امبراطور الشرق أنسطاسي ( ٥١٨ م ) وعقد حلفا مع البرجنديين الذين وكل إليهم مهاجمة منطقة أوفرنى على حين تولى كلوفس قيادة الجيش الأساسي وعبر نهر اللوار متوجها نحو بواتييه ، وما يذكر لأهل أوفرنى ، استبسالهم في الدفاع عنها بجانب حكامهم القوط ، على أن الوقعة الفاصلة دارت في قوبييه ( Vouglé )<sup>(٢)</sup> عام ٥٠٧ م حيث انهزم القوط وقتل أالاريك الثاني<sup>(٣)</sup> . ثم التقت الجيوش المتحالفة من الفرنجة والبرجنديين واشتركت معاً في الاستيلاء على العاصمة تولوز وإحراقها بعد نهبها ، وكان من بين المنهوبات ما عرف باسم « كنز القوط » ويتكون من الأسلاب التي كان أالاريك الأول قد استولى عليها يوم نهب روما عام ٤١٠ م ، وتابع كلوفس فتوحه في بلاد القوط الغالية ، واستولى على أشهر مدن أكويتانيا وهي انجوليم وبوردو وأخيراً على تور ، وفي نفس الوقت قام ثيودريك أكبر أبناء كلوفس بتخريب القرى القوطية ، وبهذا الانتصار أصبح كلوفس على كل ما يعرف بفرنسا الحديثة باستثناء بروفانس القوطية والرون البرجندي<sup>(٤)</sup> ، على أن كلوفس لم يستطع القضاء التام على القوط ، وإن قضى على مملكتهم في تولوز ، ويرجع

---

(١) Deanesly, pp. 96 - 7

(٢) تقع مدينة قوبييه على بعد أميال قليلة جنوب بواتييه ( أنظر الخريطة ) .

(٣) Lav. et Ramb , 1, pp. 122 - 23; C. med. H.J II, 160

(٤) Deanesly, pp 97 - 8; Lecl., p. 234; Eyre, p 45



هذا إلى المساعدة التي ظفروا بها من جانب ثيودريك العظيم ملك القوط الشرقيين في إيطاليا<sup>(١)</sup>.

كان لألاريك الثاني ولد لم يتجاوز الخامسة من عمره ، نجا من معركة قوبيه ، ذلك هو أمالريك ( Amalaric ) ورغم أنه الوارث الشرعى لأبيه ، إلا أنه لم يل العرش مباشرة بعد مقتل أبيه ، بل حكم بدلا منه جيسالك ( Gesalech ) لمدة أربع سنوات ( ٥٠٧-٥١١ م ) وهو ابن غير شرعى لألاريك الثاني ثم تولى أمالريك عرش أبيه بوصاية الكونت تيوديس ( Thoudis ) وهو قوطى شرقى من أتباع ثيودريك العظيم ، وكان ثيودريك قد تبنى حماية القوط الغربيين منذ هزيمتهم في قوبيه ، ولاسيما وأن ابنته كانت متزوجة من ألاريك الثاني وابنها أمالريك الذى ولى العرش بمساعدة جده<sup>(٢)</sup> ، ومن ثم كان ثيودريك هو الحاكم الفعلى لدولة القوط الغربيين ، وبذل القوط الشرقيون للمساعدة الصادقة لأشقائهم الغربيين ، وبفضل هذه المساعدة انتصر الغربيون على الفرنجة في وقعة آرل عام ٥١١ م وهى مدينة حصينة ذات موقع استراتيجى هام ، وبهذا النصر انفتح الطريق أمام القوط الغربيين لاختاذ ناربون ( Narbonne ) عاصمة لهم بعد تولوز ، غير أن استقرار القوط فى غاله وبقاء ملكهم فيها ، أضخى أمرا غير مضمون بعد وفاة ثيودريك عام ٥٢٦ م ، إذ غدا أمالريك منحوس الطالع ، واكتنفته الأخطار من كل جانب ، أراد أمالريك أن يضمن جانب الفرنجة أقوى أعدائه بربط بيته بالبيت الفرنجى بالمصاهرات السياسية ، فتزوج من كلوتيلدا ( Clotilda ) ابنة كلوفس ، وحاول إغراءها لاغتناق الأريوسية ، فلما أبت أساء معاملتها مما حمل أخاها شلديبرت ( Chlildbert ) حاكم باريس ، على العمل للانتقام لأخته فنزاع منطقة سبتانيا القوطية ونهبها عام

(١) Bradley, p. 125

(٢) Eyre, p. 30

٥٣١ م ، وهزم أماليك في عاصمته في نفس العام وخلص أخته ، وحينئذ هرب أماليك إلى برشلونة مركز أملاك الأسبانية ، وهناك قتل على يد أتباعه في كنيسة برشلونة بأمر تيوديس<sup>(١)</sup> .

وبقتل أماليك إنقرض فرع أسرة الشجعان ( Balts ) ومن ثم تولى الكونت تيوديس عرش القوط الغربيين ( ٥٣١ — ٥٤٨ م ) وهو كما وضع سابقا قائد قوطى شرقى ، ويدل وصوله إلى الحكم في دولة القوط الغربيين وبقاؤه فيه هذه الفترة الطويلة ، على بقاء صلة القرابة والنسب بين فرعى القوط ، ولم يكن لدى القوط الغربيين في ذلك الوقت أى أمل في الحصول على مساعدة من جانب القوط الشرقيين لضعفهم وانحطاطهم بعد موت ثيودريك واستهدافهم لمطامع جستنيان<sup>(٢)</sup> .

علاوة على عهد تيوديس بارز في تاريخ دولة القوط الغربيين ، لأنه يؤرخ لانتقالهم الرسمى من غاليا واستقرارهم في أملاكهم الأسبانية حيث صارت برشلونة عاصمة الدولة القوطية ، وهو لذلك أول ملك على القوط الغربيين يتخذ عاصمته في الأرض الأسبانية كما كان آتولف أول ملك قوطى يدخل أسبانيا من قبل<sup>(٣)</sup> وكان متزوجاً من أسبانية تملك ثروة ضخمة ، ورغم اتجاهه إلى الإصلاح الداخلى إلا أن مشاكله الخارجية قد شغلته طوال حياته بسبب مغامرات أبناء كاوش<sup>(٤)</sup> .

على أن القوط الغربيين ظلوا يمتلكون بعض البلاد الغالية وهى : نيم ( Nemes ) بيزي ( Béziers ) ، وكاركاسون ( Carcassonne ) ولم يكد يحل عام ٥٣٢ م حتى قام ولدا كلوفس وهما : شلبرت الأول وكلوثير الثانى

(١) Deanesly, p. 98; Baadley, pp. 315-17

(٢) Deanesly, p. 98; Lot, pp. 149 - 150

(٣) أنظر ما سبق ص ٨٦ .

(٤) Lecl., p. 249



( Clotaire II ) بشن الحرب على القوط في البقية الباقية من أملاكم الغالية واستطاعوا الاستيلاء على بيزي ، وفي السنة التالية اخترق الجيش الفرنجي جبال البرانس ونقل الحرب إلى نافار وأرجونة واستولى على بامبلونه ( pampelune ) ثم حاصر سرقوسة فامتنعت عليه وتلا ذلك هزيمة ساحقة للفرنجة بفضل شجاعة ومقدرة ثيودجسيل ( Theudegisil ) ابن الملك تيوديس ، فوقف بذلك تقدمهم في الأراضي القوطية الأسبانية وأكمل الفرنجة استيلائهم على منطقة بروقانس باستثناء شريط ساحلي ضيق<sup>(١)</sup> . وأراد تيوديس أن يعوض ما فقد في غاله بالتوسع في الساحل الأفريقي المقابل حيث التمس العون من الوندال ، وفعلوا استولى على قلعة سوتا ( Couta ) من الأمبراطورية الشرقية عام ٥٤٣ م واستكنه لم يستطع المحافظة عليها ثم مات مقتولا في أشبيلية عام ٥٤٨ م ، ولم يحكم ورثته وخليفته ثيودجسيل قاهر الفرنجة ، سوى عام واحد ( ٤٥٨ - ٥٤٩ م ) إذ لقي مصرعه كأبيه من قبله<sup>(٢)</sup> .

وأبرز ما يميز عهد أجيلا ( Agila ) ( ٥٤٩ - ٥٥٤ م ) ، الذي انتخبته الأرستقراطية القوطية خلفاً لابن تيوديس ، هو ذلك المنحى الجديد في السياسة القوطية ، أملاه عليه الوضع الزمني القائم ومنطق الأحداث ، وكذلك الوضع الجغرافي لدولة القوط الغربيين ، ويتلخص هذا المنحى في التنازل رسمياً عما تمسك به القوط من قبل في حكم الغاليين وتركيز سياسة القوط ونشاطهم في أسبانيا بصفة أساسية مع المحافظة على منطقة سبتمانيا التي بقيت لهم في غاله . رأى أجيلا ، بثاقب نظره ، أنه طالما كان القوط يحكمون من تولوز ، ثم ناربون ثم برشلونة التي تقع في الطرف الشمالي الشرقي في أسبانيا ، فإن سلطتهم تكاد تكون

---

Eyre, p. 50. ( ١ )

Bradley, p. 318; Lecl., pp 249 - 51; Lot, p. 150 ( ٢ )

اسمية في قلب أسبانيا ، فاستلزمت السياسة الجديدة نقل العاصمة من برشلونة إلى ماردة التي تقع على مهر جواديانا ( Guadiana ) حتى يكون في وضع أقرب إلى تحقيق مشاريعه الجديدة ، ومن هذا الوضع وجه همته إلى إخضاع حكام الأقاليم في الأندلس ، وهي وإن كانت تتبع القوط ، إلا أنها عملياً مستقلة ، ولقي مقاومة عنيفة من الكاثوليك الذين ثاروا ضده في قرطبة وهزموا وقتلوا ابنه واستولوا على ثروته ، ونظر المسيحيون إلى ما حل بالقوط باعتباره عقاباً من الله بسبب اعتدائهم على قبر القديس أكسكل ( Acaulo ) القائم عند مدخل قرطبة (١) .

على أن السخط العام الذي اقترن بحكم أجيالا بسبب هزيمته ، قد أثار نبيلاً قوطياً منافساً له وهو أثاناجيلد ( Atanagild ) . استعان هذا النبيل ضد غريمه ، بالإمبراطور جستنيان ، ولما كانت حروب جستنيان في إيطاليا ضد القوط الشرقيين في غير صالح بيزنطة بسبب ما تكبدته من خسائر فادحة (٢) ، وأن جستنيان يعمل على إعادة الإمبراطورية الرومانية بمحدودها القديمة ، فقد أسرع نابياً نداء النبيل القوطي ، وأرسل له جيشاً بقيادة ليبريوس ( Liberius ) أحد عظماء قواده . كما أرسل أسطولا صغيراً من صقلية ، ورغم كفاءة ليبريوس فإنه لم يكن من طراز بلزاريوس أو نارسس ، جاءت جيوش بيزنطة إلى أسبانيا وهدفها الفعلي تحقيق المصالح الإمبراطورية لا القوطية ، فاستولت على المنطقة الجنوبية الشرقية وأهم مدنها ، قرطاجنة وملقة ( Malaga ) وقرطبة وأسيدونا ( Assidona ) وغيرها ولم يجد البيزنطيون في فتوحهم هذه عقبات تذكر ، لأن أغلب السكان من الكاثوليك وبفضل مساعدة الجيش البيزنطي انتصر أثاناجيلد على منافسه قرب أشبيلية . فتهقر أجيالا إلى عاصمة حيث قتله أتباعه قام ٥٥٤ م (٣) .

(١) Lecl., p. 251; Lot, p. 150

(٢) أنظر فشر ( نفسه ) ص ٤٨ — ٥٠ .

(٣) Halphen, pp. 102 - 301 ; Oman, p. 133; Moss, p. 100; Lecl.,

pp. 251-52; Deanesly, d. 99 ; Bury, II, pp. 286 - 28



تولى أثناجيلد العرش ( ٥٥٤ — ٥٦٧ م ) وهو من أقدر حكام القوط خلال القرن السادس الميلادي ، غير أنه دفع ثمن عرشه بفقده ولاية بايتيكا ( Baetica ) — وهي الأندلس — وجزء من ولاية قرطاجنة ، فقد عادت هذه كلها إلى حكم الرومان الذين ولوا عليها عاملاً رومانياً بلقب الحاكم العسكري لأسبانيا ( Magister Militum Spaniae ) وكان من نتيجة هذا أن نقل أثناجيلد عاصمة ملكه من ماردة في الجنوب إلى طليطلة <sup>(١)</sup> شمالاً ، وهي في قلب أسبانيا في موقع متوسط يمكن القوط من سهولة الإشراف على أملاكهم فضلاً عن سهولة التوسع ، وجاء اختياره لها في غاية التوفيق <sup>(٢)</sup> .

وربما كان أثناجيلد قد اعترف بسيادة بيزنطة لأن النفوذ التي سكتها كانت تحمل صورة الإمبراطور ، ومع ذلك فإن عهده امتاز بالعمل على إصلاح الغلطة التي أدت به إلى طلب للمساعدة من البيزنطيين ضد منافسه أجيلا ، أما نتائج هذا العمل فلم تظهر إلى في عهده سيست وسونثلا فيما بعد <sup>(٣)</sup> . أما علاقته بالفرنجة فدلّت على أنه لم يشاطر بعض أسلافه خطة العداء معهم ، بل عمل على محالفتهم ودعم هذا التحالف بالمصاهرات السياسية حين زوج ابنته الجميلة العنبرية برونهلد ( Brunhilde ) ، عام ٥٦٦ م من سيجبرت ( Sigobrt ) ملك استراسيا ، وازداد نفوذ سحرها وجمالها على زوجها بسبب اعتناقها للكاثوليكية ، وعمات من ناحيتها على تزويج أختها جالسونثا ( Galawintha ) من أخى زوجها وهو شلبرك ( Chilpéric ) ملك سواسون ، ولم تلبث هذه الأخت الأخرى أن تموت

---

(١) طليطلة مدينة صغيرة وهي قديمة عرفها الرومان باسم ( Toletum ) حين استولوا عليها عام ١٩٢ ق.م ، وعرفت هذه المدينة التي نمت وازدهرت على عهد بني أمية باسم «التغر الأدنى» ( الحلال السندسية ص ٣٦٣ ، نفح الطيب ج ١ ص ٧٧ ) .

(٢) C. med. II, II, pp, 163-4; Lot, p, 150; Oman, p, 134; Lynch, p, 26

(٣) أنظر ما يلي ص ١٠٧ — ١٠٨ .

إلى الكاثوليكية ، ولم يعرف أبوها شيئاً عن هذا التحول ، والمعروف أن الفرنجة رحبوا بهذه المصاهرة بل رأوا فيها تشریفاً لهم نظراً لما بلغه بلاط طليطلة من فخامة وروعة وقوة فاقت بلاط الفرنجة ، وإنه مما يرفع من أقدارهم الارتباط الدموي بسادة الغال القدماء ، ونجحت سياسة أثاناجيلد في أنها حالت دون توغل الفرنجة في سبانيا القوطية في الغال<sup>(١)</sup>.

وظل حكم أثاناجيلد هادئاً ، فيما عدا مطاردة للبسقاويين إلى ناغار في الشمال ، ثم مات في طليطلة عام ٥٦٧ م مئة طبيعية ، وهو أول ملك قوطي يموت هذه المئة منذ يوريك ، بينما قتل الخمسة الذين سبقوه<sup>(٢)</sup>.

وتتميز الفترة التي تلت وفاة أثاناجيلد باشتداد النزاع الحزبي بين القوط ، فقد وجد حزبان يناقضان بعضهما البعض كل التناقض : حزب يشايح الحضارة البيزنطية ( Pro-Byzantine ) ، ويتشبه بها ويوالى بيزنطة ، وحزب وطني يحث متحمس للقوطية ( Pro-Gothic ) والنزاع بين هذين الحزبين قديم يرجع إلى عهد آتولف ، اقتسم الحكم في هذه الفترة أخوان لأثناناجيلد هما : ليوفا ( Leova ) ، ليوفجلد ( Leovgild ) ورغب الأخوان صادقين في الاكتفاء الذاتي والاستقلال التام للدولة القوطية ، ولما كان ايوفادوقا على ناربونه فقد انتخبه الغاليون ملكاً على الأملاك القوطية في غالة ، غير أن كونتات أسبانيا قاوموا هذا الترشيح ورغبوا في أن ينفرد الأخ الآخر بالحكم ، وبعد حروب بين الأخوين اشتركا في الحكم معاً<sup>(٣)</sup> ؛ ليوفا في الأملاك الغالية وليوفجلد في أسبانيا . ظل الأخوان قسامين في السلطة لمدة أربع سنوات حتى توفي ليوفا عام ٥٧٢ م فانفرد ليوفجلد بالحكم وظل حتى عام ٥٨٦ م<sup>(٤)</sup>.

---

(١) Lecl., pp. 252 - 53; Deanesly, p. 99

(٢) Bradley, pp. 319 - 20

(٣) Oman, p. 135

(٤) Deanesly, p. 99



ومع رغبة ليوفجلد في أن يحكم مستقلا عن النفوذ البيزنطى ، فإنه لم يلبث بعد انفراده بالحكم غير قليل حتى هجر الزى العسكرى القوطى وتوج نفسه على النسق البيزنطى لباساً زى الأباطرة البيزنطيين : الطيلسان الحريرى المقصب والحلى بالجواهر كما ضرب عملة ذهبية تذكاراً لهذا التتويج<sup>(١)</sup>.

كان هدف ليوفجلد يتلخص فى بسط سلطانه التام على جميع أنحاء شبه جزيرة إيبيريا وهو هدف بعيد المرمى لا يتحقق إلا إذا تغلب على جميع العناصر المناوئة والمشاركة له فى حكم إيبيريا ، فهناك الإغريق فى جنوب أسبانيا ، وهناك البسقاويون فى الشمال ، وسلطة القوط الغربيين على السوييف فى غاليسيا إسمية ، ولعل أعنف العقاب التى لم يستطع التغلب عليها هى مقاومة النبلاء الأسبان والأساقفة الكاثوليك داخل دولته وسط أسبانيا .

نجح ليوفجلد فى طرد البيزنطيين من بعض المدن التى يحتلونها مثل اسيدونيا (مدينة سيدونيا) وملقه وقرطبة عام ٥٧١/٥٨٢ م ، ولما ثارت قرطبة عام ٥٧٢ م أقام فيها مذبحة كبيرة جعلتها عبرة لغيرها من المدن التى خضعت واضطهد الكاثوليك وصادر ونكل ، بحيث تعد الفترة التالية فترة مذابح وتعذيب<sup>(٢)</sup> ، وامتدت الثورات من جانب النبلاء إلى طليطلة ، وذلك فى الوقت الذى كان يحارب فيه السوييف وأحلافهم من السكانتيريان بزعامة مير (Mir) ملك السوييف ، وفى نفس الوقت أعلن الفرنجة الحرب على القوط وغزو اسبانيا كما أرسلوا أسطولاً إلى غاليسيا لإثارة السوييف الخاضعين للقوط ، غير أن ليوفجلد تمكن من تحطيم هذا الأسطول ، كما تمكن ابنه من رد غزوة فرنجية فى نابونة<sup>(٣)</sup> ، واختتم ليوفجلد عهده بمطاردة الكاثوليك واضطهادهم حتى أنه

---

(١) Lecl., pp. 253 - 4

(٢) Lecl., p. 245

(٣) Deanesly, p. 100; Lot, pp. 179 - 180, Oman, pp. 135-6

أعدم ابنه<sup>(١)</sup> ، ويعد ليوفجلد من عظماء ملوك القوط الذين اقترن عهدهم بالانتصار والقوة وسعة رقعة الدولة القوطية .

أما ابنه ركارد ( ٥٨٦ - ٦٠١ م ) فأراد أن يضع حداً للتوتر القائم بين القوط الأريوسيين وبين الرعايا الكاثوليك ، فأعلن اعتناقه للكاثوليكية عام ٥٨٧ م بعد عشرة شهور فقط من ولايته للحكم ، وعمل بهذا التحول على إقامة علاقة ودية مع البابا جريجورى الأول<sup>(٢)</sup> ، واتخذ لنفسه لقب : فلافيوس العظيم ( *Flavius Glorissimus* )<sup>(٣)</sup> ، ووجد هذا اللقب في القانون الذى أصدره وأضافه إلى مجموعة القوانين التى أصدرها الأريك الأول باسم ( *Breviaire* )<sup>(٤)</sup> ، كما وجد فى اللوحة التذكارية التى نقشتم تخليداً لتحوله إلى الكاثوليكية بكتدرائية طليطلة<sup>(٥)</sup> ، حاول ركارد أن يجعل عهده هادئاً كي يتفرغ للأخذ بمعالم الحضارة البيزنطية ووسائلها ، فخطب ود الفرنجة طالباً الزواج من أخت ملك استراسيا ولكنه رفض<sup>(٦)</sup> ، ومع هذا الرفض فقد استمر ركارد يعمل لتحقيق أهدافه السلمية فأوغل فى استعمارة مظاهر الحضارة البيزنطية

---

(١) Lynch, pp 26-8, C. med. H., II, p. 168 أنظر السياسة الدينية .

(٢) Lav. et Ramb., I, pp. 249 - 250

(٣) اتخذ ركارد هذا اللقب تشبهاً بالباطرة الفلايين ( *Flavian Emperors* ) الذين حكموا خلال النصف الأخير من القرن الأول الميلادى ( ٧٩ - ٩٦ م ) واشتهروا فى تاريخ الامبراطورية الرومانية القديمة ، وذلك بقصد زيادة التقريب بين الرعايا الرومان وحكامهم الجرمان ، ومن ملوك الجرمان الذين اتخذوا هذا اللقب ( *flavius* ) الملك أوثارس ( *autharis* ) اللومباردى ، حوالى ذلك الوقت ، وكذلك قيل عن أدواكر من قبل . وكلمة ( *flavius* ) مأخوذة من لفظة ( *Flavus* ) بمعنى أشقر الشعر ( *Frank, pp. 444- 461; Hodgkin, I, pp. 5-6* ).

(٤) انظر التشريعات القانونية فيما يلى

(٥) أنظر هذا النص فى السياسة الدينية

(٦) Bradley, pp. 331-32, Lecl., p. 279



وقرر استخدام اللغة اللاتينية في الدواوين وفي العبادة ، كما سوى بين رعاياه من القوط والرومان .

ومنذ عهد ركارد صار ملوك القوط الغربيين على الكاثوليكية باستثناء ويترك — Witterlo — ( ٦٠٣ — ٦١٠ م ) ذلك النبيل القوطي الذي ظل على أريوسيته وقتل ليوقا الثاني ( ٦٠١ — ٦٠٣ ) ابن ركارد<sup>(١)</sup> وتولى بعده ، ولكنه فشل في إعادة الأريوسية إذا انتهت حياته بالقتل<sup>(٢)</sup> ، وخلفه جوندمار ( Gundemar ) وهو نبيل قوطي آخر رشحه الكاثوليك ( ٦١٠ — ٦١٢ م ) فكان طبيعياً أن يعمل على تدعيم المذهب الكاثوليكي ، فهو كاثوليكي متحمس ورئيس لحزب الكنيسة ، ولم يمكث في العرش سوى سنتين قضاهما في محاربة البسقاويين ومحاولة طرد البيزنطيين من أسبانيا ، ومات مقتولاً<sup>(٣)</sup> .

والذي يهمنا بصدد العمل على إزالة السيادة البيزنطية من أسبانيا ، هو خليفة جوندمار ، وهو سيسبت ( Sisebut ) النبيل القوطي الملقب ( ٦١٢ — ٦٢١ ) والقائد الحربي الكفء والعبقري الممتاز ، من طراز ليوفجلد ، ثم سوثيلا . وينفرد سيسبت من بين ملوك القوط بأنه كان ذا نشاط أدبي ملحوظ<sup>(٤)</sup> . حارب البسقاويين والاشتوريين الذين ثاروا ، ومن قواده البارزين في هذه الحرب اثنان هما : رشيلا ( Reohila ) وسوثيلا ( Swinthila ) ، ثم تقدم شمالاً حتى عبر البرانس ، لكنه اضطر إلى العودة لمحاربة جيش بيزنطي وانهصر عليه ، فاضطر الإمبراطور هرقل ( ٦١٠ — ٦٤١ ) الذي كان منشغلاً يومئذ بالخطر

---

(١) جاء تسلسل الملوك من ليوفجلد إلى ابنه ركارد إلى حفيده ليوقا الثاني فريدا وشاذا في سلسلة ملوك القوط الغربيين ، فهذه هي المرة الوحيدة التي ولي فيها ثلاثة ملوك من الجد إلى الحفيد .

(٢) Oman, pp. 143-221, Lecl., pp. 295-6, Deanesly, p. 103

(٣) Deanesly, p. 103, Oman, p. 222

(٤) أنظر التمهضة الأدبية والفكرية

الفارسي ، إلى طلب الصلح وعقد معاهدة تنازل بمقتضاها عن الأملاك البيزنطية على الساحل فيما عدا منطقة صغيرة غربي جبل طارق<sup>(١)</sup>. وبمجرد أن وضع سيديت يده على الموانئ الساحلية ، عمل على بسط سيادته على التجارة الرابحة فيها وعلى التجار اليهود الذين يتحكمون في التجارة ، وكانت تجارة البحر الأبيض في قبضة اليهود السوريين والبيزنطيين ، بل إن كلمة « يهودي » كانت ترادف في عرف الكتاب المعاصرين يومئذ كلمة « تاجر » وهؤلاء يعيشون بأعداد ضخمة في أسبانيا ، منذ عهد الإمبراطورية الرومانية القديمة<sup>(٢)</sup>.

على أن زوال سيادة بيزنطة نهائياً من أسبانيا جاء على يد الملك سوتشلا (٦٢١ - ٦٣١) الذي انتزع العرش من ركارد الثاني بن سيديت بعد شهور قليلة من ولاية ركارد العرش ، والمعروف أن الدوق سوتشلا كان أحد قادة سيديت البارزين في حروب البسقاويين<sup>(٣)</sup> ، جدد سياسة البطش والقوة ضد المشكوك في ولائهم نحو الملك حتى يتفرغ لجعل سيادة القوط على جميع أسبانيا حقيقة واقعة ، ومن ثم التفت إلى ما تبقى لبيزنطة من أملاك في أسبانيا واستولى عليها فدخل كثير من البيزنطيين في خدمة الجيش القوطي<sup>(٤)</sup> ، كما طرد البسقاويين إلى ماراء البرانس عام ٦٢٤ م ، بحيث أصبحت أسبانيا كلها بعد ذلك خالصة للقوط<sup>(٥)</sup> ؛ ومن أجل هذا يعتبر سوتشلا أول ملك حكم شبه الجزيرة الأسبانية كلها<sup>(٦)</sup>.

---

(١) Deanesly, p. 103, Lecl, pp, 297 - 8

(٢) Dozy, II, pp. 26 - 8, Lecl., p. 299 أنظر السياسة الدينية والمجتمع

القوطي فيما يلي

(٣) هناك من الكتاب من يقول إن سوتشلا من أبناء ركارد الأول (Bradley, p. 335)

(٤) Bradley, p. 335

(٥) Lecl., p. 301, Deanesly, p. 104

(٦) Bradley, p. 335



ولسكى يضمن سوثلا بقاء العرش في أسرته ، على غير ما ألفه القوط . ،  
أشرك معه في الحكم ابنه ريسمر ( Ricimer ) وكان عمره سبع سنوات ،  
وزوجته ثيودورا ( Theodora ) ، وكذلك أشرك أخاه جيلا ( Gella ) وذلك  
على الطريقة البيزنطية<sup>(١)</sup> ، ولما لم يألف نبلاء القوط وأساقفتهم هذا الوضع ،  
وهؤلاء وألئك أصحاب السلطة الحقيقية في دولة القوط ، فقد اعتراضوا على  
هذا التدبير وأصروا على بقاء الملكية القوطية انتخابية في أيديهم ولا سيما وأن  
سوثلا كان كريهاً لطبقة النبلاء بسبب ميوله الشعبية إذ رعى طبقة صغار  
الملاك الأحرار من القوط الذين كانوا ينقضون بالتدريج نتيجة لارتماثهم  
في أحضان جيرانهم الأقوياء على النحو الالجابي الأقطاعي<sup>(٢)</sup> ، حتى أنه لقب  
من أجل هذه الرعاية ولسكثرة أعمال البر التي قام بها : « أبي الفقراء »<sup>(٣)</sup> ،  
والواقع إن سوثلا كان يرمى من وراء سياسته هذه إلى الحد من نفوذ النبلاء  
والأساقفة<sup>(٤)</sup> . لم يسع النبلاء إلا أن ثاروا بزعماء سيسناند ( Sisnand )  
عام ٦٢٩ م حاكم سبتمانيا القوطي ، استعان الثائرون بالفرنجة نظير ادطائهم أمن  
شيء في خزانة القوط وهو « وعاء أو منضدة ذهبية صناعة رومانية مطعمة بالجواهر  
وتزن ٥٠٠ رطل وهذه كانت نصيب القوط من الغنائم التي استولوا عليها مع  
الرومان من أتيليا ملك الهون منذ عام ٤٥١ م على عهد ثورسمند . نجح سيسناند

---

(١) ابتدع الامبراطور دقلديانوس ( ٢٨٤ — ٣٠٥ م ) تقسيم الوظيفة الامبراطورية  
بين أربعة أشخاص : اثنين كل منهما بلقب اغسطس يعاونهما اثنان بلقب قيصر ، على أن يحل  
القيصران محل الأغسطسين ، إلا أن الحوادث في التاريخ البيزنطي أثبتت أن هذه الطريقة فاشلة  
نظرا للنزاع الذي كان يحدث بين أقسام السلطة ، فنقضى على هذا النظام تدريجيا حتى منذ وفاة  
مبتدعه ( أنظر فوسر ( نفسه ) ج ١ ص ٣ )

(٢) يعرف هذا الأسلوب الإقطاعي في المصطلح الإقطاعي باسم « الألباء » —  
( Feudalisation ) ( بحث للمؤلف عن النظام الإقطاعي المقارن تحت الطبع ) .

(٣) Oman, pp. 223 - 24

(٤) Bradley, p 335

في طرد سوثلا بمساعدة الفرنجة وتولى العرش مكانه عام ٦٣١ م وتوج  
في سرقوسة ، ثم قرر مجلس طليطلة الرابع الذي انعقد في عام ٦٣٣ م كتدرائية  
القديسة ليوكادى حرمان سوثلا وأمرته من ولاية العرش ، وأعلن أن الملكية  
انتخابية في يد النبلاء والأساقفة<sup>(١)</sup> .

ولما أراد الملك القوطي الجديد أن يفي بوعده وأعطى سفراء داجوبرت ملك  
الفرنجة هذه التحفة الثمينة ، عز على كونتات القوط أن يخرج هذا الكنز من  
بلادهم وصمموا على الحيلولة دون رجوعه ، وحينئذ اضطر سيسناند إلى إرسال مبلغ  
ضخم من المال بقدر بنحو ١٤٠ ألف جنيه استرليني كبديل لما اتفق عليه<sup>(٢)</sup> ،  
ونظراً لأن سيسناند هو مرشح مجلس طليطلة ، فقد ظل حكمه هادئاً .

وبعد وفاته عام ٦٣٦ م انتخب المجلس شنتلا أو كندلا ( Chlutila ) ( ٦٣٦ —  
٦٤٠ م ) وهو أخو الملك المتوفى<sup>(٣)</sup> ، ومن الطبيعي أن يكون مرشح المجلس  
أداة طيعة في يده ، وقد أثبت شنتلا هذه الحقيقة ، إذ كان دائماً عند حسن ظن  
المجلس به ولا سيما الأساقفة من أعضائه<sup>(٤)</sup> .

والواقع إن سلطة الأساقفة في ذلك الوقت كانت قد ازدادت وطلعت على  
سلطة أقرانهم من النبلاء المدنيين ، مما أثار الحقد في نفوس المدنيين وعولوا على  
التكتل معاً وتنظيم صفوفهم لمقاومة نفوذ رجال الدين ، والعمل على اتباع سياسة  
قومية أكثر نفعا لبلادهم<sup>(٥)</sup> ، فلما شعروا بقوتهم في عام ٦٤٢ م أعلنوا في المجلس  
مرشحاً جديداً هو شندسونث ( Chindaswinth ) وطردها توجلا ( Tugla ) ابن

---

(١) Deanesly, p. 104, Lecl, pp. 299 - 306

(٢) Oman, pp. 224-25

(٣) Lecl, pp. 310 - 12

(٤) Bradley, p. 338

(٥) Deanesly, p. 134



شنتلا وألجأوه إلى الدير<sup>(١)</sup>، على أن الملك الجديد ما كاد يتربع على العرش حتى أشرك ابنه ركسوث في الحكم ٦٤٦ م وبدا حكماً إرهابياً للضرب على أيدي النبلاء لكي لا يكون العرش العوبة في أيديهم فقفى على نحو مائتين منهم بالقتل والنفي والاسترقاق ومصادرة الثروة ، كما قضي على نحو ٥٠٠ من الطبقة الوسطى ، وهربت عائلات هؤلاء النبلاء كما هرب عدد من رجال الدين ، ومن ثم دعا مجلس طليطلة السابع للانعقاد عام ٦٤٦ م لإقرار الأحكام التي أصدرها ونفذها ، فلم يعترض أحد<sup>(٢)</sup>.

وبعد هذا العنف الذي استهل به حكمه عاد إلى الهدوء واللين بدليل أنه استطاع أن يتفرغ لشئ بعض الحملات الحربية ضد البسقاويين الذين لم يكفوا عن غزو أسبانيا ، ثم منح الكنائس كثيراً من العطايا<sup>(٣)</sup> ، وبعد سبع سنوات من الحكم تقدم الأساقفة بالتماس له ليتنازل عن العرش لابنه ركسوث ، وربما كان هذا بإيعاز منه ، خشية قيام ثورات عند وفاته ، وليضمن العرش لابنه ، فرحب بهذه الفكرة وتوج ابنه عام ٦٤٩ م بحضور النبلاء ورجال الدين ، وقضى شندسونت بقية حياته في أعمال البر حتى توفي عام ٦٥٣ م فانفرد ابنه بالحكم (٦٧٢ - ٦٥٣)<sup>(٤)</sup>.

وربما كانت الخطوة الهامة المكتملة في سياسة التقريب بين القوط والرعايا الرومان بعد اعتناق القوط الكاثوليكية منذ عهد ركارد الأول ، هي ما اتخذته الملك ركسوث في السنة الثانية من حكمه ، إذ أصدر مجموعة من القوانين أباح

---

(١) Lecl, p. 313, Oman, p. 225

(٢) Lecl, pp. 314 - 15, Oman, p. 226

(٣) Lecl, p. 316, Oman, p. 227, Deanesly, pp. 104 - 5

(٤) Bradley, p. 339

فيها الاختلاط بين العنصرين القوطي والروماني ، ذلك الاختلاط الذي كان محرماً بمقتضى قوانين ألابريك الثاني<sup>(١)</sup>.

وآخر ملك عظيم في سلسلة ملوك القوط الغربيين هو الملك وامبا (Wamba) (٦٧٢-٦٨٠ م) فقد كان الملوك الأربعة الذين خلفوه ، والذين اختتم بهم تاريخ القوط كدولة ذات كيان سياسي غير قادرين على حماية دولتهم نظراً لازدياد الأخطار من الخارج وازدياد التفكك الداخلي .

أما وامبا فقد كان طاعناً في السن ، ورفض في أول الأمر تحمل أعباء العرش القوطي حين عرضه عليه النبلاء ، وكانوا حول فراش الملك السابق ركسوث حين كان يلفظ أنفاسه الأخيرة في بلد الوليد<sup>(٢)</sup> (Valladolid) فأشار عليهم بانتخاب شاب يستطيع تحمل أعباء الملك ، وتمسك بالرفض حتى انبرى أحد ضباط القصر وأخرج حرقته وأشهرها في وجه وامبا صائحاً : « وامبا ! إن تغادر هذه الغرفة إلا ميتاً أو ملكاً » ، ولما أیده الحاضرون لم يسمع وامبا إلا القبول<sup>(٣)</sup> ، ويقال إن أحد أعضاء المجلس صاح « وامبا الملك ، هو وليس غيره » (Wamba Roi, Lui et nul autre) ؛ وردت الجماهير هذه العبارة التي سمعتها فقبل وامبا الملك ، ومن ثم دخل طليطلة حيث أقيم حفل التتويج<sup>(٤)</sup>.

واجهت وامبا ثورة قام بها الدريك (Ilderio) النبيل القوطي حاكم نيم في غاليا ، وقد ساعده أسقف ماجولون (Magneuxonne) واليهود الذين هربوا من أسبانيا ، كما استعان بالفرنجة وأثار البسقاويين ، ولما احتج أسقف نيم

---

(١) Oeuvres, p. 105 أنظر التشريعات القانونية .

(٢) (Valladolid) أطلق عليها العرب بلد الوالي ثم حرفت إلى بلد الوليد ولا علاقة لهذه التسمية بشخصية تسمى الوليد أو غيره . (الحلل السندسية ص ٢٣٨) .

(٣) Bradley, p. 343

(٤) Lecl, pp. 335-6



على سلوك الثائر قيده في السلاسل وعزله وعين مكانه رانيمر ( Ranimer )  
أحد رؤساء الأديرة .

كان وامبا حينئذ في منطقة كانتيريان يجهز لحلة ضد البسقاويين الأعداء  
التقليديين لملوك القوط ، فأرسل لإخماد الثائر حملة بقيادة السكونت بولص  
( Palans ) ، وهو إغريقى خائن ، ممن خدموا في الجيش القوطى على أثر زوال  
السيادة البيزنطية من أسبانيا ، غير أن بولص انضم إلى الثائرين فاقتاروه ملكا  
عليهم ٦٧٣ م ، ولم يمض وقت طويل حتى كانت الأجزاء الشمالية الشرقية من  
المملكة القوطية في قبضة الثائر ، أخذ الثائر لقب ملك الشرق وترك لوامبا  
لقب ملك الوسط ( Roi du midi ) وتوج بولص في نار بون ، لم يسع وامبا  
إلا الخروج بحملة قوية اخترق بها بلاد الثائر واستولى عليها واحدة بعد أخرى  
وانتصر على الخائن وقبض عليه وجيء به مشدوداً من شعره إلى جوادين إلى  
معسكر وامبا حيث وعده الملك بعدم القتل<sup>(١)</sup> ، وكان من بين المقبوض عليهم  
أسقف قوطى وقسيس رومانى ، ١٧ كونتا قوطيا و ٧ كونتات من الرومان<sup>(٢)</sup> ،  
شهر بهؤلاء في شوارع طليطلة بعد خلع شعور لحام ورؤسهم وأمامهم بولص  
وعلى رأسه تاج من جلد<sup>(٣)</sup> ، وحوكم الثائرون في طليطلة أمام مجلس عسكري  
برئاسة الملك وعضوية كبار الضباط وقررت المحكمة إدانتهم بعد اعترافهم  
بالجريمة ثم طلبت إعدامهم ، ومصادرة أموالهم ، ولكن الملك احتفظ بوعده  
لبولص ، وقرر استبدال الإعدام بالسجن مع زملائه طوال حياتهم<sup>(٤)</sup> .

---

Oman, pp 228-30 (١)

Bradley, p. 344 (٢)

Lynch, pp. 39 - 40 (٣)

Lecl., pp. 337-8; Bradley, pp. 347-8; Deanesly, pp. 105-6 (٤)

( م ٨ — دولة القوط الغربيين )

ولما أحس وامبا بضعف الروح الحربية عند القوط ، أصدر قانونا جديدا يقضى فيه بتعميم الخدمة العسكرية في وقت الحرب ، فليس من الضروري أن تقتصر على الأحرار، كما كان الشأن سابقا، ولذلك جند الرقيق كغيرهم سواء بسواء ، كما أنه لم يعف رجال الدين من جميع الرتب ، من هذه الخدمة<sup>(١)</sup> ، غير أن هذا الإجراء وإن جاء متأخرا ، إلا أن دلالاته بالغة على ما آل إليه أمر القوط من ضعف أواخر عهد وامبا ومحاولة هذا الملك الإصلاح .



## الفصل الرابع

### نهاية دولة القوط الغربيين

تتقد مشاكل أسبانيا القوطية — ضعف الروح العسكرية — ضعف الملوك من بعد وامبا إرفنج ومؤامرة وصوله إلى العرش — شدة وطأته على اليهود — اجيكا وتآمر اليهود — وتيزا والهدء النسي — لوذريق وانقسام المجتمع القوطي — ظهور العرب والفتح العربي وإزالة دولة القوط ٨٩٢ (٧١١ م) — أسباب سقوط القوط الغربيين — مدى سيادة العرب على أسبانيا القوطية — مصير العنصر القوطي في التاريخ .

تقدر الفترة التي تلت وفاة وامبا بواحد وثلاثين عاما ، ولي العرش خلالها أربعة ملوك ، وليس في عهود هؤلاء الأربعة ما يستحق الذكر سوى بروز مشكلات أسبانيا القوطية ، والمساواة السكمانية في نظام الحكم فيها . حقيقة ليست هذه المساواة جديدة على هذه الفترة الأخيرة من تاريخ القوط الغربيين ، ولكنها مع إزمانها لم تستطع أن تجدد لها علاجاً أو حتى مسكناً مؤقتاً ، لافتقارها إلى ملك أو حاكم من طراز وامبا أو ليوفجلد أو ركارد الأول أو غيرهم من الحكام الأقوياء .

ويمكن تلخيص هذه المساواة في النزاع المستمر على العرش وقيام المؤامرات ومشكلة توحيد العناصر الخاضعة للقوط والتأليف بينها ؛ وضعت هذه بصفة خاصة أواخر القرن السابع الميلادي ، ويبدو أن العلاج الناجع لها بدا يظهر من الخارج وليس من الداخل ، حين بدا خطر العرب يلوح في الأفق . استولى العرب على طنجة عام ٦٨٩ م ( ٧٠ هـ ) ، وصحب هذا استيلائهم على

مرطانية ، وكان ينبغي أن يكون هذا نذيراً لإسبانية القوطية ، ولكنها كانت في شغل بهذه المساويء التي مزقتها<sup>(١)</sup> . ثم إن أسطولا عربياً هدد سواحل إسبانيا رغم وجود الحاميات القوطية ، غير أن القوط بعد هذه الإقامة الطويلة في إسبانيا ، وتقدر بنحو ثلاثة قرون تقريباً ، ثم ما تخلل هذه الفترة من حروب داخلية ونزاع دموي ، سواء أكان بين القوط أنفسهم أو بينهم وبين البيزنطيين أو رعاياهم من السويث أو غيرهم من البسقاويين ، أدى كل هذا إلى ملل القوط الحياة الحربية العنيفة ، فعدوا أقل استعداداً لخوض غمار حرب طويلة ، وازداد ضعف الروح العسكرية بينهم ، وكان المبدأ في الخدمة العسكرية أن جميع الأحرار من الرومان والقوط والسويث مكلفون بالخدمة الحربية ، ولكن كثيراً من رجال الجيش قد هجره ولجأ إلى الانخراط في سلك رجال الدين فراراً من الخدمة العسكرية ، وهذا ما حدا بالملك وامبا إلى تعميم الخدمة الحربية<sup>(٢)</sup> ، وعلى الأقل وقت الحرب ، وألغى جميع الإعفاءات القديمة الخاصة برجال الدين ، كما فرض على كبار الملاك بأن يجندوا ويسلحوا عشر من عندهم من العبيد<sup>(٣)</sup> ، ونظراً لضعف الروح العسكرية بدا مثل هذا الإجراء شاذاً في مجتمع نسي حياته الحربية الأولى ، وأخذ الترف منه كل مأخذ مما يحقق ما قرره فيلسوف مؤرخي العرب ابن خلدون من أن الدول تهزم إذا ما ركنت إلى الدعة والترف<sup>(٤)</sup> . ومع ذلك فلم ينفذ هذا القانون على رجال الدين ، إذ أن الملك ارفج (Flavius Brviglius) (٦٨٠ - ٦٨٧ م) رفضه عند ولايته للعرش .

وايس غريباً أن يسلك ارفج هذا المسلك ، إذا علمنا أنه كان واقفاً تحت سيطرة جوليان المستهتر<sup>(٥)</sup> وهو رئيس أساقفة العاصمة وأبرز شخصية معاصرة في

(١) مؤلف : L'Afrique Byzantine, ٢١٧ - ٢١٨ ، ١٩٢ - ١٩١ ، pp 587-88; Lot, p. 187

(٢) Bradley, p. 348; Lot, pp. 186 - 7

(٣) Dozy, II, pp. 29 - 30

(٤) المقدمة ص ١٨٦ وما يليها .

(٥) Oman, p. 231



ذلك الوقت ، كما كان طاغية الكنيسة والدولة معاً ، ثم إن جوليان قد اشترك في المؤامرة التي أدت إلى عزل وامبا عن عرشه ، وتولية إرفيج مكانه ، ويذكر بصدده هذه المؤامرة أن إرفيج سقى وامبا مادة مخدرة أدت إلى غيبوبته فترة من الوقت حتى ظن المحيطون به أنه مات ، وتبعاً للتقاليد السائدة في المجتمع القوطي ، يدرأ الميت في ثياب راهب ويخلق رأسه للاعتقاد بأن من يموت وهو في ثياب دينية يكتب له الخلاص في الحياة الأخرى ، غير أن وامبا أفاق من هذه الغيبوبة ، ولما علم بما حدث له ، قال : إنه تبعاً للقانون القوطي ، لا يعد يصلح للحكم ما دام قد تضر بهذه الثياب ، ووقع وثيقة تنازله عن العرش ، وتولى إرفيج سن بعده عام ٦٨٠ م وتوجه جوليان ، ثم انزوى وامبا في دير بقية حياته<sup>(١)</sup> ، ومع ذلك فإن ولاية إرفيج اعتبرت غير قانونية فضلاً عن أنه ليس من دم قوطي نقي ، فهو وإن كانت أمه قوطية ، إلا أن أباه إغريقي من أصل فارسي<sup>(٢)</sup> .

وأبرز ما يميز عهد إرفيج هو تلك القرارات التي أصدرها مجلس طليطالة الثاني عشر الذي عقد في مطلع حكمه برئاسة جوليان عام ٦٨١ م . وتعد هذه القرارات أخطر ما صدر ضد اليهود<sup>(٣)</sup> ، وبما زاد في خطورتها أنها جاءت في وقت غير مناسب ، ومن القرارات التي أصدرها هذا المجلس قانون ضد عودة وامبا إلى السلطة ، كما أنه أعاد القانون الذي كان قد أصدره وامبا سابقاً ضد العصاة والمهاجرين من الجندية .

ولم تكن الأحوال على عهد خليفة إرفيج ، أحسن منها على عهد سلفه ، فقد ولي إجيكا ( Egioca ) ( ٦٨٧ - ٧٠١ م ) واستمر على سياسة سلفه في اضطهاد اليهود ، ورغم أنه تزوج من ابنة سلفه ووعد بالمحافظة على أملاك أسرته ، فإنه

---

(١) Deanesly, p. 106; Lecl., p. 341; Bradley, pp. 38 - 9

(٢) Bradley, pp. 49 - 50; Lecl., p. 341

(٣) Lecl., pp. 342 - 3 أنظر السياسة الدينية

بمجرد ولايته على العرش أخذ يبحث عن مخرج من هذا العهد الذي قطعه على نفسه، وكان طبيعياً أن يبحث عن مخرج، فهو قبل كل شيء من أقرباء وامببا الذي انتزع إرفنج منه العرش سابقاً، ولم يكن الحل عسيراً؛ عقد مجلس طليطلة (١٥) وتقدم إليه ملتصقاً حلاً للتوفيق بين قسمين أقسمهما: أولهما الخاص بالمحافظة على عائلة سلفه وأملأها، والثاني ما قطعه على نفسه بعد ولايته من العمل على العدل بين جميع الرعايا. أوضح للمجلس استحالة تنفيذ القسمين، لأنه يعلم أن أغلب ثروة إرفنج قد أخذ غصباً ونهباً، وأن إرفنج في سبيل المحافظة على تاجه استرق الكثير من النبلاء واستولى على أملاكهم، فهؤلاء أو ورثتهم يطالبون الآن بما اغتصب منهم، ويرى إجيكا أن قسمه الذي أقسمه عند التتويج يخول له إنصافهم، بينما يدعمه القسم الذي كان أقسمه لإرفنج من قبل.

هذه هي المشكلة التي عرضها الملك إجيكا على مجلس طليطلة، ولكن الحل بسيط هذه الأساقفة الذين سرعان ما قرروا بأن القسم للوطن يرجح أى قسم خاص، أو يجب ما قبله من أيمان خاصة، فهو في حل بما أقسم لإرفنج، ولذا جاءت هذه الفتوى الدعامة التي استند إليها إجيكا في اضطهاد عائلة سلفه<sup>(١)</sup>.

ثم إن عهد إجيكا لم يخل من مؤامرات خطيرة، دبر إحداها سيسبرت (Sisobert)، رئيس أساقفة طليطلة بعد وفاة جوليان، فقد حاول النبيل القوطي الذي ولى رئاسته الأسقفية، أن يصل إلى ما وصل إليه سلفه من نفوذ، واشتهر في صدر حياته بالتقوى والصالح، لكنه سار في طريق الدعارة والفساد بعد انتخابه رئيساً للأساقفة، ولما لم ينجح في الوصول إلى النفوذ الذي طمع فيه نظراً لأن إجيكا كان أقوى من إرفنج، فقد دبر مؤامرة لاختصاص من إجيكا وأسرته، وشاركه فيها اليهود وكذلك الحاقدون من النبلاء، غير أن هذه المؤامرة لم تلبث.

---

(١) Bradley, pp. 353 - 4; Lecl, pp. 350 - 51 Oman, p. 232



أن كشفت وعوقب المتآمرون ، كما عوقب سيسبرت بالمصادرة والنفي والحرمان من الكنيسة ، وكانت هذه القرارات بمقتضى المجلس السادس عشر الذى عقد عام ٦٩٣ م ثم عين فيليكس ( Felix ) أسقف أشبيلية رئيساً لأساقفة العاصمة بعد سيسبرت<sup>(١)</sup>. وربما كانت أخطر مؤامرة دبرت فى تاريخ القوط هى التى كشف عنها المجلس السابع عشر الذى عقد عام ٦٩٤ م فقد نعى إلى الحكومة أن اليهود قد عملوا « على دعوة أناس من وراء البحار لحمايتهم فى أسبانيا » بعد أن سمعوا أنهم سوف يتمتعون بالحرية الدينية والتسامح التام تحت حكم المسلمين ، واشترك فى هذه المؤامرة اليهود المقيمون فى إفريقيا ، لذلك عدل إجيكا عن تساهله الذى افتتح به عهده ، فيما يتعلق بتنفيذ القوانين الاضطهادية التى أصدرها سلفه ضد اليهود ، وبالغ فى إيذائهم مع ابنه وقسيمه فى السلطة وتزا ( Witzn ) وامل أقسى ما نزل باليهود وقتئذ هو قرار إجيكا باسترقاق جميع البالغين وبيعهم باستثناء طائفة فى نابونة كانت أقل جرماً من غيرها ، ويقضى هذا القرار كذلك بسبى الذراري ممن بلغ السابعة من عمره وتنشئتهم على المسيحية وتزويجهم من مسيحيات عند البلوغ ، كما حرم على السادة الذين اشتروا اليهود فك رقابهم إلا إذا عمدوا . غير أن النتيجة جاءت على عكس ما هدف إليه إجيكا ، إذ آمن اليهود فى فى كراهة القوط وتلمس أسباب القضاء عليهم<sup>(٢)</sup>.

وبعد وفاة إجيكا ، انفرد ابنه ويتزا بالحكم ( ٧٠٠ - ٧٠٩ أو ٧١٠ م ) وتميز عهده بالهدوء النسبى ، أو الهدوء الذى يسبق العاصفة ، فقد سمح للمنفين بالعودة ، وصفح عن كثير من اليهود أنفسهم ، وعلى عهده عقد آخر مجلس فى طليطلة ، وهو المجلس الثامن عشر ( ٧٠١ م ) ، ويذكر عهد ويتزا بالانتصار على أسطول إسلامى صغير ، ونظراً لندرة الانتصار الحربى من جانب القوط فى

---

(١) Lecl., pp. 352 - 3.

(٢) Bradley, pp. 355 - 6; Lecl., p. 353.

تلك الفترة ، فإن ويتزا أراد أن يستغله لصالح أسرته ، وأوصى بأن يخلفه ابنه من بعده ، ولسكن مجلس طليطلة قرر دعوة الدوق رودريك ( Rodorio ) — لوزريق كما يسميه العرب — لولاية العرش — وكان يشغل وظيفة حاكم الأندلس<sup>(١)</sup> . غير أن منافسيه على العرش أمثال أشيلا ( Achilla ) ابن ويتزا وأتبساعه قد استعدوا العرب من أفريقية لمساعدتهم ضد رودريك ، حينئذ تكشفت أسبانيا القوطية في آخر صحيفة من سجل تاريخها عن حزبين خطيرين هما : حزب اليهود وحزب أشيلا ، وكلاهما يتطلع للمساعدة الخارجية<sup>(٢)</sup> ، وهذا بجانب طبقة العبيد والمدنيين الذين أمضهم الفقر وعضتهم المسغبة<sup>(٣)</sup> .

وهكذا يستفتح لوزريق عهده بمحاول هدمه وهدم الدولة القوطية ، فما كاد يطلع عام ٧١١ ( ٩٢ هـ ) حتى تعرض القوط لأخطار ما تعرضوا له في حياتهم من غزو كاسح ، ومهما قيل في عوامل ضعفهم وكثرة ما خاضوا من حروب سابقة ، فلم يكن هناك خطر يهدد أسبانيا بالزوال ، قبل وصول فرسان العرب إلى أفريقية<sup>(٤)</sup> . فقد نجح القوط سابقاً في إبعاد خطر الفرنجة خلال الفترة من القرن الخامس إلى القرن السابع الميلادي ، وحافظوا على ولاية سبتمانيا في جنوب الغال ، كما استعادوا مدينة نيم التي كان الثائر بولص قد استولى عليها بمساعدة الفرنجة ، وذلك على عهد وامبا<sup>(٥)</sup> . أما هذا الخطر الجديد فكان سريعاً وحاسماً مما أذهل الفاتحين والمغلوبين على السواء ، لم يكن هناك أمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك

---

(١) Lecl., pp 361 - 62

(٢) Diehl, op. cit, p. 589; Lecl., p. 362; Deanesly, p. 106

(٣) Dozy, II, pp. 29 - 30

(٤) Lot, p. 187

(٥) Lecl., p. 186



بفتح أسبانيا ، وحتى طارق بن زياد حاكم مرطانية وقائده موسى بن نصير ،  
يحتمل أن كليهما اعتبر الحملة على أسبانيا مجرد غزو<sup>(١)</sup> .

والواقع إن الفاتحين تشجعوا بالعناصر المناوئة للقوط وأن هذه العناصر سوف  
تعاونهم ، ويحتمل كذلك أن لوذريق نفسه اعتبر الأمر لا يعدو حرباً داخلية  
بين حريين متنافسين ، كما هو المألوف في المجتمع القوطي .

حشد طارق بن زياد قوة كبرى من الفرق الإسلامية ، ومعه طريف بن  
مالك النخعي وكذلك الكونت جوليان ( Jullion ) حاكم سوتا القديم<sup>(٢)</sup> .  
وهو أفريقى المولد كاثوليكي المذهب ، توثقت عرى الصداقة بينه وبين المسلمين  
الفاتحين في أفريقية ، وليس صحيحاً ما يقال عن قصة عبث لوذريق بابنة جوليان ،  
فهذه أسطورة غير محققة<sup>(٣)</sup> . وعبر بوغاز الزقاق ، والذي عرف به بعد ذلك  
( ببوغاز جبل طارق ) واستولى على الجبل الذي عرف باسمه ، وتسميه العامة  
« جبل الفتح »<sup>(٤)</sup> . وسرعان ما أخضع المدن المجاورة من غير صعوبة تذكر ،  
وفي ذلك الوقت كان لوذريق يحارب في الشمال ضد الفرنجة والبسقاويين ، فلما  
سمع بتقدم الجيوش الإسلامية بقيادة طارق ، جمع جيشاً ضخماً وأسرع لمقابلة  
المسلمين ، وفي ١٩ يولييه عام ٧١١ م ( رمضان ٩٢ هـ ) التقى الجيشان عند شواطئ  
بحيرة جاندا ( Janda ) وكان من بين الجيش القوطي رجال من حزب أشيلا  
المنافس وكذلك الأسقف أو باس ( Oppas ) أحد أخوة وثرا الذي يسميه

---

(١) Dozy, II, p. 32

(٢) كانت سوتا ( Centa ) أو سبنتة — كما يسميها العرب — تابعة ليزنطة بكثرة  
من كل ساحل إفريقية الشمالى ، ولما عجزت ليزنطة عن حماية أملاكها في شمال إفريقية من  
الفتح الاسلامى ربطت سوتا نفسها بالدولة القوطية في أسبانيا بعد أن قاومت كثيراً ضد العرب  
( Dozy, II, pp. 33 - 35 )

(٣) Watts, p 17; Lecl, p. 363; Oman, p. 233

(٤) فتح الطيب ج ١ ص ١٠٧ .

العرب غيطشه<sup>(١)</sup>. وسيسبرت أسقف طليطلة للعزول وهو من أقرباء وتزا. ترك هذا الفريق واقعة أثناء القتال<sup>(٢)</sup>. فدارت الدائرة على القوط، واستولى المسلمون بعد ذلك على أشبيلية وقرطبة وطلطلة العاصمة، غير أن النصر النهائي لم يكن قد تم بعد، فإن لوزريق جمع فلول جيشه وعاد يهدد طليطلة التي اتخذها العرب عاصمة لهم، وحينئذ طلب طارق نجدة من موسى بن نصير فأجده بجيش استولى به على عدة مواقع مثل ماردة وغيرها من المراكز الهامة، وذلك عام ٧١٣ م. وحينما توجه المسلمون قابلهم اليهود بالترحاب والمساعدات، ونظروا إليهم باعتبارهم أحلافا وأصدقاء<sup>(٣)</sup>. ثم لحق موسى بطارق واشترك معه في فتح البلاد، وتقدم المسلمون نحو برشاونه، وكان موسى بن نصير يعتزم إتمام فتح جميع أسبانيا ليصل من هذا الطريق إلى القسطنطينية<sup>(٤)</sup>. وفي سبيل الوصول إلى هذا الهدف كان عليه أن يخضع المقاومات الوطنية التي تقابله، وكذلك مقاومة لوزريق الذي انحاز إلى الأطراف في المناطق الجبلية على حدود غاليسيا حيث أخذ يستعد للحرب والمقاومة. تقدم موسى وقضى على جيش لوزريق في منطقة سلمنكة (طلمنكة) في سبتمبر ٧١٣ م، ويحتمل أن لوزريق قتل في هذه الواقعة، فلم يعثر على جثته<sup>(٥)</sup>. ولم يمض غير قليل حتى صارت أسبانيا كلها تقريباً خاضعة للعرب، وأضحت ضمن الإمبراطورية الإسلامية الممتدة من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن خلدون ج ١ ص ٣٦٥؛ ابن الأثير ج ٤ ص ١٢١—١٢٣.

(٢) Watts, p. 16; Dozy, II, p. 33 - 35; Lecl, p. 369

(٣) Oman, pp. 233 - 4, Deanesly, pp. 106 - 7

(٤) فتح الطيب ج ١ ص ١٠٨.

(٥) بعد مائة وستين عاماً من هذه الواقعة عثر في مدينة فيسو (Viseu) في لوزيتانيا، في مقبرة إحدى الكنائس الكبرى، عثر على شاهد قبر عليه هذه العبارة (هنا يرقد لوزريق ملك القوط) (Hic Requiescit Ruderleua Rex Gothorum) إلا أن بعض المؤرخين يشك في صحة هذا النص ويعتبره خرافة (Lecl., pp. 364 - 5)

(٦) Lot, p. 187



استدعى الخليفة قائده موسى بن نصير لمحاسبته على الغنائم ، أما أشتيلا  
الذى عاون العرب فقد ردت إليه أملاكه ، وعين الأسقف أوباس رئيسا لاساقفة  
طليطلة ، ووقعت مصاهرات بين حزب أشتيلا والعرب المسلمين ، وساعد هؤلاء  
الأنصار على استقرار الحكم الجديد فى قرطبة التى اتخذوها عاصمة بعد طليطلة  
وأشبيلية<sup>(١)</sup> .

✧ هكذا انتهت دولة القوط الغربيين ، ويمكن التماس أسباب تدهورها  
وسقوطها من تاريخ هذه الدولة ، وأول ما يطالعنا هو القلة النسبية للطبقة الحاكمة  
من الجرمان ، كما هو الشأن فى كل الممالك الجديدة ، باستثناء الفرنجة ، والسبب  
فى هذه القلة هو انقطاع سيل الدماء الجرمانية منذ استقرار القوط فى أسبانيا ،  
فكان ذلك من عوامل ضعفهم ، ولذا لم يستطيعوا الاحتفاظ بعرشهم إلا بقوة  
السيف<sup>(٢)</sup> ، كما أن الخلاف العنصرى بين الحاكم والمحكوم ظل قائما حتى نهاية  
دولة القوط ، ولعل الخلاف المذهبى من أكبر العوامل الهادمة لا لدولة القوط  
الغربيين فحسب بل لغيرها من الدول الجرمانية التى اعتنقت المسيحية على المذهب  
الأريوسى ، حقيقة أخذ القوط الغربيون خطوة خطيرة نحو إزالة هذا الفارق  
باتخاذهم الكاثوليكية منذ نهاية القرن السادس الميلادى<sup>(٣)</sup> ، إلا أن هذا التحول  
جاء متأخرا وبعد فوات الأوان ، وإن كان خطوة فى سبيل التوحيد والاندماج ،  
فطالما كان القوط على الأريوسية ، كانت لهم كنفائسهم الخاصة وأساقفتهم  
الأريوسيون ، وبدا تعصبهم لمذهبهم واضحا فلم يعينوا أحدا من  
الأساقفة الأرثوذكس ، كما أنهم لم يعينوا مواطنا أسبانيا فى منصب رفيع ،  
ولذا كان المواطنون يكرهون سادتهم لمرطقتهم أولا ولأنهم برابرة ثانيا وعلى

---

(١) الحلل السندسية ج ١ ص ٣٦٤ ، Deanesly, p. 107; Dozy, II, pp. 32-8

(٢) Deanesly, p. 107; Oman, p. 130

(٣) Eyre, p. 56 ، أنظر السياسة الدينية .

الأهبة للترحيب بالفرنجة أو البيزنطيين ، ثم أخذوا يعينون منهم ، ولم يحدث هذا إلا بعد التحول إلى الكاثوليكية ، ومنذ ذلك الوقت ظهر لأول مرة أسماء رومانية بين الموظفين . وأقدم مثل لهذا الدوق كلوديوس ( Claudius ) قائد الملك ركارد الأول ، أول ملك قوطى كاثوليكي ، يلي العرش ، ونجح هذا القائد ضد الفرنجة في هزيمتهم عام ٥٨٩م ، أما الفترة الأولى من سيادة القوط على أسبانيا حتى عام ٥٨٧م فقد ظل الوطنيون خلالها منفصلين تماماً عن سادتهم وهذا على عكس ما حدث في غالة الفرنجية إذ جاء الارتباط والاندماج منذ فجر العصر الميروفنجي فيها ، فعمل الأساقفة الغاليون الرومان وزراء للميروفنجيين كما عمل الكونتات الرومان الغاليون حكاماً لهم<sup>(١)</sup> ، وكذلك جاءت الخطوات الأخرى المقربة بين الحاكم والمحكوم متأخرة ، وتتمثل في اتخاذ اللاتينية لغة رسمية والتقاليد الرومانية البيزنطية بصفة خاصة ، وهذا فضلاً عن القوانين التي سنت لإزالة الفوارق الاجتماعية بين الرعايا وإباحة الاختلاط بين عنصرى القوط والأسبان الرومان ، كل ذلك وإن جاء من وسائل التقريب والاندماج وأدى إلى بعض الفائدة إلا أن وقته كان متأخراً ، حين بدأت طلائع الفتوح الإسلامية تقترب من موطن القوط الغربيين ، وظلت أسبانيا القوطية ، شأن غيرها من الدول الجرمانية لا يربط عناصرها المختلفة سوى رباط الملكية أو وحدة الحكومة أما أن ارتباطاً قومياً أو وطنياً كان يؤلف بين عناصر سكانها ، فهذا ما لم يكن له أثر<sup>(٢)</sup> ، ظل الملك كما هو يجب أن يكون قوطياً وظل يحتفظ بلقبه العنصرى حتى زوال هذه الدولة (Rex Gothorum) ولذا بقيت الملكية كرية غير محترمة ، فالمبادئ التي تساعد على تثبيت قواعد أسرة معينة في الحكم لم تكن عميقة الجذور في أسبانيا ، وهذا بجانب صلف وغطرسة الأرستقراطية القوطية<sup>(٣)</sup> .

Oman, p. 130 (١)

Lot, p. 184 (٢)

Ibid, p. 185 (٣)



ومن الأسباب الهامة في زوال دولة القوط الغربيين ، انتهاء سلسلة الملوك من أسرة الشجعان بموت أالريك الثاني وابنه أماريك عام ٥٣١م وهي الأسرة التي ترجعها الأساطير القوطية إلى الآلهة الجرمانية (The heaven Born Balts) ولها سمعة حربية عالية ، ومنذ ذلك الوقت أضحي العرش القوطي مثاراً للنزاع بين الأسر الاستقرائية القوطية ، ولم تنجح أى أسرة في الاحتفاظ بالعرش في سلاتها فترة تذكر ، وكان الوصول إلى العرش يجرى عن طريق سلسلة من المؤامرات كما هو الشأن في بيزنطة <sup>(١)</sup> ، والفاشلون في الوصول إلى العرش لا يكفون عن تدبير المؤامرات والانقلابات ، ولذا نجد من الأربعة والثلاثين ملكاً الذين حكموا القوط الغربيين منذ أالريك حتى لودزيق : أربعة عشر ملكاً فقط هم الذين ماتوا ميتة طبيعية ، وثلاثة فقط هم الذين قتلوا في وقائع حربية ، والباقيين بين قتيل وطريد نتيجة للثورات والمؤامرات <sup>(٢)</sup> .

وأدى التنافس على العرش إلى انقسامات وحروب داخلية ، وصلت آثارها إلى الجيش القوطي مما زاد في إضعافه وتفككه ، ويحدث في بداية عهد كل ملك مغتصب ، عادة ، حركة تطهير ضد منافسيه دون استثناء <sup>(٣)</sup> .

ونظراً لاعتماد الملكية على الارستقراطية ممثلة في كبار رجال الدين والنبلاء ، فقد ظلت ضعيفة خائرة ، رغم بروز بعض الشخصيات أمثال : تيوديس وأثانا جلد وليوفجلد وركارد في القرن السادس وسيسبت وشندسونث وركسونت ووامبا في القرن السابع ، وحتى للملوك المتأخرين أمثال ارفنج وأجيكا ووتراولودزيق ، هؤلاء شخصياً أكفا وأقدر من معاصريهم من الميروفنجيين في غالبا ، إلا أن سلطة الارستقراطية وتحكم مجلس طليطلة دعامة الارستقراطية القوطية ، قد أضعفتها

(١) Fyre, p. 56; Lot, p. 185

(٢) أنظر جدول الملوك

(٣) Lot, p. 185 ، حضارة العرب ( ترجمه زعير ) ص ٣٢٦ — ٣٢٧ .

من نظام الملكية بصفة عامة ، فالنظام القائم على الانتخاب ، على النحو الذى سار عليه بدولة القوط ساعد على الانقسامات لكثرة الطامعين والمتنافسين<sup>(١)</sup> ، ورغم ما لمجلس طليطلة<sup>(٢)</sup> من أهمية فعالة فى حكومة القوط إلا أنه كان مفتقراً إلى قواعد ثابتة يحكم بمقتضاها<sup>(٣)</sup> ، فهو فى أغلب الأحيان آلة فى يد الملك ( *Instrumentum Regni* )<sup>(٤)</sup> ، وبما زاد فى ضعف الملكية بروز سلطة رجال الدين بصفة خاصة فى القرن السابع ، فقد اعتبر الأساقفة بأن السلطة الدينية ( *Sacerdotes* ) ، أسى من الملكية بل أعلنوا هذا ، ويبدوا أن الملوك وافقوا على هذا الادعاء ، أو لم يملكوا إلا الموافقة عليه<sup>(٥)</sup>.

هذا ولم تكن الدولة القوطية مبسطة السلطة على جميع أنحاء شبه جزيرة ايبيريا فهناك البسقاويون أو البشكنس — كما يسميهم العرب — فى منطقةتهم غربى البرانس وعلى شواطئ خليج بسكاي ، هؤلاء أعداء مزمنون ومستقلون ، وقد ظل ملوك القوط يحاربونهم حتى نهاية دولة القوط لأنهم دأبوا على قرع الأملاك القوطية بالغزو والنهب فى كل فرصة تلوح لهم ، وما أكثر هذه الفرص خلال النزاع الداخلى المستمر بين المتنافسين على العرش القوطى ، كذلك توجد مملكة السويف فى أقصى الغرب فى غاليسيا ولوزيتانيا ، والمعروف أن السويف هم الغزاة التيوتون الأولون لشبه جزيرة ايبيريا ، حقيقة نجح ملوك القوط فى هزيمتهم وإخضاعهم وطردهم إلى الجبال فى الغرب لكنهم لم يمتنعوا ، ولذا ظل ملوك السويف يحكمون من عاصمتهم فى براجا فى مملكتهم شمالى نهر

---

Oman, p. 130 (١)

(٢) أنظر نظم الحكم

Draesly, p 108 (٣)

Lot, p. 185 (٤)

Ibid. (٥)



تاجه حتى نهاية القرن السادس الميلادى<sup>(١)</sup> ، وهؤلاء وأولئك من عوامل ضعف الدولة القوطية بسبب للتاعب المستمرة من جانبهم واستعدادهم دائماً للتحالف مع الفرنجة أو الأعداء الداخليين من الخارجين على الملكية القوطية أو الطامعين فيها .

أما النظام الداخلى لمملكة القوط فكان من عوامل إضعافها ، افتقرت هذه المملكة إلى سلطة مركزية قوية على مثال حكومة الفرنجة حيث ترجع كل سلطة فيها إلى الملك ، لم يغير القوط التقسيم الإدارى الذى فعله الرومان ، فظلت أسبانيا مقسمة كما هى إلى مقاطعات أو ولايات على كل مقاطعة أو ولاية دوق أو كونت وهى بنفس حدود المقاطعات الرومانية القديمة ، ولسكن حكام هذه المقاطعات لم يكونوا خاضعين الخاضوع التام للسلطة المركزية بخلاف ما عليه الأمر فى مملكة الفرنجة ، احتفظ كل حاكم فى أسبانيا القوطية بحرس خاص له ، وهذا على نسق ما وجد لدى القوط الشرقيين وتعرف فرقة الحرس الخاصة عند القوط الشرقيين بإسم ( *Salmos* ) وأحياناً تعرف بإسم ( *Bucellarii* ) وكان هذا الحرس بطبيعة الحال مخلصاً لرئيسه المباشر<sup>(٢)</sup> ، ووجد أمثال هذه التشكيلات فى ولايات الإمبراطورية البيزنطية .

ثم إن الأرقاء الفلاحين من الأسبان الرومان ( *Hispano-Romans* ) الذين تقرر استخدامهم فى الحرب بأمر الملك وامبا<sup>(٣)</sup> لم يخلصوا فى الحرب دفاعاً عن طبقة الملاك الطغاة الذين أذلّوهم فقد عاد الفلاحون فى العهد القوطى إلى منازلهم القديمة فى العهد الرومانى من الاسترقاق والارتباط بالأرض ، وعلى هذه الطبقة الكادحة الدليلة اعتمد الخونة الذين تخلّوا عن لوذريق خلال حركات الفتح

---

(١) Oman p. 131

(٢) Ibid.

(٣) أنظر ما سبق ص ١١٤ .

الإسلامي فكان النظام الإقطاعي السائد قاتلاً وجائراً بحيث أدى إلى اختفاء طبقة صغار الملاك ، ولذا لم توجد طبقة وسطى<sup>(١)</sup> .

أما سكان المدن من المشتغلين بالتجارة فلم يكن لهم أى حقوق ، وكانت تجارتهم غير رابحة بسبب تحكم اليهود فيها ، فلم يعنوا بشيء سوى مصالحهم الخاصة ، ولعل الأقلية اليهودية من أهم العوامل للباشرة في زوال دولة القوط ، فقد استهدف اليهود إلى ألوان مختلفة من الاضطهاد ، بل إن قوانين الاضطهاد كانت شغل مجلس طليطلة الشاغل في أغلب جلساته<sup>(٢)</sup> ، ومن ثم دبر اليهود أكثر من مؤامرة ، وتطلعوا إلى القوة الإسلامية للتساعمة لتتقدم بما هم فيسه ، وساعدوا المسلمين في الفتح ، وحتى أن الفاتحين عهدوا إلى اليهود بحراسة بعض المدن في أول الأمر عام ٧١١ م<sup>(٣)</sup> .

وبعد ، فبعض الكتاب يقول إن الفتح العربي لأسبانيا وإزالة دولة القوط ليس إلا جزاءً وفاقاً لما ارتكبه ملوك القوط المتأخرون من جرائم ، وما هزم القوط إلا لأنهم استهانوا بالدين<sup>(٤)</sup> .



وباستيلاء العرب على أسبانيا لم يطرد القوط الغربيون منها كما طرد أشقاؤهم الشرقيون من إيطاليا قبل ذلك ، بل ظل الغربيون خاضعين لسلطان المسلمين ؛ وقد اندمج النصران المسيحيان معاً وهم القوط والأسبان الرومان ، بجامع السكراهية في كل نحو السيادة العربية الإسلامية الجديدة ، والأمل المشترك في الخلاص من هذه السيادة ، وصار النصران شعباً واحداً ، وربما

---

(١) Oman, pp. 132 - 234

(٢) أنظر السياسة الديلية

(٣) Dozy, II, pp. 26 - 30; Lot, pp. 185 - 6

(٤) Lecl., p. 382



كان هذا الوضع السياسي الجديد هو الذى أكل الجهود التى بذلها ملوك القوط من قبل فى سبيل ادماج هذين العنصرين فقد كانت القوانين والتشريعات التى أصدرها القوط والسياسة القوطية العامة منذ تحول ركارد إلى الكاثوليكية واتخاذ اللاتينية لغة رسمية للدولة ، كانت هذه جميعها خطوات فى سبيل التقريب بين الحاكم والمحكوم ، ومنذ دخل العرب أسبانيا ؛ صار تاريخ القوط الغربيين هو التاريخ القومى لأسبانيا .

ورغم الاندماج ، ظل سلالة الأسبان الأصليين ، ينظرون إلى سلالة القوط نظرتهم إلى القادة والسادة الطبيعيين ، حتى أنه بعد انتصار العرب خلال عملية الفتح توجه ثيوديمر (Theudemer) حاكم جنوب أسبانيا من قبل لوزريق ، توجه مع مجموعة قليلة من المحاربين إلى الشاطئ الشرقى حيث دافع بقوة وشجاعة ، وسمح له العرب الفاتحون بتأسيس أمانة مسيحية خاضعة لسيادة المسلمين ، فقامت بذلك أمانة مرسيا (Murcia) حيث ظل ثيوديمر يحكم حتى وفاته ، وبعد ذلك ضم العرب « أرض تدمير » — كما كانوا يسمونها — إلى أملاكهم .

كذلك قامت فى أقصى الشمال الغربى ، ولاية اشتوريا المسيحية التى استطاعت أن تحتفظ باستقلالها تحت حكم سادة من القوط الغربيين ، وإلى هؤلاء السادة الحكام يستز ملوك أسبانيا المتأخرون بالانتساب إليهم ، ويفخرون بأنهم من سلالتهم .

وخلال الثورات القومية التى انتهت أخيراً بإزالة سلطان العرب من أسبانيا ، برزت أسماء قوطية ، حتى أنه يمكن القول إن الفضل فى إنها الحكم العربى فى أسبانيا إنما يرجع إلى العنصر القوطى وإلى الفروسية التى برزت فى قشتالة ، وحتى العصر الحاضر نجد الأمر النبيلة فى أسبانيا تفتخر وتباهى بنقاء عنصرها القوطى ، وإن لم يكن هذا صحيحاً فى كل الأحوال .

على أننا إذا أردنا أن نلتبس القوط في التاريخ الحديث كعنصر منفصل  
بله لغته الخاصة ، لا نرى هذا العنصر في أسبانيا ، ولكنه يوجد في أقصى شرق  
أوروبا ، فمنذ نهاية القرن الرابع الميلادي ، نلاحظ أنه على أثر انهيار امبراطورية  
أرماتريك القوطى الشرقى <sup>(١)</sup> أمام بطش الهون ، فرت طائفة من القوط  
الشرقيين إلى القرم حيث عاشت كعنصر مستقل ، وفي مطلع القرن الخامس  
الميلادى تحول أولئك القوط إلى الكاثوليكية واشترك أساقفتهم في مجالس  
الكنيسة الشرقية ، وفي عام ١٥١٢ م التقى بسبك ( Busbeek ) الرحالة البلجيكي  
في القسطنطينية مع سفيرين من قبل هذه الدولة القوطية الصغيرة ، واستقى منهم  
قائمة طويلة من الكلمات القوطية كتبها عنهم ، ولو أن كثيراً من هذه الكلمات  
غير صحيح والبعض منها ليس قوطياً وإنما هو مستعار أو دخيل من لغات الشعوب  
المجاورة ، على أن هذه القائمة التى كتبها الرحالة البلجيكي تدل على أن لغة سكان  
شبه جزيرة القرم لا بد وأنها كانت أصلاً هى اللغة التى استعمالها أولفيلاس في  
ترجمته القوطية للإنجيل <sup>(٢)</sup> . وحتى القرن الثامن عشر كانت القرم لا تزال تعرف  
باسم جوثيا ( Gothia ) على الأقل فى الوثائق الرسمية التى تصدر عن الكنيسة  
الإغريقية ، ولكن اسم جوثيا زال نهائياً كما انقرضت اللغة القوطية .

ولم يترك القوط أى أثر فى الشعوب الأوروبية المعاصرة أو المعالم الجغرافية  
الحديثة ، فمثلاً إذا كانت الشعوب التيوتونية الأخرى العظيمة قد تركت أسماءها  
على أسماء الأقطار الحديثة التى فتحوها مثل فرنسا وبرجنديا ولبارديا والأندلس ،  
فإن القوط لم يتركوا حتى مثل هذا الأثر الطفيف أو الشكلى .

ورغم هذا فإن التاريخ لا ينسى القوط الذين هزت عزائمهم وقوتهم

---

(١) أنظر ما سبق ص ٤٦ وما يليها

(٢) أنظر ما سبق ص ٤٤



الإمبراطورية الرومانية المتدهورة وآذنت بسقوطها ، وهم بذلك قد مهدوا السبيل  
إقيام حضارة أفضل على أنقاض الحضارة القديمة ، نجح القسوط في عملية الهدم  
للحضارة القديمة ، بينما فشلوا حينما حاولوا البناء — وقد حاولوه صادقين فعلا — ،  
غير أن تاريخهم الذي انتهى بمأساة زوالهم ، لم يخل من مثل عليا في الشجاعة  
والبطولة والمقدرة والسياسة والتدبير ، تلك المثل التي اقترنت ببعض الشخصيات  
البارزة ، وهذا بجانب ما أسهموا به في مجال التشريع والنهضة الفكرية .

---

## الفصل الخامس

### بعض مظاهر المجتمع القوطي

- ١ — نظم الحكم ٢ — السياسة الدينية  
٣ — النهضة الأدبية والفكرية .

#### ١ — نظم الحكم

ولاية العرش — مجلس طليعة — التشريعات القانونية

الحكم في دولة القوط الغربيين ملكي انتخابي ولا يليه إلا قوطي من طبقة النبلاء أو الأرستقراطية<sup>(١)</sup> ، ويتفق مع النظام الجمهوري في انعدام نظام الوراثة إلا في حالات قليلة ، ويختلف معه من حيث اقتصار الملكية فيه على الطبقة الأرستقراطية بصفة عامة والحرية بصفة خاصة . وهو ملكي لأن الحاكم يلقب بالملك بعد أن كان في فجر تحررهم داخل الأراضي الرومانية يلقب بالقائد وأحياناً بالملك وأحياناً بالتقاضي ( Judox ) . والعادة أن يكون الملك قائداً عسكرياً وينتخبه أتباعه المباشرون الذين يكونون مجلساً خاصاً هو صاحب السلطة الفعلية ، كان هذا في المجتمع الوثني الجرمانى بصفة عامة والقوطى بصفة خاصة وظل على هذا النحو بعد اعتناق القوط للمسيحية وتكوين إمبراطوريتهم في غالة وأسبانيا .



هذه هي القاعدة العامة في انتخاب ملوك القوط الغربيين ، وكانت ماثرة نزاع مستمر بين أعضاء الأرستقراطية القوطية ، والفيصل في الوصول إلى العرش واحتفاظ الملك بعرشه وظفره بالاحترام والتأييد ، هو قدرته الحربية وما يحققه من انتصارات سواء على منافسيه في الداخل أو أعداء الدولة في الخارج ، أى أن الحكم لم يزل غلب ، في مجتمع ألف الحروب وأعمال العنف .

هذا هو السبب الذي أدى إلى انتخاب أالاريك الأول واحترام ملكيته ، فهو بالإضافة إلى شجاعته المنقطعة النظير ، ينحدر عن أسرة عريقة عرفت بين المجتمع القوطي الغربي منذ فجر تاريخه باسم أسرة الشيجان ( Balthings ) ، أدت شجاعة هذه الأسرة إلى تقديسها ورفع مؤسسها الأول إلى مضاف الآلهة ، وحدث مثل هذا عند القوط الشرقيين ، حيث ظفرت أسرة معينة بالتقديس والإجلال ومنها جاء أشهر ملوكهم<sup>(١)</sup> .

لذلك لم تكن وراثة العرش أو إشراك الإبن فيه أو حتى الوصاية بشخص معين ، أمراً محترماً أو معترفاً به لدى القوط الغربيين ، حقيقة وقع مثل هذه الحالات ولكن على نطاق ضيق ، وجاء وقوعه أمراً شاذاً غير مألوف وفي أحوال خاصة ، فمثلاً لم ينتقل العرش من الجد إلى الإبن إلى الحفيد إلا في حالتين<sup>(٢)</sup> ، وفي خمس حالات لم يتعد العرش الإبن المباشر للملك ، ومع ذلك فإن هذا الإبن الوارث كان يطرد أو يقتل في أغلب هذه الحالات الخمس ، ومع وجود حالات الوراثة هذه ، كان لابد من موافقة الأساقفة والنبلاء أعضاء مجلس طليطلة وهو الأداة الحاكمة فعلاً في دولة القوط .

---

(١) أنظر ص ٣٦ حاشية ١ .

(٢) أنظر جدول أسماء الملوك والملاحظات به فيما يلي ص ١٣٦ — ١٣٨ .

أما الأمر المألوف السائد في ولاية العرش في دولة القوط الغربيين فهو الانتخاب وقد حافظ عليه النبلاء وتشبثوا به ، وذلك هو المبدأ المقرر منذ فجر تاريخهم ، ولعل هذا المبدأ لا يخلو من أهداف شخصية أهمها إتاحة الفرصة لأعضاء الأرسقراطية لأن يصلوا إلى العرش ، ولذا كان انتقال العرش في أغلب الأحيان يقتن بمؤامرات وحرب أهلية حتى بين الأخوة ولم يكن من بأس لدى العظامين في الوصول إلى العرش من الاستعانة بالخارج ولو كان في ذلك نقص من رقعة المملكة أو مساس بالاستقلال .

ويشبه هذا الوضع إلى حد كبير ما كان عليه نظام ولاية العرش في الإمبراطورية البيزنطية ، فيما عدا أن أباطرة بيزنطة المقتصبين نجحوا في تكوين أسرارامبراطورية ظفرت بالتأييد والاحترام لأعمالها أو لجرد أعمال مؤسسها حتى كان الضعيف المنحل يرث العرش البيزنطى لا شىء سوى احترام ذكرى أبيه أو جده<sup>(١)</sup> فقط ، كذلك قريب من هذا النظام ما عرف عن دولة المماليك فأغلبهم مقتصبون ، وإن كون القليل منهم أسراً وراثية حاكمة .

والملاحظ على الملكية القوطية أنه لم يتول العرش فيها نساء منفردات أو مشتركات باستثناء حالة واحدة أشرك فيها الملك سونتلا ( ٦٢١ — ٦٣١ ) زوجته مع ابنه وأخيه على النسق البيزنطى ، ومع ذلك اعترض الأساقفة والنبلاء وأصروا على بقاء الملكية انتخابية وثاروا بزعامة سيسناند ، بل إنهم استعدوا القزنجة الأعداء التقليديين رغم ما عرف عن سونتلا بأنه أول ملك قوطى يبسط سيادته التامة على جميع شبه جزيرة أيبيريا ، فأمر أشراك النساء أو الأبناء غير مألوف ، ولم تنجح سياسة أشراك الابن إلا في حالتين فقط : حين خلف ركسونث ( ٦٥٣ — ٦٧٢ ) أباه بعد أن أشرك معه في الحكم من قبل لمدة

---

(١) أنظر بنيز: الأمبراطورية البيزنطية (ترجمة الدكتور مؤنس والأستاذ زايد) ص ٣٣٩



أربع سنوات ، ( ٦٤٩ — ٦٥٣ م ) ، وكذلك عندما انفرد ويتزا بالحكم عام ٧٠٠ م بعد أن قاسم أباه احيكا فترة ، وهذا على عكس ما سار عليه نظام ولاية العرش عند الفرنجة من الميروفنجيين ثم الكارولنجيين فقد كان الحكم وراثيا ، وحال احترام البيت الميروفنجي من قبل الشعب دون محاولة أى نبيل الاستيلاء على العرش ، وذلك لمدة ٢٥٠ سنة ، كما أن اطماع النبلاء ومنافساتهم لم تكن موجهة نحو شخص الملك أو الملكة وإنما كانت ضد بعضهم البعض للظفر بمنصب هاجب القصر ( Mayor ) رغم ضعف الملوك الميروفنجيين المتأخرين ، وعند الكارولنجيين الذين ورثوا الميروفنجيين ساد نظام إشراك الأبناء مع آباءهم للتدرب على الحكم ، فكان يعين الأبناء حكاماً على بعض الأقاليم في حياة آباءهم ، أما الوندال فلم يكن لديهم قانون قوى للوراثة تحت تأثير التقاليد البيزنطية<sup>(١)</sup> .

جدول بأسماء ملوك القوط الريمين منذ أول الملوك الباطنيين حتى نهاية الدولة القوطية

رقم مسلسل	إسم الملك	مدة الحكم	ملاحظات
١	ألاريك	٣٩٥ — ٤١٠	أول ملوك أسرة الشيمان — مات ميتة طبيعية
٢	أتولف	٤١٠ — ٤١٥	أخو زوجة ألاريك — قامت الدولة القوطية على عهده — تولوز العاصمة
٣	سيجريك	٤١٥	حكم أسبوعاً واحداً — قتل على يد واليا
٤	واليا	٤١٥ — ٤٢٠	ثاني ملوك أسرة الشيمان — مات طبيعياً دون وريث
٥	ثيودريك الأول	٤٢٠ — ٤٥١	ثالث ملوك أسرة الشيمان — قتل عام ٤٥١ م في واقعة شالون وهو يحارب الهون بجانب الرومان
٦	ثورسمند بن ثيودريك	٤٥١ — ٤٥٣	قتله إخوته لأنه أراد محاربة الرومان على غير رغبة قومه
٧	ثيودريك الثاني بن ثيودريك الأول	٤٥٣ — ٤٦٦	قتله يوريك أخوه الأصغر
٨	يوريك	٤٦٦ — ٤٨٤	كون الإمبراطورية القوطية في غالة وأسبانيا ومات ميتة طبيعية
٩	ألاريك الثاني ابن يوريك	٤٨٤ — ٥٠٧	قتل في واقعة ثويبة أمام كلوفيس الفرنجي
١٠	جيسالك بن يوريك	٥٠٧ — ٥١١	ابن غير شرعي ليوريك وطرد عن العرش
١١	أمالريك بن يوريك	٥١١ — ٥٣١	تولى بوصاية ثيوديس القوطي الشرقي ، وقتل في برشاونة بأمر ثيوديس لأنه لاذ بالفرار أمام الفرنجة ، وبقتله انقضت أسرة الشيمان
١٢	ثيوديس	٥٣١ — ٥٤٨	من أتباع ثيودريك العظيم ملك القوط الغربيين في إيطاليا وخدم لدى القوط الغربيين ، وكان كنائب لثيودريك ، نقل العاصمة إلى برشاونة ، وهو أول ملك يتخذ العاصمة العامة للدولة في أسبانيا — قتل في برشاونة .
١٣	ثيودجيسيل	٥٤٨ — ٥٤٩	نقل العاصمة إلى أشبيلة حيث قتل .



رقم مسلسل	اسم الملك	مدة الحكم	ملاحظات
١٤	أجيلا	٥٤٩ — ٥٥٤	اتخذ ماردة عاصمة — طرده أئاناجيلد ثم قتل على يد أتباعه .
١٥	أئاناجيلد	٥٥٤ — ٥٦٧	حارب أجيلا بمساعدة جستنيان ، نقل العاصمة إلى طليطلة ، أول من مات ميتة طبيعية بعد يوريك .
١٦	ايوفا	٥٦٧ — ٥٧٢	ولدا أئاناجيلد اشترا كما ماً في الحكم عام ٥٧٢ م ثم انقرض ليوفجيلد بعد موت أخيه عام ٥٧٢ م — مات ميتة طبيعية .
١٧	ليوفجيلد	٥٧٢ — ٥٨٦	
١٨	ركارد الأول	٥٨٦ — ٦٠١	ابن ليوفجيلد، تحول إلى الكاثوليكية وقومه مات ميتة طبيعية .
١٩	ليوفا الثاني	٦٠١ — ٦٠٣	ابن ركارد الأول — طرد عن العرش على يد النبيل ويترك .
٢٠	ويترك	٦٠٣ — ٦١٠	قتل لأريوسيته ومحاولة إرجاع الأريوسية .
٢١	جوندمار	٦١٠ — ٦١٢	كاثوليكي متحمس — قتل
٢٢	سيسبت	٦١٢ — ١٦٢	مات ميتة طبيعية .
٢٣	ركارد الثاني	٦٢١	تولى شهوراً قليلة ثم طرد على يد سوتلا قائد أبيه .
٢٤	سوتلا	٦٢١ — ٦٣١	أول ملك حكم شبه جزيرة ايبيريا جيها ، أشرك معه في الحكم ابنه وزوجته وأخاه على الطريقة اليزنطية ، قتل الأساقفة والنبلاء ضده وطرده .
٢٥	سيسناند	٦٣١ — ٦٣٦	توفي طبيعياً .
٢٦	شلتا	٦٣٦ — ٦٤٠	أخو سيسناند — توفي طبيعياً .
٢٧	توجلا	٦٤٠ — ٦٤٢	ابن سيسناند ، طرده النبلاء وألجأوه إلى الدير .
٢٨	شندسوث	٦٤٢ — ٦٥٣	أشرك ابنه ركسوت معه في الحكم ، توفي طبيعياً .
٢٩	ركسوث	٦٥٣ — ٦٧٢	توفي طبيعياً .

رقم مسلسل	اسم الملك	مدة الحكم	ملاحظات
٣٠	وامبا	٦٧٢ — ٦٨٠	آخر ملك عظيم — تنازل عن العرش ومات طبيعياً .
٣١	لرفج	٦٨٠ — ٦٨٧	طرد عن العرش .
٣٢	أجيكا	٦٨٧ — ٧٠٠	تزوج من ابنة لرفج ، وهو من أقرباء وامبا توفى طبيعياً .
٣٣	ويتزا	٧٠٠ — ٧٠٩ أو ٧١٠ .	ابن أجيكا ، طرد .
٣٤	لوفريق	٧١٠ — ٧١١	آخر ملك قوطى ، هزمه العرب ، وقتل في الحرب .



## مجلس طليطلة

تكوينه — سلطة الملك — اختصاصاته وبرز سلطة رجال الدين .

المظهر المميز لحكومة القوط الغربيين ، هو مجلس الشيوخ الذى عرف باسم مجلس طليطلة أو مجمع طليطلة ( Conseil ou synode de Toléde ) نسبة لانهقاده فى مدينة طليطلة وهى العاصمة الأخيرة لدولة القوط<sup>(١)</sup> ، ويعتبر هذ المجمع المجلس الوطنى الملكى القوطى فى أسبانيا .

ويتكون أعضاء هذا المجلس من عنصرين هما العنصر الدينى ، وهو أهمهما ثم العنصر المدنى ، ويتمثل العنصر الدينى فى الأساقفة ورؤساء الأساقفة ونوابهم من القسس أو السكينة ، وقد مثل هؤلاء النواب لأول مرة فى المجلس الثالث

(١) أول عاصمة لملكة القوط الغربيين حين قامت ، كانت فى تولوز جنوب فرنسا ، وهذه اتخذها أتولف ، كما اتخذ فى نفس الوقت مدينة برشلونة عاصمة لأملاكة الأسبانية وبعد كارثة قويه (٥٠٧م) صمم القوط على نقل العاصمة إلى أسبانيا ، وبدأت هذه النقلة برحزجة العاصمة نحو الجنوب فاتخذ أمالريك الثانى بن ألاريك الثانى مدينة ناربون عاصمة له عام ٥١١م وفى عام ٥٣٢م نقل تيوديس القوطى الشرقى وملك القوط الغربيين مركز الدولة إلى أسبانيا ، فاتخذ برشلونة عاصمة عامة للدولة ، غير أن الاضطرابات التى شملت جنوب أسبانيا ، قد حملت ابنه تيودجسيل على نقل العاصمة إلى موضع قريب من مصدر الاضطرابات ، فاتخذ أشبيلية ، أما أجيالا فرأى أن تكون العاصمة فى موضع أكثر توسعا ومن ثم جعل ماردة عاصمة له ، ولما كان البيزنطيون قد استعادوا أملاكهم جنوب أسبانيا على عهد جستنيان ، رأى الملك القوطى أثالاجلد حليف جستنيان ، ويدين له بعرشه ، رأى أن يترك ماردة القريبة من هذه الأملاك ويستقر فى طليطلة ، وهى فى مركز متوسط فى شبه الجزيرة ، ورغم أنها فى منطقة قليلة الحصوبة إلا أنها ذات موقع استراتيجى هام وأصلح نقطة لحكم أسبانيا ، وظلت طليطلة عاصمة للقوط حتى نهاية دولتهم ، واتخذها العرب عاصمة لفتحهم لى أسبانيا فترة من الزمن ثم عدلوا عنها إلى قرطبة .

الذى عقد عام ٥٨٩ م على عهد الملك ركارد الأول ، كذلك يضم هذا العنصر رؤساء الأديرة الذين سمح باشتراكهم للمرة الأولى منذ المجلس الثامن عام ٦٥٣ لـ زمن الملك ركسوث ، وهناك القمامسة ورؤساء الشمامسة ورئيس المرتلين في كاتدرائية طليطلة . أما العنصر المدني فيمثله أعضاء من البيت المالكي ورجال البلاط وكبار الموظفين ، وكلهم من طبقة النبلاء .

والملك وحده حق دعوة هذا المجلس للانعقاد ، كما أن من حقه تعيين وعزل الأساقفة أو غيرهم من عضويته ، وليس له ميعاد معين للانعقاد بل يدعى كلما دعت الحاجة في أى وقت ، والمعروف أن أول جلسة لهذا المجلس بعد قيام دولة دولة القوط ، كانت في برشلونه عام ٥٤٠ م على عهد الملك تيوديس ، وقد ساهمت المجالس المختلفة بسلطة الملك وحقوقه فيما يتعلق بدعوة المجلس ، وذلك باستثناء المجلس السابع الذى عقده الملك شندسونت عام ٦٤٦ م ، إذ يبدو أن هذا المجلس ترك مسألة النص على الاعتراف بهذه الحقوق مبهمة غير محددة ، فلم يتعرض لها بمرح أو تعديل ، وعلى العكس من هذا نصت قرارات المجلس التاسع الذى عقده ركسوث عام ٦٥٥ م على تأكيد هذه الحقوق ، وتشير صراحة إلى أنه ليس من حق الأساقفة — لبروز العنصر الدينى من حيث العدد والنفوذ — أن يجتمعوا إلا بأمر الملك<sup>(١)</sup> .

يقدم المجلس مشورته إلى الملك فيما ينبغى اتخاذه ، كما أن الملك يستشير المجلس في سياسته ويستصدر منه القرارات اللازمة ، وبمجموعة قرارات هذا المجلس هي القانون القوطى أو القانون المدنى للدولة القوطية<sup>(٢)</sup> . والملاحظ أن العنصر الدينى هو المختص في مجلس طليطلة ببحث وتقرير المسائل الدينية ولكن

---

(١) Deanesly, pp. 102 - 108; Lecl., pp. 314 - 15, 333, 336, 347

C. med. H., II, p. 188

(٢) Lecl., p. 245; Deanesly, p. 102 أنظر التشريعات القانونية .



رجال الدين طغوا على سلطة المدنيين من زملائهم أعضاء المجلس ، وشاؤوهم في بحث الأمور المدنية للدولة في كل القروع ، بل إن نفوذ هيئة الإكليروس القوطية قد فاق نفوذ النبلاء في بحث شئون الدولة العامة ، ويرجع هذا في الواقع إلى أن هذه الطبقة هي التي تميزت بالثقافة العالية دون غيرها<sup>(١)</sup> ، ولذا فإن الدستور القوطي يعد من عمل رجال الدين ، مما يدل على أن الكنيسة والدولة عند القوط الغربيين كانتا ممتزجتين معاً بالمفهوم البيزنطي ، ولا سيما في القرنين السادس والسابع الميلاديين ، وأمر امتزاج التشريعين الديني والمدني في مجلس طليطالة ليس غريباً في ذلك العصر<sup>(٢)</sup> ، بل إن أصول هذا الطابع يمكن أن ترد إلى فجر تاريخ القوط يوم حثكوا بالامبراطورية البيزنطية وألقوا ما شهدوه فيها من ارتباط الكنيسة بالدولة ، وهذا بجانب ما ألفه الجرمان عامة منذ عهد وثابتهم في الاعتماد على مجلس من الأحرار ، وفي سمو مكانة السكينة لديهم .

لعب رجال الدين في أسبانيا القوطية دوراً يفوق ما لعبه أقرانهم في مجالس الدول المعاصرة لهم ، مثل مجلس الفرنجة المعروف بإسم ( *Les Champs de mars* ) ( *ou de mai* ) والويتان عند الأنجلوسكسون : ( *Wittenagemot or Witan* )<sup>(٣)</sup> وعند اللومبارد نجد الجمعية العمومية في بافيا ؛ في كل هذه المجالس لم تبرز سلطة رجال الدين كما برزت في أسبانيا القوطية في مجلس طليطالة<sup>(٤)</sup> .

---

(١) Guizot, p. 86

(٢) Deanesly, p. 108

(٣) روس : التاريخ الإنجليزى ( ترجمة الدكتور زيادة ) ص ٣٤ .

(٤) Lecl., p. 331

## التشريعات القانونية

أهمية تاريخ القوط الغربيين في مجال التشريع — المجموعات القانونية  
التي أصدرها القوط الغربيون — بعض محتوياتها ومدى تأثيرها بالقانون  
الروماني — طابع التشريعات القوطية .

سيطر على التشريع القانوني عند القوط الغربيين ، فكرة التقريب بين  
الرعايا الرومان وعناصر القوط ، وكذلك فكرة الاقتباس من الحضارة الرومانية  
ومزج التقاليد الجرمانية بالمدينة الرومانية . ومرجع هذا وذاك هو العمل على ترقية  
المجتمع القوطي وتدعيم ملك الدولة القوطية بإزاء ما تلقاه من عقاب في الداخل  
وما تستهدف إليه من أخطار خارجية ، وكما كان التحول من الأريوسية إلى  
الكاثوليكية خطوة كبرى في الوصول إلى هذا الهدف — وإن جاءت متأخرة —  
فكذلك كانت التشريعات القانونية ، بل إن شهرة القوط الغربيين من بين  
سائر الجرمان ، ترجع أساساً إلى تراثهم القانوني<sup>(١)</sup> ، فضلاً عن فكرة التقنين  
نفسها وإدراك أهميتها ، يضاف إلى ذلك أن أعظم عمل قانوني صدر عن العناصر  
الجرمانية عند الإطلاق ، هو ما جاء عن القوط الغربيين<sup>(٢)</sup> ، كما أن قيمة القوانين  
التي وضعوها تفوق ما عداها من قوانين الدول الجرمانية الأخرى<sup>(٣)</sup> ، هذا وإن  
قانون القوط الغربيين لم يظل كغيره من القوانين البربرية الأخرى متسماً بطابع  
الشخصية<sup>(٤)</sup> ، بل تطور تدريجياً حتى صار تشريعاً قومياً أو وطنياً يطبق على

(١) Lav. et Ramb., 1, p. 108

(٢) Eyre, pp. 57 و 8

(٣) Lecl., p. 329

(٤) الدكتور بدو : مبادئ القانون الروماني ص ١٣٦ .



جميع الرعايا دون تمييز بين جنسياتهم ، وبذا زالت عنه الصفة الشخصية<sup>(١)</sup> .  
وأقدم مجموعة قوانين (Code) مكتوبة أصدرها القوط الغربيون ، هي  
المجموعة التي نشرها الملك يوريك (٤٦٦ — ٤٨٥ م) مؤسس الإمبراطورية  
القوطية ، فقد أمر وهو في عاصمته تولوز — جنوب النال — بجمع العادات  
والتقاليد القوطية ، وكذلك ما صدر من قوانين على عهد أسلافه ثيودريك  
الأول (٤١٩٨ — ٤٥١ م) ، ثورسمند (٤٥١ — ٤٥٣ م) وثيودريك الثاني  
(٤٥٣ — ٤٦٦ م) ، ضوم على ما جمع ما أصدره هو من قوانين أودساتير  
(Constitutiones) ، ورتب هذا كله في مجموعة واحدة مبنية تبويبا موضوعيا<sup>(٢)</sup>  
ثم إن يوريك سمح للرومان الخاضعين له بأن يسيروا وفق قوانينهم الخاصة في  
نظمهم ومعاملاتهم فيما بين أنفسهم ، ومعنى ذلك أنه منذ عهد يوريك وجد في  
غاليا ، وكذلك في أسبانيا مجموعتان من القوانين هما المجموعة القوطية (C. G.)  
والجموعة الرومانية (C. R.) وكانت المجموعة الأولى أوسع نطاقا من الثانية من  
حيث التطبيق العملي ، فبينما تسرى الأولى على جميع القضايا والمسائل التي تقع  
بين القوط أنفسهم ، ثم بينهم وبين الرومان ، اقتصر سريان المجموعة الرومانية  
على الرومان فقط<sup>(٣)</sup> .

ويلخص هدف يوريك من هذا العمل القانوني ، في تدعيم سيادته على  
رعاياه من القوط والرومان ، وقد ظل خلفاؤه يضيفون إلى مجموعته القانونية ،  
على أن ألاريك الثاني بن يوريك (٤٨٥ — ٥٠٧ م) عمل على إصدار مجموعة  
جديدة ، بأن ألف لجنة من كبار المثقفين من الأساقفة والنبلاء ومن بعض

---

Guizot, p. 87 (١)

(٢) لم تزل مقايا هذه المجموعة مخطوطة إلى اليوم بالمسكنية الوطنية بباريس .

(Encycl. Brit., Art. "Leges Visigothorum",)

Lot, p. 182 (٣)

العلماء ، وتولى رئاسة هذه اللجنة الكونت جوجاريكوس ( *Gojaricus* ) ، كلف للملك هذه اللجنة بجمع القانون الروماني السائد بين رعاياه الرومان في مملكته ، فأنجزت اللجنة عملها ووافق أالريك عليه في مجلس عقده في مدينة أير ( *Aire* ) بمنطقة غشكونيا شمالي أسبانيا ، وذلك عام ٥٠٦ م وجاءت نتيجة هذا العمل في المجموعة ، المشهورة باسم ( *Breviarum Alaricianum* ) نسبة إلى الملك أالريك الثاني وأحياناً تضاف هذه المجموعة لا إلى الملك وإنما إلى أبرز الفقهاء الذين عملوا فيها وهو الشارح أنيانوس ( *Anianus* ) الذي وقع النسخ الأصلية فيقال لها ( *Liber Aniani* أو *Brev. Aniani* )<sup>(١)</sup> لكن يلاحظ أن نسبة هذه المجموعة إلى الملك أالريك نسبة حديثة لم تعرف إلا في القرن السادس عشر الميلادي ، حين أطلقها الفقهاء عليها تمييزاً لها عما سواها من المجموعات القوطية ، وربما كانت التسمية التي عرفت بها عند صدورها هي التسمية المنسوبة إلى ذلك الفقيه .

صدرت هذه المجموعة لصالح الرعايا الرومان وطبقت على القوط والرومان ، ومن أجل هذا تعد قانوناً رومانياً للقوط الغربيين : ( *Lex Romana Visigothorum* )<sup>(٢)</sup> ، وفي نظر مؤرخي القانون أن مجموعة أالريك هذه أعظم عمل قانوني صدر عن ملك جرمانى ، فقد بلغ من أهميتها وشهرتها أن غدت أساساً للقانون المكتوب في وسط فرنسا ، وتشبه في ذلك أثر مجموعة جستنيان في القرون التالية ؛ وفي مجال التقريب بين القوط والرومان ، يلاحظ أن وضع هذين العنصرين حتى نهاية القرن الخامس الميلادي وهما مع القرن السادس ، كان يشبه وضع الرعايا في دولة البرجنديين والدولة الميروفنجية ،

---

(١) Lav. et Ramb., 1, p. 109

(٢) Oman, p. 226; Lav et Ramb., 1, p. 109; Bryce, p. 32 Encycl.

Britt. ; Lecl, p. 245



حيث يوجد قانونان مختلفان عن بعضهما تمام الاختلاف وهما القانون الجرمانى والقانون الرومانى ؛ فكل عنصر قوانينه الخاصة ، ولذا أصدر الأريك الثانى هذه المجموعة ، جاء عمله هذا محاولة كبرى وخطوة واسعة فى سبيل التقريب بين القوط والرومان مهدت لإلغاء شخصية القوانين التى تميز بها التشريع القوطى فى أول عهده ، وقد ظفرت هذه المجموعة بالرضا العام ولا سيما من الرومان لأنها لم تغير شيئاً من القانون الرومانى<sup>(١)</sup>.

وتمشى التقريب بين التشريعين القوطى والرومانى إلى حد كبير مع ازدياد اصطلاح القوط بالتقاليد الرومانية والحضارة الرومانية ، حتى أن القوط يوصفون من بين سائر الجرمان بأنهم العنصر الجرمانى الذى اصطبح بالحضارة الرومانية<sup>(٢)</sup>. ومع هذا العامل العام الكبير ، فهناك باعث سيمى مباشر مؤداه أن الأريك الثانى أراد أن يسرع فى استجلاب رضا الرعايا الرومان ، بعد أن رأى قوة الفرنجة تظهر عقب انتصار ملكهم كلوفس فى سواسون عام ٤٨٦ م واستيلائهم على مملكة سياجريوس الرومانية ، وهى آخر ولاية رومانية فى بلاد الغال ، وبهذا الوضع الجديد أضحت الفرنجة وجهاً لوجه مع القوط الغربيين فى غاليا ، ولعل الخطوة الأعمق أثراً ، والتى حملت الأريك الثانى على إصدار هذه المجموعة ، هى اعتناق كلوفس المسيحية على للذهب الكاثوليكي عقب انتصاره على الألمان عام ٤٩٦ م<sup>(٣)</sup> ، مما جعل حكمه مقبولا من الرعايا الرومان حتى أطلق عليه المعاصرون « ملك الرومان » ( Rex Romanorum ) .

والمعروف أن القوط الغربيين فى ذلك الوقت كانوا متعصبين لأريوسيتهم ، لهذا وذاك أقبل الأريك على اتخاذ هذه الخطوة الإيجابية لتهيئة الجو الحسن

١. (١). Lecl., pp. 245 - 6; Deanesly, p. 97. بدر ( نفسه ) ص ١٣٦ .

(٢) Pirenne ( J. ), p. 430

(٣) Deanesly, pp. 95 - 6

للتفاهم بين الرعايا الرومان السكاثوليك والقوط الأريوسيين ، حتى يقفوا بجانبه  
إزاء خطر القرنة ، وتحقق الخطر الذي كان يخشاه الأاريك من جانب الفرنجة  
فسرعان ما وقعت وقعة فوييه ( ٥٠٧ م ) أى فى السنة التالية لإصدار مجموعة  
الأاريك وفى هذه الوقعة قتل الملك القوطى<sup>(١)</sup>.

وكيفما كان الدافع للأاريك على إصدار هذه المجموعة الرومانية ، فإن هذا  
لا يقلل من قيمتها فى عملية اللزج بين عنصرى القوط والرومان ، فضلاً  
عما أمهت به فى حفظ القانون الرومانى حتى قيام النهضة القانونية فى بولونيا  
بإيطاليا خلال القرن الثانى عشر الميلادى ، وكان بعض البلاد قبل هذه النهضة ،  
يستمد القانون الرومانى من مجموعة الأاريك هذه<sup>(٢)</sup> ، ويلاحظ على مجموعة  
الأاريك أنها لم تحقق المساواة التامة بين القوط والرومان ، لأنها لم تلغ القانون  
الرومانى الذى يحرم الزواج بين الفريقين ، ولو أن هذا التحريم قد أهمل فيما بعد  
من الناحية العملية<sup>(٣)</sup>.

وعلى عهد ليوفجلد ( ٥٦٨ — ٥٨٦ ) م صدرت مجموعة قوانين جديدة ،  
مكاملة لمجموعة الأاريك الثانى ، على أن هذه المجموعة الجديدة فقدت وإن ظل  
بعض بقاياها ، ومن هذه البقايا ما يشير إلى أن هذه المجموعة اقتبست كثيراً  
من المواد التى تضمنتها مجموعة الأاريك وهذه كان يشار إليها عادة بعبارة  
« قديم » ( Antiqua ) وينسب إلى ليوفجلد إعادة إصدار مجموعة يوريك  
وإضافة قوانين إليها<sup>(٤)</sup>.

---

(١) Lot, p. 183

(٢) Lav. et Ramb., 1, p. 109; Eyre, pp. 57 - 8

(٣) صدر هذا القانون عام ٣٦٥ م على عهد الإمبراطور فالنتينيان ويقضى بتحريم الزواج

بين البرابرة والرومان . ( Deanesly, p 105, Tecl., p. 349 )

Encycl Britt. (٤)



والمنهم في التطور الذي استهدف إليه التشريع القوطي من بعد عهد ايوونجلد .  
هو أن القوانين التي كانت تصدر من قبل الحكومة القوطية ، كان يقصد بها  
التطبيق الشامل على جميع الرعايا مهما كانت أجناسهم ، وساعد على ذلك تحول  
ركارذ الأول ( ٥٨٦ — ٦٠١ م ) إلى النكاثوليكية ، فزال بهذا التحول أهم  
خلاف بين الحاكم والرعية ، ومن ثم زالت الصبغة الشخصية عن التشريع  
القوطي وأضحت القوانين عامة ، وأهم عمل قانوني في هذا الصدد ، هو ما تم  
على عهدي الملك شند سونث أو كند سونث ( ٦٤٢ — ٦٥٣ م ) وابنه ركسونث  
( ٦٥٣ — ٦٧٢ م ) . أمر الملك شند سونث بأن جميع الرعايا على اختلافهم  
يجب أن يحكموا بمقتضى قانون واحد وأن يحاكموا أمام هيئة قضاة واحدة ،  
وأصدر في عام ٦٤٢ م ، أى في مطلع حكمه ، المجموعة السكبرى المعروفة باسم  
( Liber Judiciorum أو Forum Judiciorum ) ، وهذه هي التى أكلها ابنه  
من بعده ٦٥٤ م . وتحقق هذه المجموعة الامتزاج التام بين التشريع القوطي  
والتشريع الرومانى ، وأزالت إزالة رسمية نهائية ، الصفة الشخصية للقوانين  
المطبقة في دولة القوط الغربيين ، وأضحت منذ ذلك الوقت تنمو وتزداد وتتطور  
إلى عهد أجيك ( ٦٨٧ — ٧٠٠ م ) حتى أخذت الشكل النهائى الذى وصلت به  
إلىنا<sup>(١)</sup> . ثم إن الملك ركسونث قد عرف باتباعه خطة جستنيان بصفة خاصة ،  
حين أصدر عام ٦٥٥ م ما عرف باسم المتجددات ( Novellae )<sup>(٢)</sup> .

أما مجموعة ( F. J. ) فهى موسوعة قانونية ( Legal Digest ) شملت  
معظم القوانين التى صدرت عن ملوك القوط الغربيين منذ عهد يوريك حتى  
عهد أجيك ، روجعت وصححت ونقحت على يد الملك إرفيج ( ٦٨٠ — ٦٨٧ م )  
الذى أعاد إصدارها باسم جديد ( Lex Visigothorum Renovata )

(١) Lecl., pp. 329 - 30

(٢) Deanesly, p. 105, Pirenne. ( L ) p. 430

وأضيفت إليها عدة إضافات على عهد الملك اجيكا ، حين أقرها مجلس طليطلة السابع عشر الذي انعقد عام ٦٩٣ م<sup>(١)</sup> . غير أن الاسم الذي اشتهرت به هو ( F. G. ) ظل لاصقاً بها . وهي خليط من القانون الروماني والقانون القوطي ، وتضم نحو ٣٢٤ قانوناً أخذت من مجموعة ليوفجلد ، وقليلاً من قوانين ركارد الأول وسيست ، كذلك بها ٩٩ قانوناً من قوانين شندسونث ، و ٨٧ قانوناً من عمل ركسونث ، وتشمل كل فروع القانون من سياسية ومدنية وجنائية ، بحيث تقي بجميع حاجات المجتمع<sup>(٢)</sup> .

ومن حيث التنظيم والتبويب ، نجدها مكونة من ١٢ جزءاً ومقسمة الى ٥٤ موضوعاً وبها ٥٩٥ مادة . بقيت هذه المجموعة حتى بعد زوال دولة القوط على يد العرب ، إذ أن زعماء أسبانيا الذين لجأوا إلى اشتوريا في الشمال ولم يستسلموا للعرب ، ظلوا يسرون في حكومتهم وفق هذه المجموعة ، بل إن العرب أنفسهم قد اقتبسوا منها بعض ما يلائمهم في حكومتهم الجديدة<sup>(٣)</sup> . وحتى بعد استعادة أسبانيا من يد العرب ، طبقت هذه المجموعة في جميع أنحاء أسبانيا ، وفي القرن الثالث عشر الميلادي ، أمر الملك فرديناند الثالث بترجمتها من اللغة اللاتينية إلى اللغة القشتالية ، وصارت تعرف في هذه اللغة الأخيرة باسم ( Fuero Juzgo )<sup>(٤)</sup> .

من هذا يتضح مدى اهتمام القوط الغربيين بالتقنين ، ومدى أهمية هذا العمل الذي عنوا به عناية مبرزتهم عن غيرهم من الشعوب الجرمانية ، أما محتويات المجاميع القانونية التي أصدروها فقد روعي فيها أن تقي بكل حاجات المجتمع

---

(١) Encycl. Britt.; Lav. et Ramb., 1, pp. 109 - 110

(٢) Deanesly, p. 105 ؛ الصادر الأخرى .

(٣) Deanesly, p. 109

(٤) Lot, p. 183



القوطى ، كما وضع فيها المزج بين التشريع الرومانى والتشريع القوطى والإفادة من القانون الرومانى لدرجة كبيرة ، فمثلاً أبتت مجموعة يوريك القوانين الرومانية الخاصة بحماية الأموال ، كما كان سائداً عند الرومان ، ويشيراً أحد قوانين يوريك إلى حماية الفلث القديم الذى كان مقرراً ضيافة إجبارية للقوط المعاهدين على أصحاب الأملاك من الرومان ، وقد راعى يوريك أن ينص فى قوانينه على حماية الأملاك وعدم العبث بحدودها المعروفة ، ونصت على عقوبة من يخالف هذه القوانين<sup>(١)</sup> . أما مجموعة ألابريك ( Br. Al. ) فهى مجموعة قوانين رومانية كاملة ، فيها ما يتعلق بعقوبة السارق ، وما يتعلق بشروط استيراد الأسلحة لفرق الحرس الخاصة ( Saines )<sup>(٢)</sup> بكبار الملوك ، غير أن هذه المجموعة أبتت على القانون الرومانى الخاص بتعريم الزواج بين القوط والرومان ، وهذا القانون قد ألغى فى مجموعة ( F. J. ) إذ أباح الملك ركسوث الزواج بين العنصرين وإن كان قائماً من الوجهة العملية منذ عهد ليوفجلد ، وفى هذه المجموعة الأخيرة ، تركزت خلاصة التشريعات القوطية فى جميع المسائل ، كتنظيم التجارة ، وكيفية تداول النقود ، والصور المختلفة لمسائل الخلاف على الحدود والمجارى المائية ، والاعتداء على الزراعة وغيرها . هذا ولم تخل تشريعات القوط من القوانين الكثيرة التى تنص على اضطهاد اليهود ، ولعل من بين التشريعات المهمة ما أصدره وامبا خاصاً بتعميم الخدمة الحربية وعقوبة التهرب منها بالنفى ومصادرة الأموال والحرمان من حقوق اللواتن<sup>(٣)</sup> .

وتتميز التشريعات القوطية التى تركزت أخيراً فى مجموعة ( F. J. ) بأنها لم تكن مجرد مجموعة قوانين ، ولكنها ذات صبغة فلسفية وتعليمية ، فهى تضم بين آن وآخر بعض البحوث عن أصل المجتمع وطبيعة السلطة والتنظيم المدنى ،

(١) Deanesly, p. 96 .

(٢) يقابل هذه الفرق ما عرف عند الرومان باسم ( Buccellarii )

(٣) Lecl., p. 339; Oman, 230

كذلك بها مواظب خلقية ونصائح وتحذيرات وأفكار عن الرحمة والعدالة ومعرفة دقيقة بحقوق الإنسان ومبادئ المساواة أمام القانون ، وهاتان الناحيتان هما عنصرا الحضارة الحديثة<sup>(١)</sup> . وكذلك تعرضت لالتزامات الهيئة الحاكمة ، ومعنى الصالح العام ودلالته ، وهي في ذلك تهدف إلى الوصول بالمجتمع القوطي إلى غاية أسمى مما تضمنته التشريعات البربرية الأخرى . ويصنفها أحد الباحثين بأنها « ذات طابع علمي ومنطقي واجتماعي<sup>(٢)</sup> » .

ويرجع هذا الطابع المميز للتشريع القوطي أن القانون القوطي هو في الواقع من عمل رجال الدين ، وهو حصيلة ما أصدره مجلس طليطلة خلال عصر الدولة القوطية من قرارات ، وقد انفردت أسبانيا القوطية بهذا اللون من التشريع نظراً لما لعبته الهيئة الدينية فيها من دور يفوق ما يقوم به أقرانهم عادة في الدول الأخرى ، ففي مجلس طليطلة وهو المجلس الوطني للملكية القوطية الأسبانية ، وسماه إن شئت مجمعا دينيا ووطنيا في نفس الوقت ، في هذا المجلس كانت الهيئة الدينية هي المركز الذي التفت حوله الملكية والأرستقراطية المدنية والشعب ، بل المجتمع القوطي بأسره .

من أجل هذا تحتل مجموعة ( F. J. ) مكانة خاصة ليس في تاريخ التشريع فحسب وإنما في تاريخ الإنسانية ، فهي تمثل خطوة كبرى في تحقيق الامتزاج بين مجتمعين في بيئة واحدة ، غير أنه يؤخذ عليها من الناحية السياسية أنها تركت الرعايا من غير ضمانات ، فهي قد جعلتهم تحت رحمة رجال الدين من ناحية ورحمة الملك من ناحية أخرى ، على خلاف ما تضمنته التشريعات عبد الفرنجة والسكسون والالومبارد والبرجنديين<sup>(٣)</sup> .

---

Guizot, p. 87 (١)

Guizot, p. 89; Lochl., p. 331 (٢)

Lochl., pp. 331 - 2 (٣)



## ٢ — السياسة الدينية

تنظيم هيئة الأكبروس القوطية — طابع الكنائس الأريوسية  
الجرمانية — القوانين الخاصة بتنظيم الهيئة الدينية — سلطة رجال الدين  
وعلاقتهم بملوك القوط — التعصب للأريوسية — بوادر التحول إلى  
الكاثوليكية — ركارد والتحول الرسمي ٥٨٧ م — أثر هذا التحول  
في العلاقة مع البابوية والدولة البيزنطية — انتشار بعض مظاهر الحضارة  
البيزنطية — الأثر السياسي في تحقيق الوحدة الداخلية — اضطهاد  
اليهود وأثره .

يحتمل أن تنظيم الكنائس الأريوسية قد تأثر بالعادات والتقاليد الجرمانية ،  
فقد لعبت ذكريات المجتمعات الوثنية القديمة ونظام الكهانة لديها ، دوراً خطيراً  
في تحويل الكنائس الأريوسية إلى مؤسسات أو نظم وطنية تميزها تقاليد شعوبها  
وتخضع الملك ، ولذا لم يكن من السهل في مثل هذا التنظيم فصل الدين عن  
السياسة ، إذ كانت الأهداف السياسية هامة لدى الجرمان ، وعلى خلاف التنظيم  
الكاثوليكي حيث تتركز جميع التقاليد الرومانية المستندة إلى روما وحضارتها  
حيث قام التنظيم الكنسي لهدف خاص ، هو الهدف الخيري كحمالة الجسوع  
والفاقة ، نجد الكنائس الأريوسية تتمثل فيها الروح الجرمانية التي تمثل طبقة  
أقلية حاكمة تتميز بنظامها اللامركزي ، وإن لم يكن هذا ، اضطراباً على الدوام<sup>(١)</sup> .  
وظلت الأريوسية نحواً من ثلاثة قرون عقيدة القوط الوطنية ، أخلصوا لها  
أشد الإخلاص ، ولذا نجاء تحول ركارد فيما بعد إلى الكاثوليكية خطوة جريئة  
جداً ومغامرة كبرى ، في أن يدين بمذهب كنيسة أجنبية عن شعبه ووطنه<sup>(٢)</sup> .

(١) Moss, pp. 74 - 5

(٢) Bradley, p. 329

نظم القوط الأريوسيون هيئتهم الدينية تنظيماً دقيقاً ، وعقدوا لذلك عدة مجالس دينية ، أهمها في مجال التنظيم الكنسي ، ما عقد على عهد الملك أمالريك ( ٥١١ — ٥٣١ م ) فقد عقد عام ٥١٦ م مجلساً دينياً في تراجونه برئاسة أسقف المدينة وحضره أساقفة المدن الرئيسية وفي نهاية العام التالي عقد مجلساً آخر في مدينة جيرون ( Girona ) برئاسة رئيس أساقفة تراجونه ، كما عقدت مجالس أخرى في لاريد ( Lareda ) وفالنسيا في عام ٥٢٤ م . وبحوث هذه المجالس الدينية إدارية لتنظيم هيئة الأكليروس الأريوسية .

ويهمنا من هذه المجالس المجلسان الأولان : مجلس تراجونه ومجلس جيرون . أصدر مجلس تراجونه ثلاثة عشر قانوناً تتعلق كلها برجال الدين وحقوقهم والتزاماتهم فالقانون الأول ينص على أن القسوس والرهبان الذين يساعدون ذويهم ينبغي ألا يعطوهم إلا الضروري وأن تكون زيارتهم لهم قصيرة جداً ، وبترخيص ، بشرط ألا يبيتوا عندهم ، وفي حالة مخالفة هذه التعليمات يعاقب القسيس بالفصل ، أما الراهب فيحبس في قلايته ( Cellule ) ولا يعطى من الطعام والشراب سوى الخبز وللماء . ويحرم القانون الثاني على رجال الدين الشراء بسمه وبيع بسمه مرتفع ولا يسمح القانون الرابع لأي أسقف أو مطران أو قسيس بالبقاء يوم الأحد في المحكمة باستثناء حالات نظر القضايا الجنائية ، ويؤكد القانون الخامس ضرورة حصول رجال الدين في الأقاليم على التعليمات من رئيس الأساقفة في مركز الإقليم ؛ أما القانون السادس فيحتم حضور الأسقف للمجامع الدينية ما لم يكن مريضاً بمرض خطير يحول دون حضوره ، ويوصى القانون السابع بضرورة تبادل الآراء بين رجال الدين في الأقاليم طوال الأسبوع ، بينما ينصب القانون الثامن على توضيح بعض واجبات الأسقف في التفتيش على الكنائس الواقعة في دائرته لإصلاح ما قد تكون في حاجة إلى إصلاح عادي دون تمييز كنيسة عن أخرى ، لأن الأسقف ، تبعاً للتقاليد المقررة ، له من جميع المهبات التي تقدم للكنائس



دائرته الأسقفية . ويحزم القانون العاشر على جميع رجال الدين قبول الهدايا ، باستثناء الهبات التي تقدم للكنيسة . ويمنع القانون الحادى عشر الرهبان من شغل أى وظيفة أو مزاولة أى عمل دينى خارج ديرهم وبدون إذن رئيس الدير الخ...<sup>(١)</sup>

أما قرارات مجمع جيرون فكانت فى ميادين الطقوس والعبادة وتنظيمها ، والأعياد الدينية ونظام التعميد . الخ<sup>(٢)</sup> ، وكذلك تناولت المجالس الأخرى التي عقدت فى فالنسيا ولارده ، تفاصيل أخرى فى التشريعات الكنسية ، كأن ينص القانون السادس من قوانين مجلس لاريدى على تحريم العبث بمحتويات الأسقفية ، عند وفاة الأسقف أو دنوه من الموت ، بل يترك كل شىء على حاله حتى يعين الأسقف الجديد ، ويوضح مجلس فالنسيا طريقة حصول ورثة الأسقف على أملاك الأسقف الخاصة وهكذا...<sup>(٣)</sup>

ولم يختلف التنظيم الكنسى كثيراً عند ما تحول القسوط الغربيون إلى الكاثوليكية منذ عهد ركارد عام (٥٨٧ م) ، غاية ما فى الأمر أن الهيئة الأكليريكية القوطية الأريوسية صارت كاثوليكية واندجبت مع الهيئة الكاثوليكية الرومانية التي كانت منفصلة عنها قبل تحول القوط ، ثم ازدياد الصبغة الرومانية والبيزنطية بصفة خاصة فى طابع التنظيم والتقاليد الكنسية ، وعقدت عدة مجالس دينية على عهد ركارد بعد تقرير الكاثوليكية بفضل توجيهات الأسقف ليندر ، وهدف هذه المجالس إعلان قرارات التحول إلى الكاثوليكية وتنظيم الهيئة الدينية ، من هذه المجالس مجلس عقده رئيس أساقفة ناربون ( أول نوفمبر ٥٨٩ م )

---

(١) Lecl., pp. 240 - 43

(٢) Ibid, p. 243

(٣) Ibid, pp. 244 - 5

ومجلس عقده الأسقف ليندر في أشبيلة في السنة التالية، ومجلس في سرجوسه (سرقسطه) عام ٥٩٢، ومجلس كبير في طليطلة (٥٩٧) مثلت فيه جميع الأقاليم الأسبانية. ومن قرارات هذا المجلس الأخير اثنان ينص أولهما على ضرورة محافظة القسيس على الطهارة والعفة، ويمنع الثاني الأساقفة من وضع أيديهم على أملاك الكنائس في دوائرهم الأسقفية<sup>(١)</sup>

على أن الملاحظ على التنظيم الكنسي في دولة القوط، سواء أ كان ذلك وهم على الأريوسية أم على الكاثوليكية، أن سلطة رجال الدين ولا سيما كبارهم كانت نافذة وفعالة، وربما علت على سلطة الملك، وهذا يتفق على ما درج عليه القوط وغيرهم من الجرمان منذ عهدهم الوثني فقد كانوا يعتقدون في كل ما يدلى به كهنتهم، ففي المخاطر لا ينتظرون عوناً إلا من الله، وقبل الممارك يتعبد ملوكهم بما حمل بعض قادة الرومان على السخرية بهم، وإذا انتصروا عزوا ذلك إلى تدخل القوى الإلهية، ولذا كان ملوك القوط يبجلون الهيئة الدينية<sup>(٢)</sup>.

وكان الأساقفة مع النبلاء للدينين روح مجلس طليطلة ولهم السهم الأوفى في التشريعات الحكومية، والأدلة على ذلك كثيرة منها مثلاً: حين تقدم الملك سيسناند عام ٦٣٣ م إلى مجلس طليطلة الرابع الذي عقده، تقدم متوسلاً إلى الأساقفة في ذلة وتواضع أن يدعو الله له ويطلبوا الرحمة منه كي يمنحه القوانين الصالحة لدولته<sup>(٣)</sup>. وفي المجلس الثامن (٦٥٣) صرح الأساقفة بأن السيد المسيح قد اختارهم لإرشاد العالم وتنقيته<sup>(٤)</sup>، وهكذا، وقد فهم الملوك من جانبهم بأن التقوى هي في طاعة الأساقفة الذين أتيح لهم أن يرشدوا الملوك في المسائل العامة.

---

(١) Lecl., pp. 288 - 9

(٢) Dozy, II, p. 19

(٣) Lecl., p. 302

(٤) Dozy, II, p. 21



وبازدياد سلطة الكنيسة وتضخم ثروتها ، أضحي رجال الدين أصحاب أملاك واسعة يشتغل فيها قطعان من الرقيق المسخر ، ولهم قصور فاخرة في الضواحي يقوم بالخدمة فيها عدد كبير من العبيد ، ولم يستنكر أحد من رجال الدين استخدام الرقيق وهذا فضلا عن سوء أخلاقهم<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

والملاحظ على سياسة القوط الدينية ، أن محورها دار حول تدعيم ملكتهم الناشئة وتثبيت قواعدها وسط ذلك انخضم الكاثوليك من العالم الروماني ، ذى التقاليد العريقة والحضارة الرفيعة ، وقد ظن القوط أن باستطاعتهم الاحتفاظ بمذهبهم الأريوسي أو إعلاءه ، وهم بسبيل إنجاز هذا الهدف الكبير ، غير أنهم أخطأوا الظن والتقدير ، فمنذ اللحظة الأولى ، عند اعتناقهم المسيحية الأريوسية ، نظر إليهم كهرطقين وليسوا على الإيمان الصحيح ، وإذا أضيفت هذه النظرة إلى الفارق العنصري والحضاري باعتبارهم جرماناً برابرة ، أمكن تصور مدى الشقة الواسعة التي ظلت تفصلهم عن الرعايا الكاثوليك ، والمعروف أن الإمبراطورية البيزنطية ظلت تجاهد في القضاء على الأريوسية وفي هذا المجال برزت جهود بطاركة الأسكندرية من لدن أثناسيوس (ت ٣٧٣م) زعيم الممسكر المعادي للأريوسية ، وعلى ذلك ظل رعايا القوط منفصلين عن حكمهم روحياً واجتماعياً مدة طويلة ، ولم يكن هناك من رباط يجمعهم أو يقرب بينهم وبين القوط المهرطقين سوى رباط التبعية المشتركة لشخصية الحاكم القوطي .

حقيقة تعصب ملوك القوط الغربيين لأريوسيتهم ، ونظموا كنائسهم وفق تقاليدهم ، ولكن هذا التعصب لم يخدم نفعا في دعم ما فتحوه وأخضعوه بالسيف ، وهم قد أدركوا هذه الحقيقة ، ومن ثم تأرجحت سياستهم الدينية

بين التعصب والتسامح ، ومع ذلك فقد بقي الرعايا الكاثوليك على ما هم عليه من كره دفين نحوهم وانفصال روحي عميق عن ساداتهم ، وإذا تذكرنا أن انقراض سلالة الملوك من أسرة الشجعان المقدسة منذ عام ٥٣١ م ، قد أدى إلى هز أركان عرش للملكية القوطية ، واستهدافها إلى الفتن والمؤمرات والنزاع القاتل ، في بيئة كارهة أصلاً لهؤلاء المتنافسين ، مما يهدد سلطان القوط برمته ، إذا تذكرنا هذا ، أمكن بسهولة إدراك مدى أهمية ما أقدم عليه أحد ملوك القوط العظام ، من وضع حد لهذه السياسة الدينية المذبذبة ، لتأمين ظهر الحكومة القوطية ، فكان تحوله وقومه إلى الكاثوليكية . وقد نجح ولكن بعد فوات الأوان ، إذ انتهت دولة القوط إلى الخطوة التي كان ينبغي أن تبدأ بها وذلك في وقت بدأت فيه طلائع قوة جديدة لا يمكن التسكّن بالحد الذي ستقف عنده ، وأعنى قوة الإسلام .

وإذا كان التعصب المذهبي قد انتهى أواخر القرن السادس الميلادي ، فهناك تعصب ديني ظل قائماً حتى أزمان في الدولة القوطية ، ذلك هو التعصب ضد اليهودية ، أسهم هذا مع غيره من عوامل الهدم ، في إنهاء السيادة القوطية . ظل القوط الغربيون الأريوسيون متسامحين مع رعاياهم الكاثوليك حتى ولى يوريك العرش ( ٤٦٦ - ٤٨٦ م ) ، فانقلبت سياسة التسامح الديني التي اتبعتها أسلافه إلى نوبة من الاضطهاد العنيف ضد الكاثوليك ، ويرجع هذا إلى التعصب يوريك للمذهب الأريوسي أولاً ، وإلى شدة المقاومة التي لقيها خلال فتوحه في بلاد النال ، فضلاً عن قسوته ويطشه ، وإن لم تكن هذه القسوة شيئاً في نظر الرعايا الكاثوليك أو البلاد الكاثوليكية التي فتحها بجانب هرطقته الآئمة في ذلك العصر الديني<sup>(١)</sup> . اعتقد يوريك أن

---

(١) فشر ( ترجمة الدكتور زيادة والدكتور الباز ) ص ١٧ - ١٨ .



سعادة قومه مرتبطة بإعلاء المذهب الأريوسي ، بمعنى أنه والمتعصبين من خلفائه قد مزجوا بين العقيدة والوطنية ؛ ومن أجل ذلك صار المذهب الأريوسي هدفاً على القوط ويشار إليه دائماً بأنه العقيدة القوطية ( *La Foi Gothique* ) وكانت لفظة « الكاثوليكية » في نظر يوريك كلمة مخيفة الرعدة ، وقال عنه سيدونيوس أبوليناريوس : ( *Sidonius Apollinarius* ) أسقف كايرونت — وقد تزعم حركة الدفاع عن المدينة ضد يوريك<sup>(١)</sup> — قال إن يوريك صاحب مذهب أكثر من كونه رئيس دولة ، وتعرض سيدونيوس للنفي والمصادرة على يد يوريك<sup>(٢)</sup> . هذا وأعدم يوريك الكثير من الأساقفة الكاثوليك .

هكذا كانت سياسة يوريك الدينية في بلاد الغال ، وليست هناك معلومات كافية عن تفاصيل سياسته الدينية في أسبانيا ، ويبدو أنها لم تتألف ما اتبعه في اكويتانيا<sup>(٣)</sup> . أما ابنه ألاريك الثاني ( ٤٨٦ — ٥٠٧ م ) فقد كان أكثر تسامحاً منه نحو الكاثوليك لأغراض سياسية ، لأنه رأى كلوثرس الفرنجي وقد اعتنق المسيحية الكاثوليكية بعد وقعة سواسون قد انفصل عن زمرة أو نطاق الملوك الجرمان الأريوسيين وأضحى الفرنجة بعد انتصارهم في سواسون الورثة الحقيقيين للولاية الرومانية في الغال حيث رحب بهم الغاليون ، لذا لم ير ألاريك الثاني بدا من التسامح مع رعاياه الكاثوليك ، حتى سمح لهم بعقد مجلس ديني خاص بهم عام ٥٠٦ م<sup>(٤)</sup> . ولكن سياسة التسامح لم تستمر طوال عهود خلفائه جميعاً من بعده ، كما أن كراهية الكاثوليك لم تزل أو تخف حدتها ، فيذكر عن الملك أجيلا ( ٥٤٩ — ٥٥٤ م )

---

(١) راجع ص ٩٥ .

(٢) *Lecl.*, pp. 232-4; *Stevens: Sid. Apoll.*, pp. 191-194 *Deanesly*, p. 96

(٣) *Lecl.*, p. 232

(٤) *Lecl.*, p. 234; *Deanesly*, p. 97

أنه كان يكره الكاثوليك ولما قرر نقل العاصمة إلى ماردة ليكون في موضع أنسب لبسط سيادته الفعلية على حكام الأقاليم في الأندلس ، لقي مقاومة عنيفة من الكاثوليك الذين ثاروا ضده في قرطبة وهزموه وقتلوا ابنه<sup>(١)</sup> ، وفي سنيل الحصول على العرش القوطي استنجد أثاناجلد المنافس لأجيلا بالأمبراطور جستنيان ، فكان طبيعياً أن تحسن علاقة الكاثوليك وأدى ذلك إلى زيادة الأخذ بأهداب الحضارة البيزنطية على عهد أثاناجلد ، وذهب إلى أبعد من هذا حين أصهر إلى الفرنجة الكاثوليك يتزوج ابنتيه في بيت الفرنجة ، وفي أحضان الفرنجة اعتنقت هاتان الابنتان الكاثوليسكية<sup>(٢)</sup> ، ورغم أن أباهما لم يعلم بهذا التحول ، إلا أنه كان متسامحاً مع الكاثوليك ونجحت مهادنته لهم وارتباطه الدموي بالبيت الفرنجي في حماية أملاكه الغالية من هجوم الفرنجة ، وكان من أثر هذه السياسة أن رشح الرعايا الغاليون للقوط ، ليوثا بن أثاناجلد ليكون ملكاً عليهم<sup>(٣)</sup> فكان هذا عاملاً في أن يشترك في الحكم مع أخيه ليوفجلد عام ٥٦٨ م ، ولكن ليوفجلد كان على رأس الحزب القوطي ( Pro-Gothic ) الذي يعارض سياسة الميل نحو بيزنطة والتقاليد الرومانية ، فالتجهد سياسته الحربية إلى إخضاع جميع شبه جزيرة أيبيريا وهذه اقتضت منه أن يحارب البيزنطيين وأن يطرد من بعض المناطق التي احتلوها بجنوب أسبانيا على عهد أبيه ، ولما ثارت قرطبة قمعاً بعنف ونكل بالكاثوليك أسوأ تنكيل كما هزم الفرنجة الذين حاربوه وأثاروا ضده السويف<sup>(٤)</sup> .

ورغم ما عرف عن ليوفجلد من التعصب الشديد للأريوسية والتكيل بالكاثوليك إلا أنه لم يقس إلا على الأساقفة الكاثوليك الأشد خطراً على

---

(١) Lecl., pp. 251 - 4; Lot, p. 150 ؛ راجع ص ١٠٢ .

(٢) راجع ص ١٠٤

(٣) Deanesly, p. 100 ، راجع ص ١٠٥ .



سلطانه وسياسته ، أما الكاثوليك فقد تسامح معهم بعد ذلك<sup>(١)</sup> ، على أن يوادر التحول إلى الكاثوليكية قد ظهرت على عهد ليوفجلد . حدث أن تزوج هرمنجلد ( Hermengild ) أكبر أبناء الملك من الأميرة انجندس ( Ingundis ) وهي أميرة أسبانية كاثوليكية ، وحاول ليوفجلد أن يغري زوجة ابنه بالتحول إلى الأريوسية ولكنها رفضت ، فأرسلها مع زوجها ليعيشا في أشبيلية خشية انقسام عائلي ، وفي أشبيلية وقع الزوجان تحت تأثير أعظم شخصية كاثوليكية في أسبانيا وهي شخصية ليندر ( Leander ) ، أسقف المدينة ، وهو رجل على درجة كبيرة من الثقافة الدينية فضلا عن نبوغه للموسيقى وسعة الإطلاع ، وبثأثير هذا الأسقف بجانب زوجته تحول هرمنجلد إلى الكاثوليكية عام ٥٧٩ م ، وحين سمع به أهل الأندلس ، تحمسوا له ونادوا به ملكاً<sup>(٢)</sup> ، ولما كان أبوه يحاول جاهداً في توحيد أسبانيا جميعها تحت زعامة حكومة أريوسية ، كتب إلى ابنه بالرجوع إلى الأريوسية ولكن الابن رفض<sup>(٣)</sup> .

كان يظهر الابن ، الملك مير ( Mir ) ملك السويف الذي اتخذ نفس هذه الخطوة وتحول إلى الكاثوليكية منذ عام ٥٦٠ م<sup>(٤)</sup> ، فدخل هرمنجلد في مفاوضات معه وكذلك مع الإمبراطورية البيزنطية ، جاءت تصرفات الابن خطيرة على سياسة أبيه لأنها تنذر بتكوين حزب كبير قوى يناهض سياسة أبيه الدينية والحربية ، وتتمثل عناصر الحزب في الإمبراطورية البيزنطية والبسقاويين والتبلاء الرومان فضلا عن الرعايا الكاثوليك .

---

(١) Deanesly, p. 100

(٢) Lot, p. 179

(٣) Deanesly, p. 100; Oman, p. 137; Lecl., p. 254

(٤) غير السويف مذهبهم الديني أكثر من مرة : اعتنقوا المسيحية الكاثوليكية أول الأمر عند دخولهم في المسيحية ، ثم تحولوا إلى الأريوسية حوالي عام ٤٦٦ م ثم عادوا إلى الكاثوليكية عام ٥٦٠ م .

لم ير ليفجلد بدأ من شن حرب دينية ضد ابنه وأحلافه ، واسكنه قبل أن يتخذ هذه الخطوة أراد أن يقوم بعمل مضاد ، فجمع الأساقفة الكاثوليك في مجمع عام في طليطلة عام ٥٨٠م وأخذ يفريهم باعتناق الأريوسية<sup>(١)</sup> ، ووعدهم بعطفه وتأييده وعفوه في نظير ذلك ، ثم أوضح لهم أن أمر تحولهم إلى الأريوسية لن يستغرق جهوداً كبيرة أو طقوساً جديدة بل يكفي مجرد المصافحة ، ولا حاجة إلى تعميد ثان ، ومثل هذا التعميد كان مؤكداً قبل ذلك ، وافق بعض الأساقفة مثل فينسنت (Vincens) أسقف مرقوسة ، غير أن أغلبهم رفض فاضطهدهم ليفجلد أشد الاضطهاد ، فنفى البعض وأعدم البعض الآخر ، كما أعدم بعض النبلاء الكاثوليك وصادر أملاك الكنائس الكاثوليكية ، ومن ثم فقدت هيئة الكليروس الكاثوليكي مكانتها وامتيازاتها<sup>(٢)</sup> .

التفت ليفجلد بعد ذلك إلى حرب ابنه وأحلافه ، وكانت حرباً دينية أكثر منها سياسية ، فانتصر على السويث والبسقاويين ، ولتخليد انتصاره أسس مدينة فيكتوريا كوم (Victoriacum) لتراقب حركات البسقاويين ، وهي مدينة فيكتوريا الحديثة (Vitoria) وفي الفترة ما بين ٥٨١ ، ٥٨٣ م انتصر على السويث والإغريق من أحلاف ابنه ، وأجبر ابنه إعلى التقهقر بقواته إلى جند نهر الوادي الكبير وأشبيلية ، وفي اشبيلية اعتصم هرمنجلد لحاصرها أبوه مدة سنتين واستولى عليها ، فهرب ابنه إلى قرطبة ولجأ إلى الكنيسة بها فأرسل له أبوه أخاه ركاردي يطلب إليه الخروج من ملجأه وبعده بعفو أبيه عنه فلما رفض جاء ليفجلد واستدرجه حتى خرج من المدينة فنفاه إلى فالنسيا عام ٥٨٤ م ، وأواخر أيام هرمنجلد غير معروفة ، ويحتمل أن أباه سجنه أخيراً في ترجونه

(١) C. med. H , II, p. 169

(٢) Lecl., p. 259; Deanesly, p. 101



وأرسل له أسقفا أريوسيا ليحول له ويعدده بالعفو التام ، فأصر الابن على الرفض .  
وطرد الأسقف فأمر ليوفجلد بإعدامه ٥٨٥ م ، ولذا اعتبرته الكنيسة الكاثوليكية  
فيما بعد ضمن القديسين الشهداء <sup>(١)</sup> .

وانتهت حروب ليوفجلد ، بعد ذبح ابنه ، ضد السوييف بالاستيلاء على  
المدن السويفية بونتا ( Bonta ) وبراجا ، وكان ملك السوييف قد مات منذ  
٥٨٣ م ، فضمت مملكته بعد ذلك إلى بملكة القوط الغربيين <sup>(٢)</sup> ، أما حروب  
ليوفجلد ضد الفرنجة الكاثوليك فلم تكن موقفه ، إذ نظر الفرنجة إلى ابنه  
القتيل باعتباره من الشهداء ، وماتت زوجة القتل في ملجئها بإفريقية البيزنطية  
وتحالف أخوها مع البرجنديين على الانتقام من ليوفجلد ، فغزا البرجنديون  
سبتمانيا وأرسل الفرنجة أسطولا لإثارة السوييف ، ولكن الأسطول تحطم  
على يد ليوفجلد كما انتصر ابنه ركارد على البرجنديين وطردهم ، ثم مات ليوفجلد  
عام ٥٨٦ م بعد أن بذل جهوداً جبارة لتوحيد مملكته وتوسيع رقعتها ونشر  
الأريوسية ، وسلك مسلكاً عنيفاً ضد كل من وقف في سبيله <sup>(٣)</sup> .

وأهم ما يعنيننا في حياة خليفته وابنه ركارد (٥٨٦-٦٠١) في هذا الصدد هو  
التحول الرسمي للقوط الغربيين إلى الكاثوليكية ، إذ كان ركارد يسر الكاثوليكية  
ويعلن الأريوسية <sup>(٤)</sup> . وكان الأسقف ليدرد الذي حول هرمنجلد إلى الكاثوليكية  
من قبل قد فر لاجئاً إلى القسطنطينية ، وهناك التقى بالمبعوث الديني للبابوية وهو  
جريجوري الذي صار فيما بعد البابا جريجوري الأول ، ولما كان الاثنان من أصل  
لاتيني ويجيدون اللغة الإغريقية ، وهما من الرهبان أصلاً ، فقد نشأت بينهما

---

(١) Lecl., pp.260-4, Deanesly, p.101; Lot, pp.179-180; Oman, pp.138-9

(٢) Deanesly, p. 101

(٣) Deanesly, p. 101; Lecl., pp. 258 - 9

(٤) Lot, p. 180

صلات قوية ، ولهذا أثره فيما بعد ، ظل ليندر في بيزنطة من ٥٧٩ إلى ٥٨٦ م حتى إذا علم بوفاة ليوفجلد وولاية ابنه ركارد فكر في العودة إلى أسبانيا ، كما عاد ماسونا ( Masona ) أسقف لارده من منفاه .

ولم تكد تنتهى عشرة شهور فقط على ولاية ركارد حتى أعلن تحوله إلى المذهب الكاثوليكي ، وذلك في حفل أقيم بكتدرائية طليطلة في يوم الأحد ١٣ من أبريل عام ٥٨٧ م واستعار الاصطلاح البيزنطى للبطريق ( Katholikos ) ، وليس صدفة أن يحىء تاريخ عقد هذا المجلس لإعلان الكاثوليكية موافقاً لتاريخ إعدام أخيه هرمنجلد ( ١٣ أبريل ٥٨٥ م ) مما يؤيد ميول ركارد الكاثوليكية وإن لم يجرؤ على الجهر بها خلال حياة أبيه .

ونص قرار التحول الذى اتخذته مجلس طليطلة .

« باسم الله المقدس ، إن كنيسة القديس ماري قد جعلت بطريرقية كاثوليكية في أبريل من السنة الأولى من حكم الملك المنصور فلافيوس ركارد <sup>(١)</sup> » .

بهذا التحول توقف الاضطهاد ضد الكاثوليك واعتنق الكثير من الأساقفة الأريوسيين الكاثوليكية ، وعمد ركارد نفسه على الطريقة الكاثوليكية بالزيت المقدس على يد أساقفة كاثوليك في طليطلة . ثم انعقد بعد ذلك مجلس طليطلة الثالث في ٨ مايو عام ٥٨٩ م للتصديق على هذا التحول وإقراره ، وحضر هذا المجلس : ٦٢ أسقفاً ، ٥ من رؤساء الأساقفة ، أى أنه ضم جميع أساقفة الإمبراطورية القوطية التى تضم أسبانيا وناربونه الغالية ، وانهقد برئاسة الملك وحضور الملكة وكثير من النبلاء ومن الأساقفة البارزين : ليندر أسقف أشبيلية ، ماسونا أسقف لارده ، إيوفميوس ( Euphémios ) أسقف طليطلة ، مجتيوس ( Migotius ) أسقف ناربون ، بانتاردوس ( Pantardus ) أسقف

(١) Lecl., p.277; C. med. H. II, pp.171-2; Iot, p.180; deanesly, p.102



يراجا في غاليسيا وكذلك الأساقفة الأريوسيون وكثير غيرهم من الكاثوليك ، وبعد مناقشة شكلية وبعض الجدل اللاهوتي أعلن المجلس موافقته على قرارات المجامع الدينية للسكونية التي انعقدت من قبل نيقيا عام ٣٢٥م والقسطنطينية عام ٣٨١م وأفزوس عام ٤٣١م وخلقيدونية عام ٤٥١<sup>(١)</sup> . ثم سجلت أسماء الأساقفة الأريوسيين الذين اعتنقوا الكاثوليكية وعددهم ٨ وتقرر رفض الهرطقة .

أصدر هذا المجلس ٢٣ قانوناً أو قراراً ختمها بقرار توعد فيه من يخرج عليها بالعقاب الصارم ، وتتضمن هذه القوانين تنظيم هيئة الأكليروس الكاثوليكية وأموالها والتزامات رجالها ، وما يتعلق بحياة رجال الدين ( القانون ٧ ) وأعمالهم وضرورة مداومة تلاوة الكتاب المقدس ، وكذلك ما يتعلق بمظاهر رجال الدين ، ومن بين هذه القوانين ما يتعلق باليهود وتحريم زواجهم مع المسيحيين ( قانون ١٤ ) ، ويحرم القانون ( ٢٣ ) الرقص والأغاني غير الشريفة أيام الأعياد ...

وقع الملك هذه القرارات ثم تبعه الأعضاء ، واختتم ليندر أسقف طليطالة ، وأبرز الأساقفة المعاصرين على الإطلاق ، الجلسة بخطاب أوضح فيه اغتباط الكنيسة الكاثوليكية بتحول القوط الغربيين إلى الإيمان الصحيح<sup>(٢)</sup> .

كان لهذا التحول نتائج كبيرة في التأثير المباشر لحضارة بيزنطة وتقاليدها ولا سيما حين اقترح الملك في المجلس اتباع التقاليد الإغريقية في جعل هذا الحدث في حفل ديني عام ، ويرجع هذا إلى نفوذ الأسقف ليندر ، ولذا فعهد ريكارد يورخ ليس فقط لسياسة دينية جديدة ولكن لحضارة وتقاليد تختلف عما كان سائداً في دولة القوط من قبل ، فإذا أضيف إلى هذا تقرير ريكارد اتخاذ اللغة اللاتينية

---

(١) للمجامع الدينية أنظر Précis, II, pp. 24 - 50 ؛ ابن المقفع ، تاريخ المجامع

ص ١٦١ وما يليها ؛ Hardy : Christian Egypt, p. 54

(٢) Lecl., pp. 282 - 5

لغة رسمية في الدواوين وفي العبادة ، أمكن إدراك مدى أهمية هذا التحول في تاريخ القوط . ومن ناحية أخرى أدت هذه السياسة الدينية إلى نتائج سياسية واجتماعية خطيرة ، فقد ساعدت على ربط العناصر الخاضعة لدولة القوط وتوحيدهم روحياً ، وقد انقضى الوقت الذي كانت فيه أسبانيا القوطية مكونة من عناصر متباعدة ومتقسمة جنسياً وروحياً ، من السوييف والأسبان الرومان ، يضاف إلى ذلك التشريعات القانونية وتقرير ركارد للمساواة بين جميع الرعايا<sup>(١)</sup> ،

وقد أشاد إيزدور — أسقف أشبيلية — بعهد ركارد وأخلاق ركارد ، واعتبره أعظم فترة ناجحة وموقعة في التاريخ القوطي ، إذ أن مشروعات أييه الحرية قد انتهت بالسلم والهدوء وسيادة الأمن<sup>(٢)</sup> .

وفضلاً عما كان لهذا التحول من أثر بالغ في استقرار الأحوال الداخلية لدولة القوط الغربيين ، فإن هذا الأثر قد وصل إلى الخارج ، إذ حسنت علاقة القوط بالبابوية وبالدولة البيزنطية ، وحدث بعد أربع سنوات فقط من اعتناق ركارد للمذهب الكاثوليكي ، أن كتب إلى البابا جريجوري الأول يزف إليه هذا الخبر ، وضمن رسالته هدية ثمينة عبارة عن قدح أو كأس من ذهب مرصعة بالجوهر على شكل الزهرة ، يستعمل في العشاء الرباني الأخير ، كما طلب إلى البابا أن يتوسط بينه وبين الإمبراطورية البيزنطية فسيا يتعاق بالمعاهدات ( *Paota* ) القديمة التي ترتبط بالأملاك البيزنطية في جنوب أسبانيا منذ عهد جستنيان<sup>(٣)</sup> ، أجابه البابا مهنئاً بالعودة إلى العقيدة السليمة وأشفع رسالته بهدية هي قطعة من خشب الصليب الأصلي ومفتاح كنيسة القديس بطرس وبه قطعة من بقايا السلسلة

---

(١) Lecl., pp. 277, 286-9; Dozy, II, p. 20; Deanesly, p. 102

الحلل السندسية ج ١ ص ٣٦٣ — ٣٦٤ .

(٢) Deanesly, p. 102; Lecl., p. 288

(٣) Deanesly, pp. 102 - 3; Perroy, p. 22



التي كان مصفداً بها في سجنه ، كما كتب إلى الإمبراطور موريس فيما  
وسط فيه<sup>(١)</sup>.

ثبتت دعائم المذهب الكاثوليكي في أسبانيا القوطية منذ ذلك الوقت ،  
ولم تغلج المحاولات التي بذلت لإعادة الأريوسية ، على يد أقلية قوطية ظلت على  
أريوسيتها بزعامة الكونت ويترك ( Witterlo ) ، الذي انتزع العرش من  
ليوفا الثاني ( Leova II ) ابن ركارد عام ٦٠٣ م ، وحكم سبع سنوات قضائها  
في محاولة نقض سياسة سلفه الدينية لكنه فشل وقتل عام ٦١٠ م ، وتلاه ملوك  
كاثوليكيون ظلوا يحافظون على الكاثوليكية حتى زوال دولة القوط<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

وإذا كانت دولة القوط قد تخلصت من سياسة الاضطهاد المذهبي ضد  
الكاثوليك وأصبح جميع الرعايا متقاربين روحياً واجتماعياً ، فإنها لم تفعل شيئاً بأزاء  
الأقلية اليهودية الكبيرة ، إذ ظلت على اضطهادها والتنكيل بها ، والواقع إن  
العصبية الدينية ، في العصور الوسطى ، وهي عصور دينية أكثر منها سياسية أمر  
مألوف ، فإذا كان التعصب المذهبي قد شغل معظم تواريخ الدول في العصور  
الوسطى ، فأحر بالتعصب الديني أن يشغل جميع تواريخها .

وبجانب هذا العامل العام ، هناك من الأسباب المباشرة ما أوقع يهود أسبانيا  
القوطية تحت طائلة الاضطهاد ، رغم تمتعهم بالحرية الدينية بعض الوقت ،  
وسواء أكانت الدولة القوطية على الأريوسية أم الكاثوليكية ، فإنها لم تكف  
عن اضطهاد اليهود ، وأهم سبب مباشر هو تحكم اليهود في تجارة البحر الأبيض  
وموانئ أسبانيا الجنوبية بصفة خاصة منذ عهد الإمبراطورية الرومانية القديمة ،

---

(١) Deanesly, p. 103; Lot, p. 180

(٢) Lecl., pp. 295 - 7; Deanesly, p. 103

وأمتلاكهم الكثير من الأراضي ، وبررت الكنيسة القوطية سياستها نحو اليهود ، بأن ما يلقونه من اضطهاد وتشكيل إنما هو عقاب من الله بسبب غضبه عليهم <sup>(١)</sup> . أصدر ملوك القوط عدة تشريعات ضد اليهود ، وأهمها ما بدأ به الملك أاريك الثاني ( ٤٨٤ — ٥٠٧ م ) حين أصدر مجموعة القوانين الرومانية التي نشرها بإسم ( *Breviarum* ) <sup>(٢)</sup> ، فقد ضمن هذه المجموعة عدة قوانين تحرم على اليهود الزواج من المسيحيات أو اقتناء عبيد مسيحيين أو الاشتغال في وظائف الدولة ، مع ترك الحرية الدينية لهم ، يمارسونها وفق تقاليدهم وطقوسهم ، فكان لهم قوانينهم الخاصة ومحاكمهم الخاصة ، وبمرور الزمن ازداد عددهم وتضخم ثرواتهم فأهل هذا القانون ، وارتكب اليهود جميع ما حرم عليهم ، حتى أن مجلس طليطلة الثالث الذي عقد لإقرار العقيدة الكاثوليكية عام ٥٨٩ على عهد ركارد ، جدد هذه القوانين وقرر اتباع سياسة العنف ضد اليهود ، فتبعاً للقانون ( ١٤ ) من قوانين هذا المجلس تقرر تعمييد الأبطال اليهود الذين أنجبوا من الزواج المختلط وحرمان اليهود من الوظائف أو شراء عبيد مسيحيين ، وبالعالم الملك سيسبت ( ٦١٢ — ٦٢١ ) في سياسة الاضطهاد ، فأقام مذبحاً لهم عام ٦١٦ م وأمر جميع اليهود باعتناق المسيحية خلال عام واحد ، فإذا انتهى الأجل وظلوا على عقيدتهم يعذبوا وينفوا وتصادر أموالهم ، وأدت سياسته هذه إلى أن دخل المسيحية من اليهود نحو ٢٠ ألف ، خشية البطش بهم ، وإن كان هذا الاعتناق ظاهرياً ، فقد ظلوا يمارسون طقوسهم في الخفاء ويلقنونها لأطفالهم ، لأن من المسير إن لم يكن من الحال إجبار عدد كبير من الناس على اعتناق عقيدة ما بالقسر ، ولا حظ

---

(١) Dozy, II, pp. 25 - 7

(٢) أنظر التشريعات القانونية .



هذا مجلس طليطلة الرابع الذى عقد عام ٦٢٣ على عهد الملك سيسناند (Sisenand) (٦٣١ — ٦٣٦) ، قرر تجديد القوانين السابقة ، وتضمنت القوانين التى أصدرها هذا المجلس عشرة تتعاق باليهود ( من قانون ٥٧ إلى قانون ٦٦ ) وينص أحد هذه القوانين على أنه فى المستقبل لا ينبغى إجبار يهودى على اعتناق النصرانية ، على أن يظل أئلك الذين أجبروا على اعتناقها فى عهد سيسبت ، على المسيحية وكذلك الذين ارتدوا عن المسيحية ورجعوا إلى اليهودية فهو لا تجب إعادتهم قسراً إلى العقيدة الصحيحة ، ويطرد اليهود من الوظائف العامة ، ومن يتزوج مسيحية يجبر على اعتناق المسيحية أو الانفصال عن زوجته<sup>(١)</sup>

على أن الكنيسة القوطية اتخذت خطوة جديدة بصدد السياسة الدينية نحو اليهود ، فقد حلت مجلس طليطلة السادس الذى انعقد عام ٦٣٨ م على عهد الملك شنتلا (ت ٦٠٤ م) ، على أن يقرر تحريم العرش القوطى فى المستقبل على أى ملك ما لم يتعهد بإصدار المراسيم اللازمة العنيفة ضد اليهود<sup>(٢)</sup> . وظلت السياسة الاضطهادية نحو اليهود لم تخف حدثها ، حتى أن الملك ركسونت (ت ٦٧٢ م) ، أمر برجم المارقين عن العقيدة المسيحية أو إحراقهم أحياءاً أو على الأقل تهديدهم بهذا العقاب ، وكان ذلك بمقتضى قرارات مجلس طليطلة الثامن الذى عقد عام ٦٥٣ م ، فقد لاحظ هذا المجلس أن أعداد اليهود لم تزل كبيرة فى أسبانيا رغم الاضطهادات السابقة وأن كثيراً منهم لم يزل يمارس عقيدته سرّاً<sup>(٣)</sup> .

وربما كانت قوانين المجلس الثانى عشر الذى عقد عام ٦٨١ م على عهد الملك إرفنج (٦٨٠ — ٦٨٧ م) من أقوى القوانين التى صدرت ضد اليهود

(١) Dozy, II, p. 26; Deanesly, p. 104; Lecl., p. 306

(٢) Lecl., pp. 312 - 13; Dozy, II, p. 27

(٣) Deanesly, p. 105; Lecl., p. 333

وأشملها تنكيلا وإعنائاً ، فقد صادق هذا المجلس على ٢٠ قانوناً أصدرها الملك ، ومن بين هذه القوانين :

- قانون رقم ١ — تنفيذ جميع القوانين السابقة ضد اليهود .
- قانون رقم ٢ — ضد الذين يسبون الثالث .
- قانون رقم ٣ — ضد الذين هربوا أو تملصوا من التعميد من اليهود أو من أبنائهم .
- قانون رقم ١٠ — منع اليهود من قراءة الكتب التي تحرّمها المسيحية .
- قانون رقم ١١ — منع اليهود من امتلاك عبيد مسيحيين .
- قانون رقم ١٣ — منع اليهود من القبض على المسيحيين أو تعذيبهم .
- قانون رقم ١٤ — إطلاق سراح العبيد للمسيحيين عند اليهود .
- قانون رقم ١٦ — إلزام اليهود بالحضور في أوقات معينة أمام الأسقف . . .  
الح<sup>(١)</sup> . . .

جاءت هذه القوانين في وقت غير مناسب إذ كانت الفتوح الإسلامية تقترب من دولة القوط ، فلم يكن لدى اليهود وغيرهم من الناقين على حكومة القوط بأس من التطلع إلى المساعدة الخارجية ، ولم يرعو مالوك القوط المتأخرون ، فظل أجيكاً (٦٨٧ — ٧٠١) على سياسة أسلافه في اضطهاد اليهود ، وهم يثنون ويتوجعون ، وتقدر فترة الاضطهاد التي قاساها اليهود في أسبانيا بنحو ثمانين عاماً ، وهي الفترة الأخيرة من حكم القوط أنفسهم ، وأدى الأمر باليهود إلى الاشتراك في المؤامرات ، أهمها المؤامرة التي دبرها اليهود على عهد أجيكاً ، قبل الفتح العربي بسبعة عشر عاماً أي في عام ٦٩٤ م وانضم إليهم اليهود المقيمون عبر



المضيق من القبائل البربرية التي تدين باليهودية ومن اليهود المنفيين من أسبانيا. اتفق الجميع على إشعال نار الثورة في أماكن مختلفة في وقت واحد ، على أن يتقدم يهود أفريقيا في الوقت المضروب إلى شواطئ أسبانيا، كذلك اتفقوا مع العرب على مساعدتهم بشرط أن يمنحهم الحرية<sup>(١)</sup>. ومن حسن حظ حكومة القوط مؤقتاً ، أن كشفت المؤامرة قبيل الوقت المحدد لتنفيذها ، فأتخذ الملك أجيكا الاحتياطات اللازمة وعقد المجلس السابع عشر في نفس العام واستصدر منه عدة قرارات خلاصتها مصادرة جميع أموال اليهود واسترقاقهم وبيعهم وتوزيعهم على المسيحيين وحتى على العبيد المسيحيين أنفسهم الذين كانوا في خدمة اليهود ومنحهم الملك حرياتهم<sup>(٢)</sup> . . .

وأيا كانت الاحتياطات والوسائل التي اتخذها أجيكا للضرب على أيدي اليهود وقع شوكتهم ، فإن هذه السياسة التعصبية نحو اليهود كانت من بين عوامل الهدم للدولة القوطية وعلى طي صفحة التاريخ القوطي نفسه .

---

Lecl. p. 353 (١)

Dozy, II, pp. 27-8; Bradley, pp. 355-6; Oman, p. 232 (٢)

Lecl. p. 353 (٣)

### ٣ — النهضة الأدبية والفكرية

طابعها — المكتبات — جهود الملوك والأمراء الأدبية والفكرية —  
اللغة القوطية واللغة اللاتينية — إيزدور الأشبيلي — الفنون القوطية .

بدأت مطالع نهضة أدبية وفكرية تظهر في دولة القوط الغربيين منذ القرن الخامس الميلادي ، وجاء ذلك بعد أن هدأت حركات الغزو الخارجي ، ولم يعد لدى القوط من عمل سوى بسط سيادتهم داخل شبه جزيرة أيبيريا وحمايتها من المعتدين<sup>(١)</sup>؛ والملاحظ على النشاط الفكري والثقافي في دولة القوط أنه لم يخرج عما اشتهرت به العصور الوسطى عامة من اتجاه ديني غالب ، وأن أعلام الفكر في تلك العصور إنما هم من رجال الدين ، بل إن أعظم شخصية سيطرت على تاريخ الثقافة والتعليم عند القوط الغربيين ، هي شخصية إيزدور الأشبيلي رئيس أساقفة طليطلة في النصف الأول من القرن السابع الميلادي<sup>(٢)</sup> ؛ على أن هذا لا يعني نضوب العصر من ذوى الفكر والإنتاج العقلي من غير هذه الطبقة ، فمن الملوك والأمراء من نال ثقافة عالية ، وأسهم بنصيب في هذا المجال ، من هؤلاء : ركارد الأول وسيست (سيسيفوط عند المؤرخين المسلمين) وشندسونت<sup>(٣)</sup> وركسوث ؛ وكذلك الدوق كلوديوس (Claudius) والكونت بولجارانوس (Bulgaranus) والكونت لورنتيوس (Laurentius)<sup>(٤)</sup>؛ كذلك لا يعني هذا أن الإنتاج الفكري من طبقة رجال الدين اقتصر على الجانب الديني ، فكثير من أفراد هذه الطبقة كتب في غير الدين وشجع على

(١) Lynch, p. 34

(٢) أنظر مايلي ص ١٧٦ .

(٣) أنظر ابن الأثير ج ٤ ص ١٢١ .

(٤) C. med. H., II, p. 192



الدراسات المدنية المتنوعة، بدليل أن أغاب للتورخين والشعراء وعلماء الأخلاق كانوا من رجال الدين أمثال أورو سيوس (Orosius) ودرا كوتتيوس (Dracontius) وإيدايتوس (Idatius) وتور بيوس (Toribius) ومونتانيوس (Montanus) ، وغيرهم ، وأهم هؤلاء جميعاً إيزدور الأشبيلي<sup>(١)</sup> ثم معاصره إلفونسو (Ildefonso). والمعروف عن الأسقف الأخير أن مؤلفاته وتصانيفه بلغت من التنوع والانتشار درجة كبرى اختلطت معها سيرة هذا القديس بعد وفاته ، بالأساطير<sup>(٢)</sup>. ثم إن القديس جوليان ، رئيس أساقفة طليطلة خلال القرن السابع الميلادي ، عرف بقرض الشعر ، وله كتاب عن تاريخ الملك وامبا (بنيان) ، يعد من أحسن ما كتب عن هذا الملك ، وله غير ذلك مؤلف جامع في اللغة وفروعها عنوانه : فنون النحو والشعر والبلاغة (Ars Grammatica, poetica et Rhetorica) ؛ وهذا فضلاً عن بحوثه الموسيقية واللاهوتية . كذلك يلاحظ أن القوط عملوا جاهدين على الاستفادة من تراث الرومان حتى نسوا لغتهم القوطية وكتباتهم القوطية ، كما أن جميع مظاهر المدنية الرومانية بصفة عامة والبيزنطية بصفة خاصة ، كانت مثلاً يحتذى لدى القوط الغربيين في نشاطهم العسكري والأدبي والفني ؛ ويرجع ذلك إلى أن دولة القوط الغربيين ، مثلها كمثل القوط الشرقيين والوندال واللومبارد نشأت في حوض البحر الأبيض الملىء بالآثار الرومانية ، من معابد وقصور وكنائس ، وهذه لم تدمر كلها خلال حركات الغزو والفتح ، وبعد زوال الإمبراطورية الغربية عام ٤٧٦ م ، وهو العام الذي بلغت فيه إمبراطورية القوط الغربيين أقصى اتساعها ، بدت روما الشرقية بالنسبة لعالم البحر الأبيض النموذج الرفيع الذي يجب أن يحتذى ، كما بدت في نفس الوقت حاملة لمشعل المدنية والمعارف ، ورغم أن أسبانيا وإيطاليا قد أفلتتا ثانياً من قبضة الإمبراطورية

(١) C. med. H., II, p. 152; Lynch, pp 35 - 38

(٢) Lecl., p. 347

الشرقية ، من بعد وفاة جستنيان ، فإن بيزنطة ظلت كما هي في نظر هذه الشعوب الجرمانية مركزاً للحضارة والنور<sup>(١)</sup>.

ومن أصول النهضة القوطية ومظاهرها في وقت منما ، العناية بأمر اقتناء الكتب وإنشاء المكتبات ؛ وأقدم مكتبة في أسبانيا القوطية ، مكتبة دير دميو ( Dumlo ) قرب مدينة براجا عاصمة السويف ، والمعروف أن مملكة السويف أو الجلالة قد خضعت لدولة القوط الغربيين ، وإن كان خضوعها إسمياً ، وترتبط هذه المكتبة بشخصية مؤسسها القديس مارتن البراجي ، أقدم معاصري إيزدور ، ومن أعظم المثقفين في عصره . عاش هذا القديس فترة طويلة بالشرق ، حيث مارس الرهبانية في فلسطين ، وظفر خلال إقامته بالشرق بقسط كبير من الثقافة كما أتقن اللغة الإغريقية ، ثم وفد على مملكة السويف بوصفه مبشراً ، وسرعان ما غدا رئيساً لدير دميو وهو صاحب الفضل بعد ذلك في تحويل مملكة السويف إلى الكاثوليكية عام ٥٦٠ م ، وفي عام ٥٧٩ م صار رئيساً لأساقفة العاصمة<sup>(٢)</sup> . ساعدته ثقافته الواسعة على ترجمة كثير من الكتب ، ومن بين الترجمات المنسوبة إليه أو إلى تلميذه باسشيس ( Paschase ) : مجموعة القوانين الكنيسة المستمدة من الجوامع للسكونية التي عقدها آباء الشرق القدماء ، و « أحكام آباء مصر » و « حياة الآباء الأغريق »<sup>(٣)</sup> . وللقديس مارتن عدة رسائل متنوعة منها رسالة كتبها إلى ملك السويف مير ( Mir ) ، بعنوان « سنة الحياة الفاضلة » ( Formula Vitae Honestis ) ، وقد تجلت في هذه الرسالة تعاليم الفيلسوف سنكا ( Seneca ) إذا أوضح فيها أهمية الفضائل الأربع الرئيسية وهي :

---

Deanesly, p. 94 (١)

Deanesly, p. 112; Lecl., p. 316 (٢)

Lecl., pp. 316 - 17 (٣)



الحصافة والنخوة والعفة والعدالة<sup>(١)</sup> . ويؤثر عن مارتن موعظة قيمة وجهها إلى أخيه الأسقف بولميوس (Polomius) ضمنها الطرق السليمة التي ينبغي اتباعها في هداية الوثنيين السذج من أهل الريف<sup>(٢)</sup> . كانت هذه الترجمات والمؤلفات من بين ما حوته مكتبة ديرديمو ، وذلك بجانب « تعليقات وشروح القديس جيروم على رسالة القديس بولص إلى أهل غلاطية<sup>(٣)</sup> » وأعمال القديس سيلفستر وغيرها من الرسائل والبحوث .

هذا وقد ترك ليكنيوس القارطاجني في مكتبته حوالى نهاية القرن السادس الميلادي ، عدداً كبيراً من البحوث التي قام بها ؛ وترجع أهمية هذه البحوث إلى أنه ضمنها طائفة من النصوص ، فضلاً عن تراث كبار القديسين أمثال أوغسطين وهيلير وأمبروز وغيرهم<sup>(٤)</sup> . ثم إن حنا البكلاري (Joan de Bolar) مؤسس دير فالكارا (Valoara) أسهم بنصيب وافي في مجال التأليف والجمع ، وهو قوطي من مواليد لوزيتانيا (جليقية) ، أقام في القسطنطينية مدة لا تقل عن سبعة عشر عاماً ، جمع خلالها معلومات كثيرة وله تأريخ (Chronique) استفاد في كتابته من التاريخ الكنسي الذي وضعه إيزوب (Eisobius) كما استفاد من الحواشي والملاحق التي وصفها بعض كبار القديسين أمثال جيروم وفيككتور<sup>(٥)</sup> .

ويتضح من رسالة للقديس بروليون (Brullion) أسقف سرقوسة ، أنه وجد في مدينة تراجونة ثلاث مكاتب : مكتبة القديس إميليان (Emillon)

---

(١) Lecl., pp. 246 - 7; Deanesly, p. 112

(٢) Deanesly, pp. 1113-14

(٣) تتكون هذه الرسالة من ستة اصحاحات ( العهد الجديد ص ٢٠٤ — ٢١١ ) .

(٤) Lecl., pp. 317 - 18

(٥) Ibid, p. 318

ومكتبة الكونت لوران ( Laurent ) والمكتبة الثالثة للقديس دومنوس ( Domnus ) تلميذ بروليون ، وهناك تلميذ آخر للقديس بروليون وهو جاك تاتوس ( Jactatus ) شغف باقتناء الكتب الثمينة ، فضمت مكتبته مؤلفات القديس أوغسطين والقديس هيلير وعدداً كبيراً من مؤلفات كبار الكتاب الدينيين . ولبروليون نفسه مكتبة قيمة ظلت تنمو باطراد وحوث عدداً كبيراً من نفائس الكتب التي خلفها الآباء القدماء أمثال كيرلس الإسكندري ، وجريجورى العظيم ، وإيزدور الأشبيلي ؛ ويعرف عنه تشجيعه الدائب للربان التابعين لأسقفية ، على نسخ الكتب ، كما أنه كان حريصاً على مطالبة أصدقائه الكثيرين دائماً بتزويده بما ينقصه من كتب ، فأرسل له إيزدود مؤلفه المعروف باسم « المترادفات » ( Synonymes )<sup>(١)</sup>.

أما المكتبة الأسقفية في طليطلة ، فكانت تنمو من غير انقطاع ، حتى أنها في القرن السابع الميلادى ، على عهد رئاسة القديس جوليان ، المعاصر الملك إرفج ، أضحت غنية جداً ، كما يتضح من فهرس محتوياتها . فمن بين ذخائر هذه المكتبة : مؤلفات جوليان نفسه ، ومؤلفات الآباء القدماء أمثال أوريجينيس وترتوليان ، وأوغسطين ، وكيرلس ، ومن المؤلفات الكلاسيكية كتابات شيشرون<sup>(٢)</sup> ، ولكن أسقفية أشبيلية كانت تعد أهم المراكز تميزت بمكتبة كبيرة ، وبزت جميع المكتبات الأخرى ولا سيما على عهد رئاسة إيزدور ، ولها فهرس منظم وضعه إيزدور نفسه بمعاونة أحيه الأسقف ليندر ، فلم تقتصر محتوياتها على الكتب الدينية المسيحية ، بل ضمت كثيراً من المؤلفات الوثنية ؛ مثل فلاسفة أرسطو وأفلاطون ، وفي العلوم مؤلفات أراتوس ( Aratus ) وغيره ، وفي فروع اللغة اللاتينية وآدابها نجد مؤلفات شيشرون وكونتليان ، وفي القانون

(١) Ibid, pp. 319 - 21

(٢) Ibid, pp 318 - 19



مجموعة تيودسيوس ، وكذلك في الطب والتاريخ والشعر والفنون المختلفة<sup>(١)</sup>.

هكذا تتضح كيف كانت العناية في دولة القوط الغربيين منصبة على جمع المؤلفات واقتنائها والإفادة منها ، مما يدل على أن القوط كانوا يحاولون في نشاطهم الفكري لا مجرد تقليد الرومان ، بل إنهم رغبوا حقيقة في التفوق عليهم ؛ على أن النشاط الفكري لم يقتصر على رجال الدين ، فهناك من ملوك القوط من كان له نشاط أدبي ملحوظ ، أمثال سيسبت وركسوث ووامبا ، كان هؤلاء جميعاً على درجة كبيرة من الثقافة وتنوع المعرفة ، فمن التراث الفكري للملك سيسبت (٦١٢—٦٢٠) مؤلف كتبه في تاريخ ملوك القوط ، وفي سيرة القديس ديزيدريوس ، وعرف عنه سعة الإحاطة بعلوم النحو والبلاغة والمنطق ، ورغم أن شعره رديء ، إلا أن له عدة رسائل قيمة ؛ لذلك يعتبر هذا الملك فريداً في سلسلة ملوك القوط الغربيين<sup>(٢)</sup>. كذلك اشتهر الملك ركونث (٦٥٣—٦٧٢) بأنه صديق النصوص الصحيحة المحققة<sup>(٣)</sup>.

✠ أما اللغة القوطية ، فالمعروف أن القوط تميزوا عن غيرهم من العناصر الجرمانية بأن لهم لغة مكتوبة ، لها أبجدية تعرف باسم الحروف الرونية (Runic Character) ؛ عثر على بقايا هذه الكتابة في شمالي أوروبا ؛ على أن كلمة رون (Ran) ، ومعناها غامض أو سر ، ترجع إلى بعض عقائدهم . ورغم أن الأنجلوساكسون استعملوها إلا أن الاستخدام الواضح كان لدى القوط والقبائل المتحالفة معهم ، ولا سيما عند ما كان القوط في منطقة مؤيسيا ؛ أما الفرنجة أو الآلماني أو البافاريون ، فلم يعرفوا شيئاً عن هذه الحروف . وقد اختلف في أصل هذه الأبجدية ، فمن قائل إنها ترجع إلى أصل فينيقي نقل

---

(١) Ibid, pp. 323 - 225

(٢) Lecl., pp. 298 - 302; Oman, pp. 322 - 3

(٣) Lecl., p. 318

بواسطة المغامرين من البحارة الفينيقيين إلى شعوب شمالى أوروبا ، أو أنها حروف لاتينية نقلها البحارة والجنود الرومان ، ثم حُرِّفَتْ ؛ والراجح أنها من أصل إغريقى نقلت من المستعمرات الإغريقية القديمة المنتشرة على شواطئ البحر الأسود ، إلى شمالى أوروبا حيث توجد مساكن القوط الأولى<sup>(١)</sup>.

ويبدو أن اللغة القوطية والحروف القوطية قد اختفت في وقت مبكر عند ما كان القوط في أسبانيا ، ولم تترك أثراً في اللاتينى الدارج الذى استخدمه القوط ، ومن هذه اللغة اللاتينية الدارجة تفرعت الثلاث لغات التى سادت شبه جزيرة ايبيريا فيما بعد وهى اللغة القشتالية والغاليسية البرتغالية والقطلونية . أما اللغة اللاتينية الفصحى القديمة أو الكلاسيكية ، فقد عرفها العلماء ورجال البلاط واستعملوها في التخاطب والكتابة<sup>(٢)</sup> ، فمثلاً كتب الملك سيسبت سيرة القديس ديدى ( Didlor ) — أسقف فينا الذى أعدم وعد من الشهداء — بلغة لاتينية فخمة ، كذلك كانت رسائله مع أسقف مرقوسة ؛ وبعد تحول القوط إلى الكاثوليكية على عهد ركارد ، اتخذت اللغة اللاتينية لغة رسمية في الدواوين والطقوس الدينية<sup>(٣)</sup> ؛ وكما نسى القوط لغتهم وكتاباتهم كذلك كان الشأن عند السوييف الذين اتخذوا اللاتينية ، وكان القديس مارتن رئيس أساقفة العاصمة السويقية ياتى تعاليمه ومواعظه باللاتينية<sup>(٤)</sup>.

ولذلك نجد أن جميع آداب القوط التى خلفوها مكتوبة باللاتينية ، ويتعلق أغلبها بمسائل دينية . على أن النموذج الرفيع للنهضة الثقافية المعاصرة في دولة القوط الغربيين إنما يتمثل في شخصية إيزيدور الأشبيلي — Isidoro —

---

(١) Bradley, pp. 367 - 370 ; Hodgkin, 1, pp. 36 - 39, 102 - 111

(٢) Lecl, p. 327

(٣) Lot, p. 181

(٤) Lecl., pp. 327-350



( ٥٧٠ — ٦٣٦ م ) فقد كان الشخصية التي سيطرت على تاريخ الثقافة في أسبانيا القوطية<sup>(١)</sup> ، ففي شخصية هذا الأسقف ازدهرت الآداب اللاتينية بل غدا اسمه علماً على هذه الآداب .

وليزدور من أصل روماني<sup>(٢)</sup> ، فهو وأخوه ليندر ( Leander ) وفلوجنتيوس ( Fluggentius ) وكذلك الراهبة فلورنتينا ( Florentina ) أبناء سيثريانوس ( Severianus ) النزيل الروماني ، ولد هذا النزيل في قرطاجنة من أعمال أسبانيا ، وبعد وفاته انتقلت أسرته إلى أشبيلية حيث صار الأولاد الثلاثة أساقفة : ليندر ( ٥٧٩ — ٦٠٠ م ) ومن بعده ليزدور ( ٦٠٠ — ٦٣٦ م ) ، وفلوجنتيوس أسقف مدينة استيجي ( Astigi ) — ويسمى بالعرب استيجه — من أعمال أشبيلية وذلك في الفترة ( ٦٠٠ — ٦٣٣ م ) ؛ أما الأخت فلورنتينا فقد صارت رئيسة دير ، وكتب لها أخوها ليندر رسالة عن قواعد ونظم الراهبات عنوانها : ( De Institutione Virginum ) تحتوي على إحدى وعشرين فصلاً وتعد مرجعاً أساسياً لتاريخ ونظام الديرية النسائية في دولة القوط الغربيين<sup>(٣)</sup> . وعرف عن ليندر اشتغاله بالأمور السياسية على عهد ليوفجلد ( ٥٦٧ — ٥٨٦ ) وابنه ركارد الأول ( ٥٨٦ — ٦٠١ ) ، كما أسهم في الدراسات الدينية بالمدرسة التي أنشأها في أشبيلية ، وله اهتمام خاص بدراسة الموسيقى الإغريقية ؛ ثم إنه كان روح الجامع الدينية والسياسية التي كثرت على عهد ركارد الأول<sup>(٤)</sup> ، وترجم له أخوه ليزدور في كتابه الذي أصدره بعنوان : « عن حياة المشاهير ( De Viris Illustribus ) » ،

---

(١) C. med. H. II, p. 192; Deanesly, pp. 108 - 109

(٢) Lot, p. 181

(٣) راجع تفاصيل هذه الرسالة في Lecl. ص ٢٩٠ — ٢٩٣ .

(٤) Ibid, p 289

خذ كر أنه عمل راهباً ثم صار أسقفاً لولاية بايتيكا (الأندلس) ، وأنه امتاز بالبلاغة والجد في الكتابة والتشهير بالأريوسيين ، وله بحوث لاهوتية متنوعة<sup>(١)</sup> .

أما عن حياة إيزدور الخاصة ، فالمعروف عنها قليل ، غير أنه كان أشهر من أخيه نظراً لما خلفه من آثار في تاريخ التعليم والنهضة الفكرية في أسبانيا القوطية ، فضلاً عن سعة انتشار مؤلفاته عن غير ، ويعد من أعلام أساتذة العصور الوسطى<sup>(٢)</sup> . لم يشغل نفسه بالأمور السياسية إلا قليلاً ، على عكس أخيه ليندر ، لأنه آثر الانصراف للدراسة ، وأسهم في إنشاء المدارس كما بعث في وطنه حركة علمية قوية انتقل أثرها إلى إيطاليا وسائر أنحاء أوروبا . وقد كتب عنه تلميذه بروليون<sup>(٣)</sup> موضحاً فضله على الثقافة الدينية والمدنية في أسبانيا<sup>(٤)</sup> .

ومن أشهر مؤلفات إيزدور وأوسعها انتشاراً كتاب «الأصول» ( Etymologiae ) ، وهو عبارة عن موسوعة جمع فيها كثيراً من علوم القدماء ، سواء أكان ذلك من التراث الوثني أو التراث المسيحي ، وتعتبر هذه العلوم التي جمعها إيزدور في موسوعته ، مفقودة اليوم أو بعيدة عن متناولنا ، ومن أجل ذلك فهي تعد بحق مرجعاً أصيلاً من مراجع التراث القديم<sup>(٥)</sup> . ضمت هذه الموسوعة علوم النحو والبلاغة والمنطق واللاهوت والفسولوجيا وعلم الأحياء والطب وعلم تحليل الأتربة المعدنية ، والمساحة والزراعة والجغرافية ، والعلوم الحربية وغيرها...<sup>(٦)</sup> ؛ لكن يلاحظ أن للمعلومات التي أوردها إيزدور في

(١) Deanesly, p. 109

(٢) يوسف كرم : ص ٦٣ .

(٣) أنظر ما سبق ص ١٧٣

(٤) Deanesly, p. 109

(٥) Lecl , p. 309

(٦) Deanesly, pp. 111 - 12 ؛ يوسف كرم ص ٦٣ — ٦٤ .



موسوعته ، مجملة وقصيرة وبعضها خاطيء أو مضحك أو سخي ، وأنه لم يحاول  
تقد مصادر المتنوعة التي استقى منها معلوماته ، وكثيراً ما اعتمد على الخدس  
والتخمين ، ومن هنا جاء مصدر الخطأ<sup>(١)</sup> . ولا يزدر ، عدا هذه الموسوعة ،  
كتاب في « المترادفات »<sup>(٢)</sup> . وفي التاريخ : « مشاهير الرجال » وتاريخ عام  
وآخر عن تاريخ القوط ؛ ومن أمثلة الأخطاء التي وردت في كتبه التاريخية  
ما ذكره من أن للقوط تاريخاً قديماً لا شك فيه ، وأنهم ينحدرون في أصولهم  
عن ياجوج ويافث ، ثم هو يربط هذه بعنصر السكيثيين الإيراني . غير أن  
هذا لا ينقص من قيمة تاريخه في مجموعه العام ، ولا سيما في الفترة المعاصرة له ؛  
أطال في الكتابة عن عهد ليوفجلد أكثر من غيره ، بينما أشار إشارة سريعة إلى  
تخريب الأريك لروما<sup>(٣)</sup> ؛ وربما كان في إطلاله أو اقتضابه خاضعاً لعوامل  
سياسية ؛ ولأهمية مؤلفات إيزدور حملها معهم القوط الماربون أمام الفتح العربي  
لشدة حرصهم عليها<sup>(٤)</sup> .

ومن حيث الفنون القوطية ، هناك خطأ شائع مؤداه نسبة طراز معين من  
المباني وهي ذات القمم المدببة ، إلى القوط عامة ؛ والواقع ليست هناك صلة تاريخية  
بين هذا الطراز وبين ما خلفه القوط ، على قلة ما خلفوه ، فطراز هذا القليل  
يختلف تمام الاختلاف عما اصطلح عليه ، في عرف الفنون ، بالطراز القوطي أو  
النمط القوطي<sup>(٥)</sup> . والمعروف أن هذا النمط ظهر لأول مرة في فرنسا خلال القرن  
الثاني عشر الميلادي ، أي بعد نهاية دولة القوط الغربيين بنحو أربعة قرون<sup>(٦)</sup> ؛  
وعند ما أطلق هذا الاصطلاح لأول مرة ، أريد به الدلالة على عكس الطراز  
الروماني ، وربما كان من بين أسباب إطلاق هذا المصطلح كذلك ، هو مجرد

(١) Deanesly, p. 112

(٢) أنظر ما سبق من ١٧٤

(٣) Deanesly, p. 110

(٤) يوسف كرم من ٦٤ .

(٥) Read, pp. 91 - 92

(٦) أحمد يوسف : من ٦٦ .

التذكير بمعظمة القوط السابقة ، فالتاريخ الأوربي قضى فترة من الزمن امتلاً خلالها بأحداث القوط والرومان فقط<sup>(١)</sup> .

غير أن هذا لا يعنى انعدام الفنون القوطية التي ترجع للقوط أنفسهم ، غاية ما في الأمر ، أن القوط لم يخلفوا سوى القليل من الآثار الفنية ، ووضح في هذا القليل الأثر البيزنطي ، من ذلك قصورهم وحصونهم ومؤسساتهم الدينية بصفة خاصة من كنائس وأديرة . وبني أغلب هذه المؤسسات على عهد ليوفجلد وركارد وركسوث ووامبا ، واقترن اسم الأخير بكثير من الإصلاحات والمؤسسات المعمارية في طليطلة العاصمة ، فهو الذي بنى أسوارها الكبرى وما عليها من أبراج ، بناها وامبا على أطلال رومانية قديمة<sup>(٢)</sup> ؛ ومن أمثلة المباني التي ترجع كلها أو بعضها العصر القوطي في أسبانيا كنيسة القديس رومان والقديس جوان في فالنسيا ( بلنسية ) ، وكنيسة القديس ميجويل في تاراسا ( Tarrasa )<sup>(٣)</sup> . وأهم ما عثر عليه من الآثار الفنية للقوط ، هي الكنوز التي اكتشفت بالقرب من طليطلة ومارده وقرطبة ، وتشمل عدداً من الأكاليل والصلبان المصنوعة من الذهب والأحجار الكريمة ، وكذلك كمية من أدوات الزينة الثمينة والأوعية الخاصة ببعض الكنائس ؛ وتبين من هذا الكنز إكليلين من النوع الذي يقدم عادة كقربان ، وهما مقدمان من الملك سوثلا ( ٦٢١ — ٦٣١ ) والملك ركسوث ( ٦٤٩ — ٦٧٢ ) وقد برز الأثر بيزنطي واضحاً سواء أكان في الشكل العام أو في التفاصيل<sup>(٤)</sup> ؛ عثر كذلك على عدد من العملات القوطية والبيداليات التي ضربت تذكاراً لانتصاراتهم ، وهذه أيضاً صنعت على النسق اللاتيني والبيزنطي ، ومن النقود التي عثر عليها ما يرجع إلى إرمنجلد وليوفجلد وسيست<sup>(٥)</sup> .

Bradley, p. 365, F. N. I. (١)

Lynch, pp. 38 - 40 (٢)

C. med. H., II, p. 193 (٣)

Deanesly, p. 94 (٤)

C. med. H., II, p. 193; Bradley, pp. 323, 26, 34, 36 (٥)



## المراجع

### ( ١ ) المراجع العربية :

١ — الكتاب المقدس ( العهد الجديد )

٢ — ابن الأثير :

تاريخه

بולاق ١٢٨٤ هـ

٣ — ابن القوطية :

تاريخ افتتاح الأندلس ( نشره وترجمه

إلى الأسبانية د. ج. ريبير — Don Julián Ribera )

مدريد ١٩٢٦

٤ — ابن خلدون :

( ١ ) المقدمة

مصر ١٣٢٧ هـ

( ب ) تاريخه

مصر ١٩٣٦ هـ

٥ — أحمد أحمد يوسف ومحمد عزت مصطفى :

خلاصة تاريخ الطرز الزخرفية والفنون الجميلة

مصر ١٩٤١

٦ — أرسلان ( الأمير شكيب ) :

الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية .

فاس ١٩٣٦

٧ — المراكشي ( ابن عذارى ) :

كتاب البيان للغرب في أخبار الأندلس والمغرب

(نشره وحققه كولان وليثي بروفسال - G S Collin)

(E. Lévi - Provençal) ليدن ١٩٥١

٨ — للقري (أحمد) :

فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب مصر ١٣٠٢ هـ

٩ — أومان :

الأمبراطورية البيزنطية (ترجمة الدكتور طه بدر)

مصر ١٩٥٣

١٠ — بدر (الدكتور عبد المنعم وزميله) :

مبادئ القانون الروماني مصر ١٩٥٦

١١ — بينز :

الأمبراطورية البيزنطية (ترجمة الدكتور مؤنس

والأستاذ زايد) مصر ١٩٥٠

١٢ — راوس : التاريخ الإنجليزي (ترجمة الدكتور زياده) مصر ١٩٤٦

١٣ — فشر (١) تاريخ أوربا في العصور القديمة (ترجمة الدكتور

نصحي والدكتور عواد) مصر ١٩٥٠

(ب) تاريخ أوربا في العصور الوسطى (ج١ : ترجمة الدكتور

زياده والدكتور الباز) مصر ١٩٥٤

١٤ — لوبون (جستاف) :

حضارة العرب (ترجمة عادل زهير) مصر ١٩٤٨

١٥ — مؤنس (الدكتور حسين) :

فتح العرب للمغرب مصر ١٩٤٧

١٦ — يوسف كرم :

تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط مصر ١٩٤٦



(ب) المراجع الأجنبية

- 1 — Barker (E.) ;  
From Alex. to Constantine, Passages and documents illustrating  
the Hist. of Social and Political Ideas. ( Oxf., 1956 )
- 2 — Boissonnade ( P. ) ;  
Life and Work in Medieval Europe, Trans. by : L. Power  
( Lond., 1937 )
- 3 — Bradley ( H. ) ;  
The Goths, From the Earliest Times to the end of the gothic  
Dominion in Spain. ( Lond., 1887 )
- 4 — Bryce ( J. ) ;  
The Holy Roman Empire ( Lond , 1915 )
- 5 — Bury ( J. ) ;  
History of the Later Roman Empire. 2, vols. ( Lond , 1911 )
- 6 — C. Med. H. Vols, 1,II.
- 7 — Courcelle ( Pierre ) ;  
Histoire Littéraire des Grandes Invasions Germaniques  
( Paris, 1948 )
- 8 — Creighton ( M ) ;  
History of Rome ( Lond., 1910 )
- 9 — Davis ( R. H. C. ) ;  
A History of Medieval Europe, From Constantine to St Louis.  
( Lond., 1957 )
- 10 — Deanesly ( M. ) ;  
A History of Early Medieval Europe, 395 - 814 ( Lond , 1956 )
- 11 — Diehl ( Ch. ) ;  
A - L'Afrique Byzantine ( 533 - 709 ) ( Paris, 1896 )  
B - Histoire de L'Empire Byzantine ( Paris, 1924 )
- 12 — Dill ( S. ) ;  
Roman Society, in the Last Century of the Western Empire  
( Lond., 1925 )
- 13 — Dozy ( R. ) ;  
Les Musulmans de L'Espagne ( Leiden, 1861 )

- 14 — Eyre ( E. ) ;  
European Civilization, its origins and development. (by various contributors under the direction of E. Lyre, Oxf., 1935 )
- 15 — Fleure ( H. J. ) ;  
The Peoples of Europe ( Lond., 1925 )
- 16 — Frank ( T. ) ;  
A History of Rome ( New York, 1947 )
- 17 — Gibbon ( E. ) ;  
A History of the Decline and Fall of the Roman Empire  
( Lond., 1848 )
- 18 — Guizot ( M. ) ;  
Histoire de la civilisation en France ( Paris, 1868 )
- 19 — Hadrill ( W. ) ;  
The Barbarian West ( Lond., 1952 )
- 20 — Halphen ( L. ) ;  
Les Barbares, 400- 1000 ( Paris., 1926 )
- 21 — Hodgkin ( T. ) ;  
Italy and Her Invaders vol. 1, ( Oxf., 1892 )
- 22 — Lavisso et Rambaud ;  
Histoire Générale, T Premier : Les Origines ( Paris, 1922 )
- 23 — Leclercq ( Dom. H. ) ;  
L'Espagne Chrétienne (Paris., 1906)
- 42 — Lot. ( F. ) ;  
Les Invasions Germaniques, La Pénétration mutuelle du monde  
Barbare et du monde Romain ( Paris, 1935 )
- 25 — Lynch ( H. ) ;  
Toledo ( Lond., 1903 )
- 26 — Mommsen ( T. ) ;  
The History of Rome, vol. III, ( Lond., 1913 )
- 27 — Moss ( H. St. L. B. ) ;  
The Birth of the Middle Ages ( Oxf. 1943 )
- 28 — Oman ( Sir Ch. ) ;  
The Dark Ages 467 - 918 ( Lond., 1942 )
- 29 — Painter ( S. ) ;  
A History of the Middle Ages, 284- 1500 ( New York, 1954 )
- 30 — Perroy ( E. ) ;  
Le Moyen Age ( Paris, 1955 )



- 31 — Pirenne ( H. ) ;  
A History of Europe From the Invasions to the 16th. century  
( Lond., 1936 )
- 32 — Pirenne ( J. ) ;  
Les Grandes Courants de l'Histoire Universelle  
( Neuchatel, 1947 )
- 33 — Read ( H. ) ;  
The Meaning of art ( Lond., 1951 )
- 34 — Ripley ( W. Z. ) ;  
The Races of Europe ( Lond., 1899 )
- 35 — Stevens ( C. E. ) ;  
Sidonius Apollinaris and his age ( Oxf., 1931 )
- 36 — Tacitus ;  
A Treatise on the Situation, manners and inhabitants of  
Germany ( The Oxford Translation, Lond., 1904 )
- 37 — Taylor ( I. ) ;  
The Origins of the Aryans ( Lond., 1890 )
- 38 — Thompson ( T. W. ) ;  
History of the Middle ages ( Lond., 1931 )
- 39 — Watts ( H. B. ) ;  
Spain. ( Lond., 1893 )
- 40 — Zeller ( J. ) ;  
Histoire Resumé d'Italie ( Paris, 1876 )

( ح ) دوائر المعارف

- 1 — Encyclopaedia Britannica  
Arts. : Goths - Germanic Laws
- 2 — Encyclopaedia of Religion and Ethics  
Arts. : Arianism - Athanasius

## الفهرس

الصفحة	مقدمة
١	مدخل

من هم الجرمان ؟ — مساكنهم — صفاتهم البشرية —  
أصولهم وأقسامهم — مدينتهم الأولى : الحياة الاجتماعية —  
الحياة الاقتصادية — النظام الحربي والسياسي — حياتهم  
الدينية — الهجرات والغزوات الأولى .

### الفصل الأول

٣٢ / ظهور القوط وتحركاتهم

أصل القوط وموطنهم وهجرتهم — احتكاكهم  
بالإمبراطورية الرومانية — \* انقسام القوط إلى شرقيين  
وغربيين — القوط الغربيون في داكيا ووصول المسيحية  
إليهم — القوط الغربيون والإمبراطورية الرومانية في القرن  
الرابع الميلادي — وقعة أدرنة ٣٧٨ م ونتائجها —  
ثيوديسيوس العظيم والقوط الغربيون .

### الفصل الثاني

٦٣ / قيام مملكة القوط الغربيين

ظهور الأريك الباطلي — مغامراته — بين الأريك  
وستليكو-الوندالي — الأريك وتغريب روما عام ٤١٠ م —



المنحة

صدي هذا الحادث — وفاة الأريك ومسرحة دفنه — آتولف  
والأمبراطور هونوريوس وقيام دولة القوط الغربيين في غاله  
وأسبانيا عام ٤١٢ م — زواج آتولف من بلاسيديا ٤١٤ م —  
أسبانيا قبل دخول القوط الغربيين — القوط الغربيون في أسبانيا  
وانحاذ برشلونه عاصمة ٤١٤ م — خلفاء آتولف وعلاقتهم  
بالأمبراطورية الرومانية — واليا وأكويثانيا — خطر الهون  
وأثره في التقارب بين القوط الغربيين والرومان — عودة العلاقة  
القوطية الرومانية إلى التوتر .

### الفصل الثالث

٩٤ { تسكون أمبراطورية القوط الغربيين في غاله وأسبانيا }

يوريك وفتوحه في غاله وأسبانيا — الأريك الثاني وعلاقة  
القوط بالفرنجة — ووقته فوييه ٥٠٧ م — نقل العاصمة القوطية  
إلى ناربون — ولاية تيوديس القوطي الشرقي ملكا على القوط  
الغربيين وانتقال العاصمة إلى برشلونه — أجيالا وتركيز السياسة  
القوطية في أسبانيا ونقل العاصمة إلى مارده — أثانا جلد وتدخل  
جستينيان — نقل العاصمة إلى طليطلة وبرز النفوذ البيزنطي —  
ليوثجند يحاول بسط سيادة القوط على جميع أسبانيا — ركارد  
الأول وتمول القوط الغربيين إلى الكاثوليكية ٥٨٧ م —  
سوتثلا وتقسيم الوغلية الأمبراطورية على النسق البيزنطي —  
زوال السيادة البيزنطية نهائيا من أسبانيا — وامبا آخر ملوك

القوط العظام .

## الفصل الرابع

١١٥

﴿ نهاية دولة القوط الغربيين ﴾

تقدم شا كل أسبانيا القوطية — صفف الروح العسكرية —  
صفف الملوك من بعد وامبا — أرفج ومؤامرة وصوله إلى العرش —  
شدة وطأته على اليهود — أجيكا وتامر اليهود — وتيزا (غيطشه)  
والهدوء النسبي — زورريك (لودريق) وانقسام المجتمع القوطي —  
ظهور العرب — الفتح العربي وإزالة دولة القوط ٩٢ هـ  
(٧١١ م) — أسباب سقوط القوط الغربيين — مدى سيادة  
العرب على أسبانيا القوطية ومصير العنصر القوطي في التاريخ .

## الفصل الخامس

١٣٢

﴿ بعض مظاهر المجتمع القوطي ﴾

— ١ —

١٣٢

﴿ نظم الحكم ﴾

ولاية العرش — مجلس طليطلة — التشريعات القانونية

— ٢ —

١٥١

﴿ السياسة الدينية ﴾

تنظيم هيئة الأكليروس القوطية — طابع الكنائس



المسألة

الأريوسية الجرمانية — القوانين الخاصة بتنظيم الهيئة الدينية —  
سلطة رجال الدين وعلاقتهم بملوك القوط — التعصب  
الأريوسية — بوادر التحول إلى السكاثوليكسية — ركارد والتحول  
الرسمي ٥٨٧ م — أثر هذا التحول في العلاقة مع البابوية والدولة  
البيزنطية — انتشار بعض مظاهر الحضارة البيزنطية — الأثر  
السياسي في تحقيق الوحدة الداخلية — اضطهاد اليهود .

— ٣ —

١٧٠ { النهضة الأدبية والفكرية }

طالبها — المكتبات — جهود الملوك والأمراء الأدبية  
والفكرية — اللغة القوطية واللغة اللاتينية — إيزيدور  
الأشيلي — الفنون القوطية .

١٨١ المراجع العربية  
١٨٣ المراجع الأجنبية  
١٨٥ دوائر المعارف  
انظر أيضًا :

- ١ — خريطة حوض الدانوب الأدنى في القرن الرابع  
الميلادي وعليها الولايات الرومانية والمناطق التي  
احتلها القوط الغربيون أمام ص ٦٢
- ٢ — خريطة أعالي الدانوب في القرن الخامس الميلادي  
وعليها مواضع بعض القبائل الجرمانية والمناطق  
التي ورد ذكرها أمام ص ٦٢
- ٣ — خريطة امبراطورية القوط الغربيين في أقصى  
اتساعها أمام ص ٩٦

## تصويب

الصواب	المخطأ	السطر	الصفحة
Tacitus	Ibid	حاشية ٢	١
تادرا	أدرا	٦	١٥
على الجمعية	للجمعية	١٣	١٦
Vangiones	Vangiones	الأخير بالحاوية ٢	١٤
٢٨ ق.م.	٣٨ ق.م.	١	٢٦
معتوما	معتويا	٢١	٢٨
Aquileia	Aeuilleia	٧	٣٠
Peucini	Peucini	١٥	٣١
Goths	Goths	١	٣٢
إطلاقا	أطلاقا	١	
القديم	القديم	٧	
Guttones	Guttones	١٤	
Hodgkin	Idodgklu	الأخير بالحاوية ٣	
Gothland	Gothbland	١٢	٣٣
Fleure	Firenu	حاشية ٢	٤٧
Anvergne	Anvergne	٨	٩٥
Durance	Dnrnce	١٦	٩٦
Flavius	Flaviusy	٧	١٠٦
ويطلى	وأعطى	٥	١١٠
خروجه	رجوعه	٧	
Grammatica	Grammatic	١٠	١٧١



















